رسالتان في العقيدة الإسلامية

الكلام الموثوق

في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

و

تائية القضاء والقدر

مع شرحها الموسوم بسلك الدرر

تأليف

شيخ التفسير والحديث الشيخ

محمد إدريس الكاندهلوي

١٣١٧–١٣٩٤هـ

اعتنى به

محمد [illegible]

مكتبة قاسم العلوم

رسالتان في العقيدة الإسلامية

الكلام الموثوق

في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

و

تائية القضاء والقدر

مع شرحها الموسوم بسلك الدرر

رسالتان في العقيدة الإسلامية

الكلام الموثوق و تائية القضاء والقدر

في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق — مع شرحها الموسوم بسلك الدرر

تأليف: محمد إدريس الكاندهلوي

تحقيق: محمد عمار سليم المدني

الطبعة: الأولى 1445هـ ـ 2023م

الناشر: مكتبة قاسم العلوم

التوزيع: مكتبة قاسم العلوم ودار الرياحين

ردمك: 978-1-7399950-5-8

مكتبة قاسم العلوم للدراسات والتحقيقات العلمية

Qasim al-Ulum

Centre of Islamic Studies and Research

بريطانيا

www.qasimalulum.com — info@qasimalulum.com

+447778703013 — qasimalulum

المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية: +966530952458

بيروت - الجمهورية اللبنانية: +9613602762

رسالتان في العقيدة الإسلامية

الكلام الموثوق

في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

و

تائية القضاء والقدر

مع شرحها الموسوم بسلك الدرر

تأليف

شيخ التفسير والحديث الشيخ

محمد إدريس الكاندهلوي

١٣١٧ - ١٣٩٤هـ

اعتنى به

محمد عمار سليم المدني

مكتبة قاسم العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله المُقدَّس عن مُماثلة المُحدثات، المُتعالي عن النقائص والمُتغيِّرات، المدعوِّ بأنواع الألسُن وأصناف اللغات، لا إله إلَّا هو خالق الأرض والسَّماوات، أحمده على ما أهدى من المِنح؛ ومنح من الهِدايات.

وأُصلِّي على أنبيائه الذين طهَّروا الأرض من الضَّلالات، خصوصًا على المبعوث بآخر الرِّسالات، المُؤيَّد بالمعجزات الباهرات والآيات البيِّنات، المُشفَّع في الميقات، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرِّيَّته وتابعيهم صلاةً دائمةً مع الآناء والأوقات.

أمَّا بعد:

إنَّ أعظم نعمة وأجلَّ مِنَّة بِعثةُ نبيِّنا محمَّد ﷺ بعقيدة صافية تُحقِّق الصَّلاح والخير، فالعقيدة التي أرسى النَّبيُّ ﷺ قواعدها، وثبَّت أُصولها؛ هي مصدر الخيرات ومنبع السَّعادة والمسرَّات، وذلك لمَن رعاها حقَّ رعايتها، واتَّبع هُداها، والتزم بمقتضاها، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

وكان هناك الاهتمام البالغ ببيان العقيدة الإسلامية، والاشتغال بشرحها ونشرها، التي توارثتها الأمَّة منذ نشأتها، عبر العصور من أعلام العلماء من المتقدِّمين والمتأخِّرين، وقاموا بتأليف الكتب ما بين المُختصرات والمُطوَّلات، بأساليب مُبتكرة تناسب جميع المستويات، فما زال الناس يقتبسون من علومها، ويستفيدون من بطونها.

وهاهنا بين أيدينا هذا الكتاب، الذي يحتوي بين دفَّتيه على رسالتين عظيمتين نافعتين

عن أهم مسائل العقيدة الإسلامية الصَّافية؛ الأولى: في مسألة خلق القرآن، والثَّانية: في القضاء والقدر.

ومؤلفهما فضيلة الشَّيخ العلَّامة المُفسِّر المُحدِّث الشَّيخ محمد إدريس الكاندهلوي ﵀، من بقايا الفحول من أولئك العلماء الذين قضوا عمرهم في خدمة هذا الدِّين الحنيف والدِّفاع عنه، ونذروا أنفسهم وأوقاتهم وما يملكون من غير ذلك لأجله، وبذلوا في ذلك النَّفْس والنَّفيس والغالي والرَّخيص، فألَّف الشَّيخ مؤلَّفاتٍ كثيرةً في علم العقيدة والتَّفسير والحديث والفقه السِّيرة النَّبويَّة وغير ذلك؛ ما بين المُختصر والمُطوَّل، سبق ذكرها.

الرِّسالة الأولى المسمَّاة بـ«الكلام الموثوق في تحقيق أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق» ناقش فيها المُؤلِّف مسألةً مهمَّة من العقائد الإسلامية؛ هل القرآن مخلوق أم لا؟ ومسألة الكلام، ومسألة الحروف والصَّوت.

عرض فيها مذاهب الفرق الإسلامية من أهل السُّنَّة الأشاعرة والماتريديَّة، والحنابلة، والمعتزلة، والكرَّاميَّة، وعرض أقوالهم بتفصيل، وناقشها وردَّ عليها استدلالًا بالأدِلَّة العقليَّة والنَّقليَّة.

وختم هذه الرِّسالة بذِكر ملخَّص لطيف عن كيف كان بدءُ هذه الفتنة ودور الإمام أحمد ﵀ وقيامه في ذلك مقام الصِّدِّيقين.

والرِّسالة الثَّانية المسمَّاة بـ«تائيَّة القضاء والقدر» ومعها شرحها «سلك الدُّرر في شرح تائيَّة القضاء والقدر»، ناقش فيها مسألة القضاء والقدر بأسلوب مُبتكَر، بشكل قصيدة قافية.

وهذه القصيدة جاءت ردًّا على قصيدة أُلقِيَت في زمن شيخ الإسلام الإمام تقي الدِّين ابن دقيق العيد (المتوفَّى ٧٠٢هـ) على لسان بعض أهل الذِّمَّة، والرَّاجح ـ والله أعلم ـ أنَّ نِسبتها إلى محمَّد بن أبي بكر السَّكاكيني، سيأتي التَّفصيل عنه لاحقًا.

فهذه القصيدة جاءت في ١٩٥ بيتًا، ووضع لها المؤلِّف شرحًا وجيزًا كافلًا لحلِّ مشكلاتها وفتح مُغلقاتها. وعرض فيها كذلك مذاهب الفرق الإسلاميَّة من القدريَّة، والمعتزلة، والجبريَّة، وأهل السُّنَّة والجماعة، وذكر أقوالهم في القضاء والقدر وأعمال العباد.

وقد ترجمتُ وألحقتُ مبحثين مهمَّيْن متعلِّقَيْن بموضوع الرِّسالتين في هذا الكتاب من كتابه «عقائد إسلام». ألحقتُ كلَّ واحدٍ منهما في بداية كلِّ كتاب، وهو خلاصة كلام المؤلِّف في الموضوع.

عملي في خدمة الرِّسالتين:

١ ـ أثبتُّ النَّصَّ كما وضعه المؤلِّف ـ قدر الاستطاعة ـ وتصحيحُ ما وقع فيه من الأخطاء المطبعيَّة أو الإملائيَّة أو ما وقع من تصحيف أو سقط، فصحَّحتها ولم أنبِّه على ذلك في الحواشي إلَّا إذا كانت مُؤثِّرة. فإثبات النَّصِّ الصَّحيح في المتن، والتَّنبيه إلى ذلك ـ إذا لزم الأمر ـ في الحاشية هو الغرضُ الأصليُّ من تحقيق الكتاب. وكما قال شيخنا العلَّامة محمَّد عوامة حفظه الله: «التَّحقيق: هو تحقيق النَّصِّ الَّذي كتبه المؤلِّف أو أراده المؤلِّف، وإخراجه على الصَّواب».

٢ ـ عزوتُ الآيات القرآنيَّة إلى سُورها، وجعلتها بين قوسين مزهرين ﴿...﴾ هكذا، وذكرتُ اسم السُّورة ورقم الآية بين معكوفتين [...] هكذا.

٣ ـ خرَّجتُ الأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة، وجعلتها بين علامتي التَّنصيص «...» هكذا، وذكرتُ المصادر في الحاشية وفق المنهج الآتي:

- إذا ذكر المُؤلِّف المصدر مع الحديث، فأثبتُّ النَّصَّ من المصدر نفسه.
- إذا كان الحديث في «الصَّحيحين» اكتفيتُ بعزوه إليهما أو إلى أحدهما إذا انفرد به.

۞ إذا لم يرد فيهما خرَّجتُه من «السُّنن الأربعة».

۞ إذا لم يرد الحديث في «الكتب السِّتَّة» خرَّجتُه من المصادر الحديثيَّة الأخرى الأقدم فالأقدم، واكتفيتُ بذكر مصدرٍ أو مصدرين حسب ما يقتضيه المقام.

۞ ذكرتُ اسم الكتاب والباب الذي ورد فيه الحديث إذا كان من الكتب السِّتَّة، وما عدا ذلك ذكرتُ رقم الحديث أو الجزء والصَّفحة فقط.

۞ اكتفيتُ بتخريج الحديث من موضعٍ واحد من كلِّ كتاب، ولو ورد في أكثر من موضع في ذاك الكتاب، وذلك أيضًا اجتنابًا لأن يثقل الكتاب بالحواشي.

٤ ـ خرَّجتُ النُّصوص والآثار وعزوتُها إلى أقدم المصادر، سواء كانت مطبوعةً أو مخطوطةً قدر الاستطاعة، وإذا ذكر المؤلف المصدر، أبدلت رقم الجزء والصفحة بالنسخة المعتمدة تم ذكرها في فهرس المصادر.

٥ ـ ترجمتُ للمؤلِّف ترجمة مختصرة، وعرَّفتُ ببعض كتبه المتعلِّقة بالعقيدة الإسلامية، وأشرتُ إلى ترجمته المُفصَّلة، التي جمعته في تحقيقي لرسالتيه «الباقيات الصَّالحات في شرح حديث إنَّما الأعمال بالنِّيَّات» و«تحفة الإخوان بشرح حديث شعب الإيمان».

٦ ـ ترجمتُ وألحقتُ مبحثين مهمَّين متعلِّقين بموضوع الرِّسالتين في هذا الكتاب؛ من كتابه «عقائد إسلام».

٧ ـ علَّقتُ في بعض المواضع تعليقًا مُختصرًا، حسب ما أراه مناسبًا، سببًا وعونًا ـ بمشيئة الله تعالى ـ على سهولة فهم الكلام وإدراكه، وهذا نادرٌ.

وأشكر أخي الحبيب الفاضل مولوي بلال درويش الَّذي حثَّني على خدمة هاتين الرِّسالتين وصوَّرهما لي، وأصرَّ عليَّ أن أخدمهما لصِلتي بتراث الشَّيخ محمَّد إدريس الكاندهلوي، نوَّر الله مرقده.

وأقدِّم وافر الشُّكر لكلِّ مَن ساعدني على إخراج هذا الكتاب وتقديمه للعلماء وطلبة العلم، وأخصُّ بهذا الوالدين الكريمين - أسأل الله أن يمدَّ في عمرهما على طاعته ويمدَّهما بالصِّحَّة والعافية والمعافاة -، وجميع مشايخي وأحبابي وزوجتي، وكلَّ مَن له حقٌّ عليَّ، فجزاكم الله خيرًا.

وَإنْ تَـجِدْ عيبًا فسُدَّ الخَلَلَا ... فَجَلَّ مَن لا عيْبَ فِيه وَعَلا

فَكُلُّنا يُخطي وكُلٌّ مُبتَلى ... فَنسألُ اللهَ الخِتامَ الأجمَلَا

كتبه

خادم العلم والعلماء

محمد عمار سليم المدني

٥ صفر ١٤٤٤هـ

❁ ❁ ❁



ترجمة المؤلِّف[1]

اسمه، ونَسبه، ونِسبته، وكُنيته:

هو المُفسِّر الكبير، المُحدِّث الجليل، الفقيه النَّبيل، الأصولي الأريب، الصُّوفي البصير، الأديب الشَّهير، العلَّامة البحَّاثة، شيخُ التَّفسير والحديث محمَّد إدريس بن محمَّد إسماعيل بن محمَّد إسحاق بن أبي القاسم محمَّد بن المفتي إلهي بخش، الصِّدِّيقي الفاروقي نَسبًا، البوبالي مولدًا، الكاندهلوي موطنًا ونشأةً، الحنفي مذهبًا.

مولده:

وُلد الشَّيخ ﷺ في ١٢ من شهر ربيع الآخر عام ١٣١٧هـ في مدينة بوبال في ولاية مادهيا برديش في الهند.

نشأته:

بدأ بحفظ القرآن عند والده، وأتمَّ ذلك وعمره تسع سنين، ثمَّ أخذه والده إلى الإمام الرَّبَّاني حكيم الأمَّة الإمام المُجدِّد أشرف علي التهانوي، ودرس عنده في المدرسة عدَّة كتب في اللغة العربية والفارسية والمنطق.

ثمَّ أخذه الإمام التهانوي إلى مدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور ليتمَّ تعليمه فيها.

---

(١) هذه ترجمة مختصرة، والمفصَّلة موجودة في مقدمة تحقيقي لرسالتين في الحديث الشَّريف للشَّيخ: «الباقيات الصَّالحات في شرح حديث إنَّما الأعمال» و«تحفة الإخوان»، ويمكن مسح الكود QR هذا للاطلاع عليه، وكذلك له ترجمة مفصَّلة في مقدمة «مقدمة الحديث» بقلم الأستاذ تاج الدِّين الأزهري التي صدرت عن مكتبة قاسم العلوم.

فدرس فيها عدَّة علوم وفنون، منها اللغة، والعقيدة، والفقه وأصوله، والحديث وأصوله، وتفسير القرآن الكريم وأصوله. تخرَّج فيها في عام ١٣٣٦هـ وكان عمره تسع عشرة سنة. بعد التخرُّج تاق قلبُه إلى أن يلتحق بأزهر الهند دار العلوم ديوبند، فالتحق بها للدراسة في دورة الحديث، وتلقَّى العلوم فيها، فقرأ «الكتب السِّتَّة» و«المُوطَّأين» وغيرها من الكتب الحديثيَّة على مشايخها. وتخرَّج فيها عام ١٣٣٨هـ.

بعد التخرُّج اشتغل بالتدريس والتأليف طوال عمره. فأوَّل مدرسة عُيِّن مدرسًا فيها هي مدرسة أمينية بدهلي، مكث فيها مدرِّسًا لمدَّة عام واحد.

ثمَّ في عام ١٣٣٩هـ عُيِّن مدرِّسًا في دار العلوم ديوبند، ومكث في هذا المنصب مفيدًا لمدَّة ثمانية أعوام. ثمَّ في عام ١٣٤٧هـ انتقل إلى الدكن بحيدرآباد، وكانت له دروس عامة في الدكن، واشتغل بالتأليف والتصنيف في تلك الفترة من حياته. وفي سنة ١٣٥٧هـ رجع إلى دار العلوم ديوبند، وعُيِّن شيخ التفسير فيها، وكانت له دروس في كتب الحديث أيضًا.

ثمَّ في بداية عام ١٣٦٩هـ بعد أن أُسِّست دولة إسلامية في باكستان هاجر إليها، ودرَّس الحديث الشَّريف في الجامعة العبَّاسيَّة الإسلامية هناك لمدَّة عامين، وفي عام ١٣٧١هـ عُيِّن مدرِّسًا في الجامعة الأشرفيَّة بلاهور، واستمرَّ مدرِّسًا فيها إلى آخر حياته حتى توفَّاه الله تعالى.

شيوخه:

المشايخ الذين تتلمذ عليهم الشَّيخُ إدريس كثرٌ، من أبرزهم حسب ترتيب الوفيَّات:

الإمام المُحدِّث خليل أحمد السهارنفوري، المتوفَّى ١٣٤٦هـ.

العلَّامة المفتي عزيز الرَّحمن الديوبندي، المتوفَّى ١٣٤٧هـ.

الشَّيخ الكبير محمَّد أحمد ابن الإمام محمَّد قاسم القاسمي النانوتوي، المتوفَّى ١٣٤٧هـ.

الإمام الحجَّة محمَّد أنور شاه الكشميري، المتوفَّى ١٣٥٢هـ.

الإمام المُجدِّد أشرف علي التهانوي، المتوفَّى ١٣٦٢هـ.

شيخ الحديث سيِّد أصغر حسين الديوبندي، المتوفَّى ١٣٦٤هـ.

العلَّامة المُحدِّث شبير أحمد العثماني، المتوفَّى ١٣٦٩هـ.

أشعاره:

كان للشَّيخ ﵀ ذوقٌ لطيفٌ في الشِّعر والأدب، خاصَّة أنَّه قضى مدةً يُدرِّس كتبًا في الأدب مثل «مقامات الحريري»، فكان لتلك المرحلة أثرٌ كبيرٌ في كونه شاعرًا مجيدًا باللغات الثَّلاث؛ العربية والفارسية والأردية. فله قصيدة في حمد الله تعالى والتَّضرُّع إليه، وميميَّة المديح والثَّناء، ونظمٌ في إسراء النَّبيِّ ﷺ ومعراجه بجسده، ونظمٌ جمع فيه أسماء النَّبيِّ ﷺ الواردة في القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة والكتب السَّماويَّة، وقصيدة في شأن صحيح البخاري، وقصيدة في مسألة العنعنة، وله مرثيَّات في وفاة شيوخه.

مؤلَّفاته:

لقد قام بجهد عظيم في تصنيف وتأليف عدَّة كتب مهمَّة في علوم وفنونٍ مختلفة، منها ما أُلِّف باللغة العربيَّة ومنها ما أُلِّف باللغة الأرديَّة، وكان مشتغلًا بالتَّأليف والتَّصنيف إلى وفاته ﵀، وعدد مؤلَّفاته يزيد عن ١٠٠ كتاب، منها أكثر من ٢٠ كتابًا باللغة العربيَّة. وأذكر هنا مؤلَّفاته التي تتعلَّق بالعقيدة الإسلامية دون غيرها.

- تحفة الإخوان بشرح حديث شعب الإيمان ـ طُبع بتحقيقي.
- الكلام الموثوق في تحقيق أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق.
- تائيَّة القضاء والقدر وشرحها سلك الدُّرر.
- عقائد إسلام ـ الكتاب عن العقائد الإسلاميَّة الأساسيَّة، وكيف يتمُّ تصحيح العقائد بطريقة صحيحة ثابتة من القرآن والسُّنَّة ـ باللغة الأردية.

ۜ علم الكلام ـ باللغة الأردية ـ شرَح فيه العقائد الإسلاميَّة التي ذكرها في كتابه «عقائد إسلام»، واستدلَّ لها بالأدلَّة النَّقليَّة والعقليَّة، وقال في رسالةٍ أرسلها إلى الشَّيخ خير محمَّد: «الزبيدي في شرح «إحياء علوم الدِّين» في كتاب العقائد استدلَّ على طريقة المُحدِّثين (أي: بالأدلَّة النَّقليَّة)، وطريقة المُتكلِّمين (أي: بالأدلَّة النَّقليَّة)، وطريقة أهل التَّزكية والتَّصوُّف (أي: بالحِكم والنُّكات والرَّقائق)، وهاهنا في كتابي هذا سلكتُ نفس المَسلك ـ باللغة الأردية.

ۜ أصول إسلام ـ ألَّف هذا الكتاب بعد تأليفه «علم الكلام»، واختصر فيه على المباحث المُتعلِّقة بالتَّوحيد، والرِّسالة، والقيامة. وأثبت أنَّ جميع المسائل المتعلِّقة بهذه الأصول لا تُخالف العقل، فأثبت وركَّز على الأدلَّة العقليَّة لإثبات هذه المبادئ المهمَّة ـ باللغة الأردية.

ۜ أحسن الحديث في إبطال التَّثليث ـ ردٌّ على أساس من أهمِّ أُسُس المسيحيَّة وهي دعوة التَّثليث، أو عقيدة الثَّالوث: أنَّ الله في ثلاثة أشخاص أو أفانيم؛ الآب، والابن (يسوع)، والروح القدُس ـ باللغة الأردية.

ۜ إسلام اور نصرانيت ـ ردَّ في هذا الكتاب على مَن يدَّعي أنَّ المبادئ والأُسُس التي وردت في القرآن هي كلُّها مأخوذة من الكتُب السَّماوية السَّابقة، فأثبت بالمقابلة بين القرآن الكريم والكتاب المُقدَّس أنَّ القرآن الكريم أعلى منزلة وأفضل وأكمل وأجمع من الكتب السَّماوية السَّابقة ـ باللغة الأردية.

ۜ پيام إسلام مسيح أقوام كى نام ـ الدَّعوة للمسيحيين إلى الإسلام ـ باللغة الأردية.

ۜ حيات عيسى (كلمة الله في حياة روح الله) ـ ردَّ في هذا الكتاب على المسيحيين والفرقة القاديانية؛ لما فيهما من العقائد الباطلة الفاسدة المُتعلِّقة بعيسى ﷺ، فأثبت في هذا الكتاب حياته، ورفعه إلى السَّماء ببدنه وروحه، ونزوله، وذلك بالأدلَّة النَّقليَّة والعقليَّة والشَّواهد التَّاريخية ـ باللغة الأردية.

* إثبات صانع عالم ـ باللغة الأردية.
* أحسن البيان في مسألة الكفر والإيمان ـ باللغة الأردية.
* لطائف الحِكم في أسرار نزول عيسى ابن مريم ﷺ ـ باللغة الأردية.
* مسك الختام ـ في مسألة ختم النُّبوَّة ـ باللغة الأردية.
* إسلام اور مرزائيت كا أصولي اختلاف ـ الاختلاف الأصولي بين الإسلام والفرقة القاديانية ـ باللغة الأردية.
* حدوث المادة والروح ـ باللغة الأردية.
* القول المُحكم ـ باللغة الأردية.
* نهاية الإدراك في حقيقة التَّوحيد والإشراك ـ باللغة الأردية.
* فتح الغفور شرح منظومة القبور ـ باللغة الأردية.

وفاته:

وبعد أن قام بمهمَّات التَّدريس والتَّأليف لأزيد من نصف قرنٍ اشتدَّ به المرض، وبه تُوفِّي.

وذلك بعد صلاة الفجر، السَّاعة الخامسة وعشر دقائق، في يوم الأحد، ٨ من شهر رجب المرجب سنة ١٣٩٤هـ.

وصلَّى عليه ابنه الأكبر الشَّيخ مولانا محمَّد مالك، رحمه الله رحمة واسعة وغفر له وأسكنه فسيح جناته، وجزاه عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء.

❁ ❁ ❁



الكلام الموثوق

في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

تأليف

شيخ التفسير والحديث الشيخ

محمد إدريس الكاندهلوي

١٣١٧ - ١٣٩٤هـ

اعتنى به

محمد عمار سليم المدني



مقدمة

الكلام الموثوق

الحمدُ لله الذي اتَّخذ إبراهيم خليلًا، وكلَّم موسى تكليمًا، وبعث محمَّدًا بالحقِّ نبيًّا ورسولًا، صلَّى الله عليه وعلى جميع أنبيائه، وعلى آله وأصحابه، وأهل القرآن أهل الله وخاصَّته.

قال الله تعالى في القرآن المجيد: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وقال ﷺ: «الجِدال في القرآن كفرٌ»، وقال ﷺ: «لا تُجادِلوا في القرآن؛ فإنَّ جِدالًا فيه كُفرٌ»، بالطَّعن فيه واستعمال المُقدِّمات الباطلة لإدحاض الحقِّ.

أمَّا بعد:

هل القرآن الكريم كلام الله ﷻ، أم مخلوق من مخلوقاته؟

أصبح هذا السُّؤال مسألة من أشدِّ المسائل إثارة للجَدل بين مذاهب الفرق الإسلامية.

وأصبح مَبحثًا من مقدِّمة المباحث الكلاميَّة والعقائديَّة في الإسلام.

وأصبح جزءًا لا يتجزَّأ من تاريخ القرآن.

فأصل فكرة القول بخلق القرآن قديمة، ووُجدت في اليهود، كما ذكر سندَها الإمام ابن الأثير الجزري رحمه الله حيث قال: «القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد كان داعيةً إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة، وأخذ ذلك عن بشر المريسي، وأخذه بشر من الجهم بن صفوان، وأخذه جهم من الجعد بن أدهم، وأخذه الجعد من أبان بن سمعان، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لبيد الأعصم وختنه، وأخذه طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النَّبيَّ ﷺ، وكان لبيد يقول بخلق التَّوراة، وأوَّل مَن صنَّف في

ذلك طالوت، وكان زنديقًا، فأفشى الزَّندقة».

فيُلاحظ أنَّ هذه الفتنة قديمة، ومجمل تاريخها أنَّها نشأت على لسان يهوديٍّ خبيثٍ هو لبيد، وهو مَن نقلها إلى الإسلام، وصنَّف فيها الزِّنديق طالوت ابن أخته. ثمَّ في العصر الأموي أذاعها بين الناس الجعدُ بن درهم في سنة نيف وعشرين ومائة، وحذا حذوه تلميذُه الجهم بن صفوان وغيرُه من رؤوس الضَّلالة.

فتطرَّق لهذه المسألة أحد أعلام العصر الحديث، الشَّيخ العلَّامة محمَّد إدريس الكاندهلوي ﷺ في هذه الرِّسالة اللطيفة التي سمَّاها بـ«الكلام الموثوق في تحقيق أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق».

فبدأ هذا الكتاب بتحقيق معنى كلام الله وحدوثه وقِدمه، وعرض مذاهب الفرق وأقوال الأئمَّة في ذلك، ثمَّ حقَّق معنى إنزال كلام الله ﷻ، ثمَّ تحقيق معنى سماع كلام الله ﷻ. ثمَّ عقد بابًا في بيان أنَّ كلام الله القديم لا يتَّصف بالحروف والأصوات وأقام الدَّليل على ذلك، ثمَّ بابًا في مسألة الحروف، ثمَّ ذكر ما احتجَّ به الحنابلة لإثبات الحرف والصَّوت والجواب عنه، فذكر خمسة أوجُه والجواب عنها. ثمَّ تكلَّم عن الفرق بين القراءة والمقروء والتِّلاوة والمتلوِّ. ثمَّ عقد بابًا عن المقولة المشهورة: لفظي بالقرآن مخلوق.

ثمَّ عقد فصلًا في ذكر أدلَّة أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وذكر ١٥ دليلًا نقليَّة، وأدلَّة عقليَّة، ثمَّ ذكر الآثار الواردة عن الصَّحابة والتَّابعين ﷺ في أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وأقوال الأئمَّة في ذلك.

ثمَّ عقد فصلًا في الرَّدِّ على الجهميَّة والمعتزلة، فذكر أقوالهم وناقشهم وأقام الأدلَّة العقليَّة والنَّقليَّة عليهم.

وختم الكتاب بخاتمة نفيسة في ذكر بداية هذه الفتنة وانتشارها، وموقف الإمام أحمد وقيامه في ذلك مقام الصِّدِّيقين ﷺ.

وأختم هذه المقدِّمة بذكر بعض المُؤلَّفات المُستقلَّة المُفيدة في هذه المسألة، علمًا بأنَّها نُوقشت في بطون كتب العقائد الإسلاميَّة كما قال المُؤلِّف في مقدِّمته: «وهي (أي: هذه المسألة) ـ وإن كانت مكتوبةً في كتب المُتقدِّمين ـ مزبورةٌ في زُبر المُتأخِّرين، مشروحةٌ في شروح الشَّارحين، مفسَّرةٌ في أسفار المُفسِّرين»، فهي:

۞ «مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرُّواة والمُحدِّثين وكتب الجرح والتَّعديل» ـ لشيخ شيوخنا العلَّامة الحجَّة الإمام عبد الفتَّاح أبو غدة، المتوفَّى ١٤١٧هـ.

۞ «رسالة في أنَّ القرآن غير مخلوق» ـ للإمام الحافظ إبراهيم بن إسحاق الحربي، المتوفَّى ٢٨٥هـ.

۞ «جزء فيه الرَّدُّ على مَن يقول: القرآن مخلوق» ـ للإمام ابن النَّجَّاد الحنبلي، المتوفَّى ٣٤٨هـ.

۞ «رسالة في تقرير أنَّ القرآن العظيم كلام الله القديم» ـ للإمام العلَّامة ابن كمال باشا، المتوفَّى ٩٤٠هـ.

۞ «رسالة في بيان مسألة خلق القرآن» ـ له أيضًا.

۞ «واضح الدَّليل والبرهان في الرَّدِّ على القائلين بخلق القرآن» ـ للإمام محمَّد بن علي الطوخي الوفائي الشَّاذلي، كان حيًّا سنة ٩١٢هـ.

۞ «نبذة مُفيدة في الرَّدِّ على القائل بخلق القرآن» ـ لسلطان العلماء العزِّ بن عبد السَّلام، المتوفَّى ٦٦٠هـ.

۞ «الحيدة والاعتذار في الرَّدِّ على مَن قال بخلق القرآن» ـ للإمام عبد العزيز الكناني، المتوفَّى ٢١٨هـ.

۞ «الاختلاف في اللفظ والرَّدُّ على الجهميَّة المشبِّهة» ـ للإمام ابن قتيبة، المتوفَّى ٢٧٦هـ.

وألحقتُ بعد صور هذه النُّسخة؛ بحثًا مُختصرًا ومفيدًا بقلم المؤلِّف، فيما يتعلَّق بالقرآن الكريم، وهل كلام الله مخلوق، من كتابه «عقائد إسلام»، نقلته من الأردية إلى العربية لتعمَّ الفائدة.

هذا، وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالَمين.

كتبه

خادم العلم والعلماء

محمد عمار سليم المدني

٥ صفر ١٤٤٤هـ

صور النسخة الخطية



٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تجلى لعباده في كلامه ۞ وجعل كلامه علة الإيجاد لخلقه وأنامه
وأبرزها من ظلمة العدم وهوة الكون ۞ إلى نور الوجود ومنصة الشهود بكاف ونون
وأنزل لهم من نور ذاته قرآنا عربيا غير ذي عوج وجعله معجزة باقية على ممر الدهور وساطعة البراهين والحجج. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي المبعوث بالنور الأبلج الداعي للأنام إلى الحق الأبهج والهادي لهم إلى الطريق الأنهج وعلى آله وأصحابه ومن سلك سواء السبيل والمنهج

أما بعد

فيقول العبد الضعيف محمد إدريس الكاندهلوي الصديقي نسبا والحنفي مذهبا والأشعري مشربا. كان الله له وكان هو لله وجعل همه رضاه فيما يحبه ويرضاه آمين إن مسألة الكلام من أصول العقائد الدينية ومهمات المباحث الكلامية فكم من عالم فيها زل وكم من ماهر في العقل قد ضل وكم من تمسك بالحق قد طل وبالجملة قد طم الخطب فيها وجل. وهي وإن كانت مكتوبة في كتب المتقدمين مدونة في زبر المتأخرين منشورة في شروح شارحين محفوظة في صدور العارفين مفرقة على ألسنة المتكلمين مسطورة في أسفار المحدثين مفسرة في أسفار المفسرين لكني بحول الله وقوته وتأييده ومعونته أردت أن أتحف الأحباب والأصحاب بلب اللباب وزبدة ما ذكره أولو الألباب في هذا الباب وأنقح ما ينبغي تنقيحه وأوضح ما يجب توضيحه وأحرر ما يليق أن يحرر وأعرضه بترتيب غريب وأسلوب مبتكر وأوقف البادي والعاكف على الحاصل والمحصول وألخص المواقف وأشرح مقاصد أهل السنة وما مضى عليه صدر هذه الأمة من الصحابة
والتابعين والأئمة المجتهدين رضي الله تعالى
عنهم وعنا معهم أجمعين وسميته

«الكلام الموثوق في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق»

فأقول وبالله التوفيق وبيده
أزمة التحقيق وهو الهادي
إلى الحق وسواء السبيل
وهو حسبي
ونعم
الوكيل

يرجع وقد قال بعض الامراء للمتوكل ان احمد لا يأكل لك طعاماً ولا يشرب لك شراباً ولا يجلس على فرشك ويحرم ما تشرب به فقال والله لو نشر المعتصم وكلمني في احمد ما قبلت منه وجعلت رسل الخليفة تفد اليه في كل يوم تستعلم اخباره وكيف حاله وجعل يستفتيه في اموال ابن ابي دؤاد فلا يجيب بشيء ثم ان المتوكل اخرج ابن ابي دؤاد من سر من رأى الى بغداد بعد ان اشهد عليه نفسه ببيع ضياعه واملاكه واخذ امواله كلها قال عبد الله بن احمد وحين رجع الى من سامرا وجدنا عينيه قد دخلتا في موقيه وما رجعت اليه نفسه الا بعد ستة اشهر وامتنع ان يدخل بيت قرابته او يدخل بيتاهم فيه او ينتفع بشيء مما هم فيه لاجل قبولهم اموال السلطان وكان مسير احمد الى المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين ثم مكث الى سنة وفاته وكل يوم الا ويسال عنه المتوكل ويوفد اليه في امور يشاوره فيها ويستشيره في اشياء تقع له ولما قدم المتوكل بغداد بعث اليه ابن خاقان ومعه الف دينار ليفرقها على من يرى فامتنع من قبولها وتفرقتها وقال ان امير المؤمنين قد اعفاني مما اكره فردها وكتب رجل رقعة الى المتوكل يا امير المؤمنين ان احمد يشتم آباءك ويرميهم بالزندقة فكتب فيه المتوكل اما المأمون فانه خلط فسلط الناس على نفسه واما ابي المعتصم فانه كان رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام واما اخي الواثق فاستحق ما قيل فيه ثم امر ان يضرب الرجل الذي رفع اليه الرقعة مائتي سوط فاخذه عبد الله بن اسحق بن ابراهيم فضربه خمسمائة سوط فقال له الخليفة لم ضربته خمسمائة سوط فقال مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله ومائة لكونه قذف هذا الشيخ الرجل الصالح احمد بن حنبل وقد كتب الخليفة الى احمد يسئله عن القول في القرآن سؤال استرشاد واستفادة لا سؤال تعنت ولا امتحان ولا عناد فكتب اليه احمد رحمه الله رسالة حسنة فيها آثار عن الصحابة وغيرهم واحاديث مرفوعة وقد اوردها ابنه صالح في المحنة التي ساقها وهي مروية عنه وقد نقلها غير واحد من الحفاظ كذا في البداية والنهاية ص ٣٣٧ ج١٠ تا ص ٣٤٠ ج١٠ .

وفاة الامام احمد بن حنبل

وبالجملة هذه الاستقامة في مثل هذه الفتنة العظيمة من كرامات الامام وكان ولد في شهر ربيع الاول سنة اربع وستين ومائة ومرض تسعة ايام وتوفي رحمة الله عليه سنة احدى واربعين ومائتين على الصحيح ليلة الجمعة وصلى عليه بعد العصر ثاني شهر ربيع الآخر او لثلاث عشرة بقين منه وقيل غير ذلك وقبره ظاهر ببغداد يزار ويتبرك به قال ابو زرعة بلغني ان المتوكل امر ان يمسح الموضع الذي وقف الناس فيه للصلاة على الامام احمد فبلغ مقام الفي الف وخمسمائة الف واسلم يوم وفاته عشرون الفا وكشف قبره بعد موته بمائتين وثلاثين سنة لموت بعض الاشراف ودفنه بجانبه فوجد كفنه صحيحا لم يبل وجثته لم تتغير كذا في شرح الاذكار لابن علان المكي ص ١٢٨ ج١ رحمة الله عليه على ممر الليالي والايام سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. فاطر السموات والارض انت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين آمين يا رب العالمين.

القُرآن كلامُ الله قَدِيم غير مَخلوق

مقتبس من «عقائد الإسلام»

القرآن كلام الله قديم غير مَخلوق. قد نسبَه الله إليه حيث قال: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقد أجمع علماء الأمَّة على أنَّ القرآن كلامُ الله وصفته القديمة في جميع صفاته. ولم يكن لديهم خلافٌ في كونه غير مَخلوق في القرن الأوَّل ولا في عهد السَّلف. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

ولمَّا ينشأ كلُّ شيءٍ بقوله ﴿كُن﴾ فعُلِم أنَّ كلام الله غير مَخلوق وإلَّا فيحتاج ﴿كُن﴾ في خلقه إلى قول ﴿كُن﴾ الثَّاني، وهو يحتاج إلى الثَّالث، وهكذا إلى ما لا نهاية، وهو التَّسلسُل، والتَّسلسُل باطلٌ، فعُلم أنَّ كلام الله غير مَخلوق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ في هذه الآية ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ [الزمر: ٢٨]، إشارةً إلى أنَّ القرآن غير مَخلوق؛ إذ ما من مَخلوق إلَّا فيه عِوَج، والقرآن غير ذي عِوَج.

سمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلًا يقول: يا ربَّ القرآن، فمنعه وقال: إنَّ كلَّ مَربوب مَخلوق، والقرآن غير مَخلوق. وأيضًا إن كان القرآن مَخلوقًا لأمكن إتيانُ مثله.

وهذه خلاصة كلام الحافظ التوربشتي رحمه الله[1].

وقال الإمام الرَّبَّاني مُجدِّد الألف الثَّاني رحمه الله: «والقرآنُ كلام الله، أُنزل على نبيِّنا صلى الله عليه وسلم متلبِّسًا بلباس الحرف والصوت، وأمر به عباده ونهاهم، فكما نحن نُظهر كلامَنا النفسيَّ بتوسُّطِ الفم واللِّسان في لباس الحروف والأصوات، ونورد به مقاصدنا الخفيَّة في عَرصة

---

(١) في كتابه «المعتمد في المعتقد». وانظر في «شرح أصول اعتقاد»: ١/ ٢٤٢.

الظُّهور؛ كذلك الحق سبحانه أظهر كلامه النفسي لعباده في لباس الحرف والصوت، بقدرته الكاملة بلا توسُّط فمٍ ولسانٍ، وأجلَى أوامرَه ونواهيه الخفيَّة في ضمن الحرف والصوت على منصَّة الظهور.

فكِلا قسمَي الكلامِ؛ كلامُ الحقِّ، يعني: النَّفسيَّ واللَّفظيَّ، وإطلاقُ الكلَام عَلى كِلا القِسمين بِطريقِ الحقيقَة، كما أن كلا قسميْ كلامِنا النفسيّ واللَّفظيّ كلام بطريق الحقيقة. لَا أنَّ القِسم الأوَّل حقيقةٌ، والثَّاني مَجازٌ. فإن نفيَ المجازِ جائزٌ، ونفيَ الكلامِ اللفظيِّ وإنكارَ كونِه كلامَ اللهِ تعالى كُفرٌ»[1].

كما في القرآن أنَّ الكفَّار يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]. وأيضًا لو كان القرآن مَخلوقًا لأمكن الإتيانُ بمثله، وهذا مُحالٌ، فعُلِم أنَّ القرآن قديمٌ غير مَخلوق. قال تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ [البقرة: ٧٥].

فالحاصل أنَّ الكلام اللفظي أيضًا كلام حقيقيٌّ كالكلام النَّفسيِّ، كما قالَ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقال أيضًا: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣].

وقال عمر رضي الله عنه يوم السَّقيفة: «زَوَّرتُ في نفسي مقالة»[2]. يُعلم من هذه النُّصوص أنَّ الكلام يُطلَق على الكلام اللفظي والنَّفسي كليهما بالحقيقة.

اعلم أنَّ كلام الله يُطلق على معنيين:

الأوَّل: أنَّ كلام الله صفةٌ بسيطة قائمة بذاته، وهو قديم لا نِزاع فيه.

الثاني: أنَّ المراد بالكلام هو الكلمات الَّتي كلَّم الله بها، ويُطلق على القرآن كلام الله بهذا المعنى، وهذا القرآن الَّذي أنزل على النَّبيِّ ﷺ ونتلوه ونسمعه ونحفظه، وهُو المكتوبُ

---

(١) «المكتوبات الربانية»: ٢/ ٥١٨.

(٢) «سيرة ابن هشام»: ص٦٧٠.

في المصاحفِ، وهو كلام الله قديمٌ غير مَخلوق، لكنَّ استماعه وقراءته وكتابته حادِث ومَخلوق؛ لأنَّ القراءة والاستماع والكتابة من أفعالِ العبد، وأفعال العبد حادِثة ومخلوقة، وهو ما ذهب إليه المُحقِّقون.

قال الإمام الذهلي ﷺ: «من زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع»(١). أي: قراءته واستماعه. وتُسمَّى هذه الفئة: باللفظيَّة.

هذه المسألة تسبَّبت في تعكُّر صفو العلاقة بين الإمام البخاري والإمام الذهلي. وكان الإمام البخاري ﷺ على حقٍّ، فكان يقول: إنَّ القرآن قديم، لكنَّ قراءته واستماعه حادِث ومخلوق؛ لأنَّ القراءة والاستماع من أفعال العبد. لكن الإمام الذهلي كان يَكره أن يُقال: أنَّ لفظ القرآن ـ يعني قراءته واستماعه ـ حادث. لأنَّه لا يشكُّ أحدٌ في أنَّ الملفوظ والمقروء حادِث ومخلوق، وكان حذرًا كثيرًا، لذلك كان يمنع من استخدام هذا اللفظ، وكان يقول: إنَّه بدعة؛ لأنَّ مثل هذه التَّعبيرات ما كانت في عهد الصَّحابة ﷺ، ولو كان هذا الإطلاق جائزًا في الشَّرع، لكن لم يطب نفس الإمام الذهلي بهذا.

كان مقصد الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ أن يتَّضح الفرق بين صفة الله ﷻ وبين فِعل العبد، وأن يُعبِّر عن هذه المسألة بأن لا يقول أحدٌ للحادث قديمًا وللقديم حادثًا.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨].

❁ ❁ ❁

---

(١) «تغليق التعليق»: ٥/ ٤٣٣.



الكلام الموثوق

في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله الَّذي تجلَّى لعباده في كلامه

وجعل كلامه عِلَّة الإيجاد لخلقه وأنامِه

وأبرزها مِن ظُلمة العدم وهوَّة الكمون

إلى نور الوجود ومنصَّة الشُّهود بالكاف والنون

وأنزل لهم من نور ذاته قرآنًا عربيًّا غير ذي عِوج، وجعله معجزة باقية على مرِّ الدُّهور، ساطعة البراهين والحجج.

والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا ومولانا محمَّد النَّبيِّ الأُمِّيِّ المبعوث بالنُّور الأبلج، الدَّاعي للأنام إلى الحقِّ الأبهج، والهادي لهم إلى الطَّريق الأنهج، وعلى آله وأصحابه، ومَنْ سلك سواء السَّبيل وانتهج.

أمَّا بعد:

فيقول العبد الضَّعيف محمَّد إدريس الكاندهلوي الصِّدِّيقي نسبًا والحنفي مَذهبًا والأشعري مَشربًا، كان الله له وكان هو لله، وجعل همَّه وهواه فيما يُحبه ويرضاه، آمين:

إنَّ مسألة الكلام من أصول العقائد الدِّينيَّة ومهمَّات المباحث الكلاميَّة، فكم من عالِمٍ فيها زلَّ، وكم من مُدَّعي العقل قد ضلَّ، وكم من قائمٍ بالحقِّ قد طلَّ، وبالجملة قد طمَّ الخطب فيها وجلَّ.

وهي وإن كانت مكتوبةً في كتب المتقدِّمين، مزبورةً في زُبر المُتأخِّرين، مشروحةً في

شروح الشَّارحين، محفوظةً في صدور العالَمين، مقروءةً على ألسنة المُتكلِّمين، مسمورةً في أسماء المُحدِّثين، مُفسَّرةً في أسفار المُفسِّرين، لكنّي بحول الله وقوَّته وتأييده ومعونته أُريد أن أُتحف الأحباب والأصحاب بلبِّ اللباب وزبدة ما ذكره أُولو الألباب في هذا الباب.

وأُنقِّح ما ينبغي تنقيحه، وأُوضِّح ما يجب توضيحه، وأُحرِّر ما يليق أن يُحرَّر، وأعرضه بترتيب غريب، وأسلوب مُبتكَر، وأُوقف البادي والعاكف على المُحصَّل المنخول وأحسن المواقف، وأشرح مقصد أهل السُّنَّة، وما مضى عليه صدر هذه الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابعين والأئمَّة المُجتهدين، ﷺ وعنَّا معهم أجمعين.

وسمَّيته:

«الكلام الموثوق

في تحقيق أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق»

فأقول وبالله التوفيق وبيده أزِمَّة التَّحقيق، وهو الهادي إلى الحقِّ وسواء السَّبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

❁ ❁ ❁

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قد أجمع جميعُ الأنبياء والمُرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، على أنَّه تعالى مُتكلِّم، وتواتر ذلك عنهم، فإنَّهم كانوا يقولون: إنَّ الله تعالى أمر بكذا، أو نهى عن كذا، وأخبر عن كذا، والكلُّ من أقسام الكلام.

وقد اتَّفقوا على أنَّه سبحانه هو الملك الحقُّ القاهر فوق عباده، وكلُّهم [منسلكون][1] في أوامره وزواجره، مَقهورون تحت تصرُّفه وقهره، فيجب كونه متكلِّمًا، والكلام صفة له تعالى وراء صفة العلم وصفة الإرادة، كما لا يخفى، ولا خلاف بين أهل المِلَّة في كونه تعالى مُتكلِّمًا، لكنَّهم اختلفوا في تحقيق معنى كلامه وحدوثه وقِدمه؛ وذلك لأنَّهم رأوا ههنا قياسين متعارضين في النتيجة:

أحدهما: أنَّ كلام الله صفة له[2]، وكلُّ ما هو صفة له فهو قديم[3]، فكلام الله تعالى قديم.

وثانيهما: أنَّ كلام الله مُؤلَّف من حروف وأصوات مُترتِّبة متعاقبة في الوجود[4]، وكلُّ ما هو كذلك[5]، فهو حادث، فكلام الله حادث.

فهذان قياسان مُتعارِضا النَّتيجة؛ لأنَّ المُنافاة بين النَّتيجتين ظاهرة، فافترق المسلمون

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل، ولعل وقع فيها شيء من التحريف. فوق عباده وكلهم منسلكون

(٢) المقدمة الصغرى.

(٣) المقدمة الكبرى.

(٤) المقدمة الصغرى.

(٥) المقدمة الكبرى.

إلى أربع فرق، ومنع كلٌّ طائفة بعض المُقدِّمات، واضطرُّوا إلى القَدح في أحد القياسين ضرورة امتناع حقِّيَّة النَّقيضين.

فالحنابلة:

منعوا كبرى القياس الثَّاني، وهي: أنَّ كلَّ ما هو مُؤلَّف من حروف وأصوات مُترتِّبة فهو حادث، وذهبوا إلى أنَّ كلامه تعالى حروف وأصوات، وأنَّها قديمة قائمة بذاته تعالى، حتَّى قال بعضهم: بِقِدم الجلد والغلاف[1].

قال المُحقِّق الدواني: «فما بالهم لم يقولوا بِقِدم الكاتب والمُجلِّد والغلَّاف»[2] أي: صانع الغلاف. فهؤلاء صحَّحوا القياس الأوَّل، ومنعوا كبرى القياس الثَّاني.

ومُحصَّل قول الحنابلة: أنَّ كلامه تعالى حروف وأصوات قديمة قائمة بذات الحقِّ سبحانه في الأزل، وأنَّ المسموع من أصوات القُرَّاء والمَرئيَّ من أسطُر الكُتَّاب نفس كلام الله تعالى.

والمعتزلة:

منعوا صغرى القياس الأوَّل، وهي أنَّ كلام الله صفة له، وذهبوا إلى أنَّ كلامه تعالى مُؤلَّف من أصوات وحروف، وهو قائم بغيره تعالى، وأنَّ معنى كونه تعالى مُتكلِّمًا عندهم أنَّه خالق الكلام في غيره، ومُوجِد لتلك الحروف والأصوات في الجسم، كاللوح المَحفوظ، أو جبرَئيل، أو النَّبيِّ ﷺ، أو غيرهم، كشجرة موسى عليه السلام.

فهم منعوا أنَّ المُؤلَّف من الحروف والأصوات صفة الله تعالى، والمعتزلة لمَّا لم يُمكنهم إنكار كلام الله أصلًا ورأسًا؛ اضطرُّوا إلى إثبات كلام حادث قائم الغير، وقالوا: إنَّ كلامه تعالى حروف لا أصوات، يخلقها في غيره، كاللوح المَحفوظ أو جبريل، أو

(١) «شرح المواقف»: ٨/ ١٠٤.

(٢) في «شرح العقائد العضدية، مع حاشية الكلنبوي»، ١/ ٣٦٢.

الرَّسول ﷺ، وهو حادث عنهم، خلافًا للحنابلة.

وهذا الَّذي قالته المُعتزلة لا نُنكره نحن معاشر أهل السُّنَّة من الأشاعرة والماتريدية، بل نقول به ونُسمِّيه كلامًا نفظيًّا، ونعترف بحدوثه وعدم قيامه بذاته تعالى، ولكنَّا نُثبت وراء ذلك، وهو المعنى القائم بالنَّفس، ونقول: هو الكلام حقيقة، وهو قديم قائم بذاته، والكلام اللفظيُّ عبارة عنه، وقد تختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام، ولا يختلف ذلك المعنى النَّفسيُّ القائم بالنَّفس، باختلاف الدَّلالات والعبارات.

والكَرَّامِيَّة:

لمَّا رأوا أنَّ ما ذهب إليه المُعتزلة من كون كلامه تعالى صفة لغيره، وأنَّ معنى كونه تعالى مُتكلِّمًا: كونه خالقًا للكلام في غيره، مُخالف للعُرف واللغة. فإنَّ المُتكلِّم على قاعدة اللغة في سائر المُشتقَّات كالمُتحرِّك، والأسوَد مَن قام به الكلام لا مَن أوجده في غيره؛ لأنَّ معنى التَّكلُّم لغة: هو الاتِّصاف بالكلام لا خلقه وإيجاده في غيره.

فهؤلاء منعوا كبرى القياس الأوَّل، وذهبوا إلى أنَّ كلامه تعالى صفة له، مُؤلَّفة من الحروف والأصوات، وسلَّموا أنَّها حادثة، لكنَّهم زعموا أنَّها قائمة بذاته تعالى لتجويزهم قيام الحوادث بذاته تعالى، ومنعوا أنَّ كلَّ ما هو صفة له فهو قديم، فقد قالوا: بصحَّة القياس الثَّاني، وقدحوا في كبرى القياس الأوَّل.

فالكَرَّامِيَّة وافقوا الحنابلة في أنَّ كلامه تعالى صوت وحرف، ولكن سمَّوْا ذلك قولًا له، وسلَّموا أنَّه حادث، وقالوا: إنَّه قائم بذاته لتجويزهم قيام الحوادث بذاته تعالى، وهذا باطل؛ لأنَّ القديم لا يُتصوَّر عليه التَّغيير.

وبالجملة؛ يلزم على مَذهب الكَرَّامِيَّة كونُه تعالى مَحلًّا للحوادث، وعلى مذهب المعتزلة إطلاق للمُشتقِّ بدون قيام مبدأ الاشتقاق؛ لأنَّ الكلمات المُؤلَّفة لم تقم به تعالى، وإن كان علمُه بها قائمًا بذاته تعالى، وعلى مذهب الحنابلة الحشويَّة قِدم الحروف والأصوات

مع بداهة تعاقُبها وتجدُّدها.

وأهل السُّنَّة من الأشاعرة والماتريدية:

ذهبوا إلى صحَّة القياس الأوَّل، ومنعوا صغرى القياس الثَّاني، وهي أنَّ كلام الله مُركَّب من حروف وأصوات مُترتِّبة مُتعاقبة في الوجود.

وقالوا: إنَّ كلامه تعالى ليس من جنس الأصوات والحروف، بل قالوا: إنَّ كلامه تعالى معنًى واحدٌ بسيط قائم بذاته تعالى قديم.

فهم منعوا أنَّ كلامه تعالى مُؤلَّف من الحروف والأصوات، بل قالوا: إنَّ كلام الله ليس بحرف ولا صوت، ليس بعبريٍّ ولا عربيٍّ، وإنَّما العبريُّ والعربيُّ مِمَّا هو دَلالاتٌ على كلام الله تعالى.

وأثبتوا الكلام النَّفسيَّ، أي: كلام النَّفس الَّذي ليس بصوت ولا حرف، فإنَّ الإنسان يُسمَّى مُتكلِّمًا باعتبارين:

أحدهما: بالصَّوت وبالحرف اللَّذين يدلَّان على المعنى المُراد.

والآخر: باعتبار كلام النَّفس الَّذي ليس بحرف ولا صوت، وهذا مِمَّا لا سبيل إلى إنكاره، كما سيأتي.

فأهل السُّنَّة يُثبتون في حقِّ الله تعالى كلام النَّفس الَّذي ليس بحرف ولا صوت قائمًا بذاته سبحانه، والمُعتزلة يُنكرونه، وتحقيق الخلاف بيننا وبين المُعتزلة يرجع إلى إثبات الكلام النَّفسيِّ ونفيه، وإلَّا فنحن لا نقول: بقِدم الألفاظ والحروف، وهم لا يقولون: بحدوث الكلام النَّفسيِّ.

وأوَّلَ القاضي عضد الدِّين صاحب «المواقف» قول الإمام الأشعري: «إنَّ الكلام هو المعنى النَّفسيُّ، بحمل المعنى على القائم بالغير، فيُقابل العين دون المدلول، وذهب إلى أنَّ

مذهب الأشعري أنَّ الألفاظ أيضًا قديمة»[١].

ولصاحب «المواقف» في ذلك مَقالة مُفردة، ومحصولها كما قال السيِّد المُسند في «شرح المواقف»: «أنَّ لفظ المعنى يُطلق تارة على مدلول اللفظ وأخرى على الأمر القائم بالغير، فالشَّيخ الأشعري لمَّا قال: الكلام هو المعنى النَّفسيُّ؛ فَهِم منه الأصحاب أنَّ مُراده مدلول اللفظ وحده، وهو القديم عنده، وأمَّا العبارات فإنَّما تُسمى كلامًا مَجازًا لدلالتها على ما هو كلام حقيقيٌّ، حتَّى صرَّحوا بأنَّ الألفاظ حادثة على مذهبه أيضًا، لكنَّها ليست كلامَه حقيقة، وهذ الَّذي فهموه من كلام الشَّيخ له لوازم كثيرة فاسدة:

(١) كعدم إكفار مَنْ أنكر كلاميَّة ما بين دَفَّتي المُصحف مع أنَّه عُلِم من الدِّين بالضَّرورة كونه كلامَ الله حقيقة.

(٢) وكعدم المُعارضة والتَّحدِّي بكلام الله الحقيقي.

(٣) وكعدم كون المُقرَّر والمحفوظ كلامه حقيقة.

إلى غير ذلك ممَّا لا يَخفى على المُتفطِّن في الأحكام الدِّينيَّة.

فوجب حملُ كلام الشَّيخ على أنَّه أراد به المعنى الثَّاني، فيكون الكلام النَّفسيُّ عنده شاملًا للَّفظ والمعنى جميعًا، قائمًا بذات الله تعالى، وهو مكتوبٌ في المصاحف مقروءٌ بالألسُن، محفوظٌ في الصُّدور، وهو غير الكتابة والقراءة والحفظ الحادثة.

وما يُقال: أنَّ الحروف والألفاظ مُترتِّبة مُتعاقبة، فجوابه: أنَّ ذلك التَّرتيب إنَّما هو في التَّلفُّظ بسبب عدم مساعدة الآلة، فالتَّلفُّظ حادث، والأدِلَّة الدَّالة على الحدوث يجب حملها على حدوثه دون حدوث الملفوظ، جمعًا بين الأدِلَّة، وهذا الَّذي ذكرناه وإن كان مُخالفًا لما عليه مُتأخِّرو أصحابنا، إلَّا أنَّه بعد التَّأمُّل تُعرف حقيقته ثم كلامه.

قال السَّيِّد السند: هذا المَحمل لكلام الشَّيخ ممَّا اختاره عبد الكريم الشَّهرستاني في

---

(١) انظر: «شرح المواقف»: ٨/ ١١٧.

كتابه المُسمَّى بـ«نهاية الإقدام»، ولا شبهة في أنَّه أقرب إلى الأحكام الظَّاهريَّة المَنسوبة إلى قواعد المِلَّة». كذا في «شرح المواقف»[١].

واعترض عليه بعضُ أهل العلم: بأنَّ هذا الَّذي قاله صاحب المواقف عين مذهب الحنابلة غير أنَّه ضمَّ إليه المعنى أيضًا، فلا يكون للأشعري مذهبٌ غير مذهب الحنابلة، كذا في «نظم الفرائد»، وبالجملة مُحصَّل تأويل صاحب «المواقف» بحسب الظَّاهر إرجاع مذهب الأشعري إلى مذهب الحنابلة.

والجواب:

أنَّ هذا ليس بصحيح؛ فإنَّ صاحب «المواقف» لا يقول: بقِدم النَّظم المُؤلَّف المقروء بالألسنة الكونيَّة، كما زعمت الحنابلة، فإنَّه بديهيُّ الاستحالة للقطع بأنَّه لا يُمكن التَّلفُّظ بالسِّين من بسم الله إلَّا بعد التَّلفُّظ بالباء، والمُتأخِّر حادث.

بل يقول: بقِدم اللَّفظ القائم بذاته تعالى، وهو اللَّفظ النَّفسيُّ الغيبيُّ، وهو قائم بذات الباري تعالى، وهو ليس بمُرتَّب الأجزاء، كالقائم بنفس الحافظ للقرآن ليس فيها ترتُّب في الوجود وتعاقُب فيه حتَّى يكون وجود بعضها مشروطًا بانقضاء البعض كما في القراءة.

فإنَّه لا يُمكننا أن نتلفَّظ ببعض الحروف ما لم تُفرَّق عن بعضها؛ لعدم قدرة اللسان على التَّلفُّظ بجميع حروف القرآن دفعة، بخلاف وجودها في ذات الباري، فإنَّ وجود جميعها هناك معًا لازمٌ بذاته دائم بدوامه، فلا يلزم حدوث شيء منها.

فاللفظ الغيبيُّ القائم بذات الله تعالى مقرٌّ وقديم لمعناه، واللفظ القائم بألسنتنا مقرٌّ وحادث، فالمقصود بنفي التَّرتيب في حقِّه تعالى؛ نفي التَّرتيب الزَّماني الَّذي يقتضي وجود بعض الحروف بعد انقضاء البعض، لا نفي التَّرتيب الوضعي؛ إذ لا يتحقَّق الكلمة والكلام بدون التَّرتيب بين الحروف.

---

(١) «شرح المواقف»: ٨/ ١١٧.

وقد ظهر بهذا الكلام أنَّ مذهب الأشعري ليس كمذهب الحنابلة، كما فُهم وزُعِم.

فإنَّ مُراد الأشعري بالمعنى النَّفسيِّ: هو المعنى القائم بالله تعالى الشَّامل للدَّالِّ ومَدلوله باعتبار وجودهما العلميِّ، كما نصَّ عليه أحمد في ردِّه على ابن أبي داود، كما ذكر في كتاب «السُّنَّة» وغيره، فلا يكون اللفظ الخارجي دخلَ أصلًا في القِدم.

ولذا قال العلَّامة الآلوسي: «المُراد به مجموع اللفظ النَّفسيِّ والمعنى، كما يقتضيه ظاهر التَّشبيه القائم بنفس الحافظ، ولا شكَّ أنَّه لا تَرتُّب فيه، أي: لا تَعاقُب فيه في الوجود العلميِّ، وإنَّما يحصل في التَّلفُّظ الخارجيِّ؛ لضرورة عدم مساعدة الآلة، فالملفوظ بالتَّلفُّظ الخارجي الَّذي هو الصُّورة حادث، لا اللفظ النَّفسي، وتُحمَل الأدِلَّة الَّتي تدلُّ على الحدوث على حدوث الملفوظ بالتَّلفُّظ الخارجي، وعلى هذا لا ورود للاعتراض أصلًا». كذا في روح المعاني[1].

وقال العلَّامة التَّفتازاني: «هذا، أي: كون اللفظ قائمًا بذاته تعالى، جيِّدٌ لِمَن يتعقَّل لفظًا قائمًا بذاته تعالى، غير مُؤلَّف من الحروف المَنطوقة أو المُخيَّلة، المشروط وجود بعض الحروف بانقضاء بعضها»[2].

والمعنى: أنَّ هذا الكلام إنَّما يستقيم إذا تصوَّر تصوُّرًا صحيحًا لفظًا قائمًا بنفس الباري تعالى غير مُرتَّب الأجزاء، ولا مُؤلَّف من حروف منطوقة أو مُخيَّلة أو منقوشة.

والفرق بأنَّ وجود الحروف على هذا الوجه في ذاته تعالى بالوجود العيني، وفي نفس الحافظ بالوجود الظِّلِّيِّ الخياليِّ لا يضرُّنا إذا تعرَّض مجرَّد التَّصوير والتَّفهيم لا إثباته بطريق التَّمثيل؛ فيبطل ما يُتوهَّم من أنَّها إذا لم يكن فيها ترتيب لا يبقى فرقٌ بين لَمَح ومَلح ونظائرهما.

وما ذكر العلَّامة التَّفتازاني من أنَّ قيام الحروف بذات الله تعالى ليس بمعقول، وإن

---

(١) «روح المعاني»: ١/ ١٢٤.

(٢) «شرح العقائد النسفية»: صـ١٢٥.

كانت غير مُرتَّبة، فإن أراد أنَّ كيفيَّة قيامها به تعالى غير معقولة لنا، فلا كلام فيه.

وإن أراد أنَّه لا يجوز ذلك عقلًا، ففيه كلامٌ؛ إذ لا دليل على استحالة قيام الحروف القدسيَّة القديمة بذاته تعالى، والله ﷻ أعلم.

قلت: وهكذا نُسب إلى الشهرستاني أنَّه قائلٌ بِقِدم الحروف والألفاظ، وادَّعى أنَّه مذهب السَّلف.

قلت: يظهر من كلامه في «نهاية الإقدام»[(١)] أنَّه يقول: بِقِدم الحروف القدسيَّة والكلمات الغيبيَّة الَّتي قامت بذات الحقِّ سبحانه، ولا يقول: بِقِدم الحروف والأصوات الَّتي قامت بألسنتنا، وصارت صفاتٍ لنا، انظر من كتابه صـ: ٣١٣ إلى صـ: ٣١٧، وانظر صـ: ٣٣٣ منه، وسيأتي الكلام عليه في تحقيق مذهب الحنابلة.

قال المُحقِّق الدواني: «ولنا في تحقيق الكلام كلامٌ يتوقَّف على تمهيد مقدمة، وهي أنَّ مبدأ الكلام النَّفسيّ فينا صفة نتمكَّن بها من نظم الكلمات وترتيبها على الوجه الَّذي ينطبق على المقصود، وهذه الصِّفة ضد الخرس، وهي مبدأ الكلام النَّفسيّ، وهي غير العلم، فإنَّها قد تختلف عن العلم، فإنَّ كلام الغير معلومٌ لنا، فقد تعلَّق به علمُنا ولم تتعلَّق به تلك الصِّفة منَّا، فليس كلامنا، بل كلامُنا هو الكلمات الَّتي رتَّبناها في خيالنا لا غير، وما رتَّبه غيرُنا فهو كلام الغير.

وإذا تمهَّد ذلك؛ فنقول: كلام الله تعالى هو الكلمات الَّتي رتَّبها الله تعالى في علمه الأزليّ بصفته الأزليَّة الَّتي هي مبدأ تأليفها وترتيبها، وهذه الصِّفة قديمة.

وتلك الكلمات المُرتَّبة أيضًا بحسب وجودها العلميّ أزليَّة أيضًا، بل الكلمات والكلام مطلقًا كسائر المُمكنات أزليَّة بحسب وجودها العلمي.

وليس كلام الله إلَّا ما رتَّبه اللهُ تعالى بنفسه وبذاته من غير واسطة، وتلك الكلمات لا

---

(١) «نهاية الإقدام»: صـ٣١٣. طبعة المثنى.

تَعاقب بينها في الوجود العلمي حتَّى يلزم حدوثها، وإنَّما التَّعاقُب بينها في الوجود الخارجي، وهو بحسب هذا الوجود كلام لفظيٌّ حادث.

ولكن يُقال: أنَّه كلام الله من حيث انطباقه عليه، كما يُقال: إنَّ زيدًا الخارجي هو زيد المعلوم بعينه.

وهذا الوجه سالم ممَّا يلزم المذاهب المنقولة مثل ما يلزم على مذهب المُعتزلة من كون كلام الله تعالى قائمًا بغيره؛ وذلك لأنَّ الكلمات المُترتِّبة في علمه تعالى قائمة بذاته تعالى باعتبار وجودها العلميِّ.

وعلى مذهب الكَرَّامِيَّة من كونه تعالى مَحلًّا للحوادث؛ لأنَّ تلك الكلمات الأزليَّة قديمة لا حادثة.

وعلى مذهب الحنابلة مِن قِدم الحروف والأصوات مع بداهة تعاقُبها وتجدُّدها، وذلك لما قلنا من أنَّه: لا تعاقُب بين الكلمات المُترتِّبة في الوجود العلميِّ.

وعلى ما هو ظاهر كلام مُتقدِّمي الأشاعرة من أنَّ الألفاظ والحروف ليست كلام الله تعالى، بل معانيها. وذلك لِما قلنا: من كون كلام الله تعالى هو الكلمات المُترتِّبة في العلم الأزليِّ.

وأمَّا هذه الكلمات المُترتِّبة في الكلام اللفظيِّ فهي دلالات على الكلمات المُرتَّبة في العلم الأزليِّ، وهي الكلام حقيقة وأصالة، وأمَّا اللفظيُّ فإنَّما يُسمَّى كلامًا لدلالته على الكلام النَّفسيِّ، ويُطلق القرآن على المَعنيين بالاشتراك، فكما أنَّ إطلاق القرآن على الكلام النَّفسيِّ القائم بذاته تعالى حقيقي، كذلك إطلاق القرآن على اللفظ المُنزَّل على محمَّد ﷺ حقيقي.

وعلى ما أوَّل به المُصنِّف كلام الشَّيخ الأشعري من أنَّ الأصوات مع كونها من الأعراض السَّيَّالة قائمة بذاته تعالى من غير ترتيب، والتَّرتيب فينا لقصور الآلة، فإنَّه

يُؤدِّي إلى سفسطة ظاهرة. وذلك لِما قلنا: من كون قيام الكلمات الَّتي هي كلامه النَّفسيُّ بحسب وجودها العلمي.

ولا يلزم على ذلك ما رتَّبه المُصنِّف (أي: القاضي عضد الدين) على مُتقدِّمي الأشاعرة من المحذورات (الثَّلاثة المذكورة).

فإنَّ المُتحدَّى به حينئذ يكون كلام الله تعالى، وإنكار كون ما بين الدَّفَّتين كلامَ الله تعالى يكون كإنكار كون ما بين أوراق ديوان الحافظ كلام الحافظ، فيكون كُفرًا في حقِّ القرآن؛ إذ ليس معنى كون هذا المكتوب كلام الله، إلَّا أنَّه جعل ذلك الكلام موجودًا بالوجود اللفظي.

فإنَّه حين جعل كلام الله عبارة عن الكلمات الَّتي رتَّبها الله تعالى في العلم الأزليّ، يكون المُتحدَّى به كلامَ الله حقيقة؛ لأنَّ هذه السُّوَر والآيات الَّتي تحدَّى بها النَّبيُّ ﷺ كلامُ الله تعالى حقيقة؛ ضرورة كونها كلمات مُترتِّبة في علمه الأزليّ.

وإن كانت حين التَّحدِّي موجودةً في الخارج، وكان التَّحدِّي وطلب المعارضة باعتبار هذا الوجود الَّذي صارت بحسبه كلامًا لفظيًّا، بخلاف ما زعمَه مُتقدِّمو الأشاعرة.

فإنَّ المُتحدَّى به ـ على زعمهم ـ لا يكون كلامَ الله حقيقة، بل يكون إطلاق الكلام عليه على سبيل المَجاز لدلالته على الكلام الحقيقيّ، وعلى ما قلنا يكون كلام الله حقيقة وقطعًا، فيكون إنكارُه كفرًا.

لأنَّ إنكار كونه كلام الله تعالى إنكارٌ بالحقيقة لكون الكلمات المُترتِّبة الموجودة في علمه تعالى كلامًا له تعالى، فإنَّه مُتَّحدٌ معها بالذَّات، إلَّا أنَّه جعل موجودًا بالوجود اللفظي بعد كونه موجودًا بالوجود العلمي، وهذا القدر لا يخرج عن كونه كلامًا له تعالى حقيقة».

انتهى كلام المُحقِّق الدواني، مع زيادات وتشريحات مأخوذة من حواشيه، «حاشية الكلنبوي» و«حاشية المرجاني» و«حاشية الخلخالي». انظر «حاشية الكلنبوي على شرح

العقائد العضديَّة» للجلال الدواني ﷺ[١].

والقرآن معجزة باعتبار هذا الوجود اللفظي، وباعتبار كونه نظمًا عربيًّا، باعتبار وجوده القدسيّ الغيبيّ المَكنون في علمه الأزليّ القديم القائم بذاته، فإنَّ القرآن في هذه المَرتبة قديم صفة لله ﷻ، ويُشترط في المعجزة أن تكون فِعل الله تعالى أو ما يقوم مقامه.

فإذا تنزَّل في مرتبة الألفاظ الحقيقيَّة صار معجزة؛ لأنَّ كونه لفظًا عربيًّا مجعول بنصِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فيكون معجزة بلا شُبهة، راجع «روح المعاني»[٢]، فافهم ذلك واستقم.

والحاصل: أنَّ القرآن معجزةٌ باعتبار هذه المَرتبة الحادثة، لا باعتبار كونه صفة قائمة بذاته تعالى؛ لأنَّ المعجزة إنَّما تكون أمرًا حادثًا لا أمرًا قديمًا؛ ولأنَّ المعجزة تكون مقرونة بالتَّحدِّي والمُعارضة، وهذا شأن الحادث لا القديم.

والتَّحقيق في هذا المقام: ما ذكره عمدة المتأخِّرين العلَّامة الألوسي في مقدِّمة «تفسيره»[٣]، وهو تحقيق عجيب وتدقيق غريب، بل هو غاية التَّحقيق ونهاية التَّدقيق، وخلاصته:

أنَّ الكلام له معنيان:

(١) كلام بمعنى مبدأ التَّكلُّم. (٢) وكلام بمعنى المُتكلَّم به وهو الحاصل بالمصدر، وذلك لأنَّ المُتكلِّم بالكلام الظَّاهري لا بد أن يُزوِّره ويُدبِّره في نفسه أولًا، وذلك التَّدبير منه صفة باطنيَّة منافية للسُّكوت، وهي مبدأ التَّكلُّم.

وأمَّا ما زوَّر ودبَّر في نفسه من كلمات مُخيَّلة وألفاظ ذهنيَّة[٤] ترتيبًا ذهنيًّا على وجه؛ لو

---

(١) «شرح العقائد العضدية»: ٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٥.

(٢) «روح المعاني»: ١/ ١٢٤.

(٣) «روح المعاني»: ١/ ١١٦.

(٤) لعل سقط هنا كلمة: «مرتبة».

برزت وظهرت لكانت عين الكلام اللفظي لمَن رتَّبها.

فهذا الكلام المُرتَّب المُخيَّل في الذِّهن كلام بمعنى المُتكلِّم به، فكذلك الكلام في حقِّه ﷻ له معنيان:

الأوَّل: بمعنى مبدأ التَّكلُّم في حقِّه ﷻ، وهو صفة قديمة منافية للآفة الباطنيَّة الَّتي هي بمنزلة الخرس في التَّكلُّم الإنساني، قائمة بذاته تعالى ليست من جنس الحروف والأصوات، منزَّهة عن التَّقدُّم والتأخُّر والإعراب والبناء، وهذا ممَّا لا خلاف فيه.

والثَّاني: الكلام بمعنى المُتكلَّم به في حقِّه ﷻ هي كلماتٌ غيبيَّةٌ وحروفٌ قدسيَّةٌ. وهي ألفاظ حُكميَّة مجرَّدةٌ عن الموادِّ مطلقًا، سواء كانت خياليَّة أو روحانيَّة مرتبة، رتَّبها الله تعالى في علمه الأزليِّ بصفته الأزليَّة الَّتي هي مبدأ تأليفها وترتيبها. كما أنَّ كلامنا هو الكلمات الَّتي رتَّبناها في خيالنا وزوَّرناها في أنفسنا.

والقرآن كلام الله بهذا المعنى الثَّاني؛ وفيه اختلف أهلُ الحقِّ والمُعتزلة.

فقال أهل الحقِّ: القرآن كلام الله غير مخلوق. وقالت المعتزلة: هو مخلوق.

ولم يكن اختلافهم إلَّا في هذا المعنى الثَّاني دون المعنى الأوَّل الَّذي هو صفة قديمة للباري تعالى؛ إذ لا يُعقل أن يجري الخلاف في الكلام بالمعنى الأوَّل، فإنَّه صفة بسيطة قديمة قائمة بذاته تعالى.

فالقرآن المنزَّل على الرَّسول ﷺ، يُقال له: كلام الله بهذا المعنى الثَّاني، أي: بمعنى المُتكلَّم به، والكلام بالمعنى الأوَّل أمرٌ واحد بسيط لا تعدُّد فيه، وهو ﷻ مُتكلِّم بهذا المعنى من الأزل إلى الأبد.

والكلام بالمعنى الثَّاني مرتَّبٌ ومركَّبٌ وموصوفٌ بالكثرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]،

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ونحو ذلك.

فهذه آيات بيِّنات ونصوص واضحات في الكثرة والتَّعدُّد، وكيف أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] مُبايِن لمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ومعنى آية الكرسي ليس معنى آية المُداينة، ومعنى سورة الإخلاص ليس معنى سورة ﴿تَبَّتْ﴾، كما في شرح «الفقه الأكبر» للعلَّامة القاري.

فدلَّت الآيات على تعدُّد المعاني وعدم اتِّحادها، وفيها ناسخ ومنسوخ، فكيف يتَّحدان، وهذه الكلمات المُرتَّبة قائمة بذاته تعالى قديمة غير مخلوقة، وبينها ترتيب، إذ لا تكون الحروف كلمةً بدون التَّرتيب الوضعي، والهيئة التأليفية، والصُّورة التَّركيبية، والكلمات لا تكون كلامًا بدون التَّرتيب، والعقل قاصر عن إدراكه، كالتَّرتيب في ذهن الحافظ.

فالكلمات القائمة بذاته تعالى لا بُدَّ أن تكون مترتِّبة كما يليق بشأنه غير التَّرتيب الزَّماني المستلزم للحدوث، مترتِّبة من غير تعاقُب في الوضع الغيبيِّ العلميِّ؛ إذ التَّعاقُب يكون في الأشياء الزَّمانيَّة ولا زمان هناك.

فتلك الكلمات المُترتِّبة في العلم أيضًا أزليَّة، والتَّرتيب العلميُّ لا يستلزم التَّعاقُب بينها حتى يلزم حدوثها، وإنَّما التَّعاقُب بينها في الوجود الخارجي لا في الوجود العلمي، فهذه الكلمات الأزليَّة ليست من جنس الحروف والأصوات منزَّهة عن الإعراب والبِناء، وهي مُترتِّبة في علمه تعالى، لكن مُنزَّهة عن التَّقدُّم والتَّأخُّر.

فالكلمات القدسيَّة والحروف العلويَّة الَّتي خرجت من الحقِّ ﷻ وبدَت منه؛ هي قديمة، وإنَّها قائمة بذاته تعالى، وليست ببائنة مُنفصلة عنه، وصدورنا وألسنتُنا ومصاحفنا مجالٍ ومرايا للكلمات الغيبيَّة والحروف القدسيَّة، تجلَّت فيها مثل تجلِّي المعاني في الكلمات والحروف والأصوات، فلا يُقال: إنَّ الحروف والأصوات مَحالٌّ للمعاني، والمعاني حالَّة فيها، وإنَّما هي مجالٍ ومرايا للمعاني، ليست بينهما نسبة الحاليَّة والمَحليَّة والظَّرفيَّة والمَظروفيَّة، بل بينهما نسبة الظَّاهريَّة والمَظهريَّة والدَّاليَّة والمَدلوليَّة.

والمعاني مُبرَّأة من مبهمات الحروف والأصوات، ومنزَّهة عن الصِّفات اللازمة للألفاظ والكيفيَّات المُختصَّة بها، ألَا نرى أنَّ الحقَّ ﷻ يتجلَّى لهم يوم القيامة في صور مختلفة، ويأتيهم في ظُللٍ من الغمام مع أنَّه مُنزَّه عن الكيف والكيفيَّات والمكان والسَّمت والجهات.

فكذلك لا يبعد أن يتجلَّى كلام الله الأزليُّ المُنزَّه عن شوائب الحدوث والإمكان في المجال الصُّورية ومرايا الأكوان، وأنت إذا أمعنتَ النَّظر في قول أهل السُّنَّة: (القرآن كلام الله ﷻ غير مخلوقٍ، وهو مَقروءٌ بألسنتنا، مسموعٌ بآذاننا، محفوظٌ في صدورنا، مكتوبٌ في مصاحفنا، غير حالٍّ في شيء منها) رأيتَه قولًا بالظَّاهر ودالًّا على أنَّ تنزُّل القرآن القديم القائم بذات الله تعالى في الألسنة والصُّدور والمصاحف غيرُ قادح في قِدمه؛ لكونه غير حالٍّ في شيء منها، مع كون كلٍّ منها قرآنًا حقيقة شرعيَّة بلا شبهة.

وهذا عين الدَّليل على أنَّ تجلِّي القديم في مظهر حادث لا يُنافي قِدمه، وليس من باب الحلول ولا التَّجسيم، فثبت بهذا الكلام أنَّ الكلام بكلا مَعنييه قديم، والحدوث راجع إلى المَجالي والمَرايا.

ويجب احترامها كما قال الشَّيخ عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام: «لدلالتها على كلامه القديم كما يجب احترام الكعبة والأنبياء والعلماء لانتسابهم إليه:

أمرُّ على الدِّيار ديار ليلي ... أُقبِّل ذا الجدار وذا الجدار

وما حُبُّ الدِّيار شغفنَ قلبي ... ولكن حبُّ مَن سكن الدِّيار

ولذا يُقبَّل الحجر الأسود، ويحرم على المُحدِث أن يمسَّ المصحف أسطره وحواشيه الَّتي لا كتابة فيها». اهـ. انظر: «إيضاح الكلام»[1].

وقال السَّيِّد عبد الغني النَّابلسي: «كلام الله سبحانه مُنزَّه عن الحروف والأصوات،

---

(١) «إيضاح الكلام»: ص٤.

والكلمات الَّتي نزل بها جبريل على قلوب الأنبياء ﷺ هي كلام الله حقيقة؛ لأنَّ كلام الله القديم ظهر فيها وتصوَّر بصورها، من غير أن تتغيَّر عمَّا هو عليه في ذات الله تعالى، فمَن أنكرها أو شيئًا [منها](١)، أو استهزأ على حرف أو صوت منها، فهو كافر بالله العظيم، وإنَّ كلام الله تعالى النَّازل بها والمُتصوِّر بصورها مُنزَّه عنها أزلًا وأبدًا». كذا في «رشحات شرح كفاية الغلام»(٢).

قال الشَّيخ الأكبر ـ قدَّس الله سرَّه ـ: «لا يُضاف الحدوث إلى كلام الله إلَّا إذا كتبه الحادث أو تلاه، ولا يُضاف القِدم إلى كلام الحادث إلَّا إن سمعه من الله تعالى» اهـ(٣).

وأيضًا قال: «ويجب الإيمان بأنَّ القرآن كلام الرَّحمن، مع قطع حروفه في اللسان، ونظم حروفه فيما رقم باليراع والبنان، فحدث الألواح والأقلام، وما حدث الكلام.

وقال العارف الشعراني: مثال ظهور الوحي بالألفاظ مثال ظهور جبريل في صورة دحية، فكما تبدَّلت صورته في أعيُن النَّاظرين ولم تتبدَّل حقيقته الَّتي هو عليها، فكذلك الكلام الأزليُّ والأمر الأحدث يتمثَّل بلسان العربيِّ تارة، وبلسان العبريِّ تارة، وبلسان السريانيِّ أخرى، وهو في ذاته أمرٌ واحد أزليٌّ.

وقال: وسمعتُ سيِّدي عليًّا الخواص يقول: ما دام القرآن في القالب، فلا حرف ولا صوت، إذا نطق به القارئ نطق بصوت وحرف، وكذا إذا كتبه لا يكتبه إلَّا بصوت وحرف.

وسمعتُه أيضًا يقول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩] فكما أنَّ الظَّمآن يحسب السَّراب ماءً وليس هو بماءٍ، وكذلك حُكم مَنْ يسمع كلام الله يحسبه كلامه تعالى بصوت وحرف، وليس هو في نفس الأمر بصوت ولا حرف.

---

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من المصدر.

(٢) «رشحات الأقلام شرح كفاية الغلام»: صـ٦٣.

(٣) «رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم»: صـ١٢٢.

وكما أنَّ الظَّمآن إذا جاء السَّراب لم يجده ماءً كما كان يراه، كذلك مَنْ سمع كلام الله بصوت وحرف إذا كُشف عنه الغطاء لم يجده لا بصوت ولا حرف كما سمعه». انتهى كلامه ملخَّصًا، كذا في «اليواقيت والجواهر»[1].

وحاصله: كما أنَّ الظَّمآن يحسب السَّراب ماءً وليس هو بماء؛ كذلك يحسب جهم بن صفوان كلام الله متَّسِمًا بسمات الحدوث والإمكان، وليس هو في نفس الأمر كذلك.

وكما أنَّ الظَّمآن إذا جاء السَّراب لم يجدْه كما كان يحسبه؛ كذلك مَنْ سمع كلام الله، وكُشف عنه الغطاء لم يجده كما كان يظنُّه حادثًا، بل يجده مُنزَّهًا عن سمات الحدوث وشوائبه.

ألَا ترى أنَّ القرآن إذا تلاه القارئ بلسانه فله نغمات وألحان، وإذا كان في قلبه فله شأنٌ، والقياس أحدهما على الآخر إذ قد جعل الله لكلِّ مَوطن حُكمًا على حدة، ثُمَّ يجعل لغيره، فهذان موطنان في المخلوق لم يجزْ قياس أحدهما على الآخر، فكيف يجوز قياس الحضرة الإلهية المُتعالية عن الزَّمان والمكان على موطن الحدوث والإمكان.

اعلم أنَّ القرآن يُطلق عند الفقهاء والمُتكلِّمين على اللفظ المُنزَّل على النَّبيِّ ﷺ من أوَّل الفاتحة إلى آخر سورة النَّاس، فإنَّ هذه الألفاظ كلَّها مظاهر وصور لتلك الكلمات الغيبيَّة القدسيَّة؛ لا عينها كما زعمت الحشويَّة.

وأيضًا يُطلق القرآن على النُّقوش المرقومة بين دَفَّتي المصحف باعتبار أنَّ تلك النُّقوش دالَّة على الصِّفة القديمة القائمة بذاته تعالى، لا أنَّها عينها كما هو ظاهر، وهذه الإطلاقات كلُّها حقيقة لا مَجاز، وهذا النَّظم المخصوص مُنزَّل من الله تعالى ومُعجز بهاتين الصِّفتين ـ أي: الإنزال والإعجاز ـ يتميَّز القرآن عن غيره.

---

(١) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر»: صـ١٧٠ ـ ١٧٣.

بيان معنًى ثالث للكلام

وليعلم أنَّ للكلام معنًى ثالثًا، وهو التَّكلُّم والتَّكليم بمعنى المُتكلِّميَّة، وإسماع الكلام لغيره، وهو حادث لأنَّه إلقاء الكلام إلى المُخاطَب وإسماعُه، ومعلوم أنَّ تعلُّق الخطاب بالمُكلَّف حادث يحدث بحدوثه وينقطع بعدمه، كما في «المسامرة».

التَّكليم بمعنى: إسماع الغير الكلام حادث لأنَّ حاصله عروض إضافة خاصَّة للكلام بإسماعه مخصوص بلا واسطة، ولا شكَّ في انقضاء هذه الإضافة بانقضاء الإسماع فلا بُدَّ أن يكون حادثًا[١]. انظر «المسامرة بشرح المسايرة»[٢].

والحاصل: أنَّ كلامه سبحانه قديم، ولكنَّ إسماعه وإظهاره لمَن شاء من ملائكته ورُسله متى شاء حادث.

وخلاصة الكلام

إنَّ القرآن كلام الله ﷻ، وهو عبارة عن كلماته النَّفسيَّة الغيبيَّة القدسيَّة، أنزله الله ﷻ على جبريل، بمعنى أنَّه أبرزه في صور ألفاظ القرآن؛ كلماته مُرتَّبة على وفق ترتيبه في علمه القديم، كما نبرز نحن كلامنا النَّفسيَّ المُرتَّب في ذهننا لكلامنا اللفظي ﷺ.

فالقرآن مُنزَّل من الله ﷻ لا يجوز نسبتُه إلى جبريل ولا إلى سيِّدنا محمَّد رسول الله ﷺ، فإنَّ القرآن كلام الله ﷻ، والله سبحانه هو المُتكلِّم، وأمَّا جبريل وسيِّدنا محمَّد ﷺ فهو قاريه وتاليه، وحقيقة التِّلاوة والقراءة هي التلفُّظ بكلام الغير.

قال العلَّامة الآلوسي: «ثُمَّ تلك الكلمات الغيبيَّة المُترتِّبة ترتُّبًا وضعيًّا أزليًّا يُقدَّر بينها

---

(١) أي: فيصحُّ بهذا المعنى أن يُقال: إنَّه تعالى مُكلِّم، ولم يصحَّ أن يُقال: لم يزل مُكلِّمًا، لحدوث هذه الإضافة، وهي ليست قائمة بذاته تعالى، فلا يكون الله تعالى محلًّا للحوادث. (محمد صالح بن أحمد الغرسي).

(٢) «المسامرة»: صـ٣٢١.

التَّعاقُب فيما لا يزال، والقرآن كلام الله تعالى المُنزَّل بهذا المعنى، فهو كلمات غيبيَّةٌ مجرَّدةٌ عن الموادِّ، مُترتِّبة في علمه أزلًا، غير مُتعاقبة تحقيقًا بل تقديرًا عند تلاوة الألسنة الكونيَّة الزَّمانيَّة، ومعنى تنزيلها: إظهار صورها في الموادِّ الروحانيَّة والخياليَّة والحسِّيَّة من الألفاظ المسموعة والذِّهنيَّة والمكتوبة.

ومن هنا قال السُّنِّيُّون: القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، وهو مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصُّدور، مقروء بالألسنة، مسموع بالآذان، غير حالٍّ في شيء منها، وهو في جميع هذه المراتب قرآنٌ حقيقةٌ شرعيةٌ معلومٌ من الدِّين بالضَّرورة.

فقولهم: غير حالٍّ، إشارة إلى مرتبته النَّفسيَّة الأزليَّة، فإنَّه من الشُّؤون الذَّاتيَّة، ولم تفارق الذَّات ولا تفارقها أبدًا، ولكنَّ الله تعالى أظهر صورها في الخيال والحسِّ، فصارت كلمات مُخيَّلةً، وملفوظةً مسموعةً، ومكتوبةً مرئيَّةً، فظهر في تلك المظاهر من غير حلول، إذ هو فرع الانفصال، وليس فليس.

فالقرآن كلامه تعالى غير مخلوق، وإن تنزَّل في هذه المَراتب الحادثة، ولم يخرج عن كونه منسوبًا إليه»[1].

خلاصة الأقوال في مسألة الكلام

قال العلَّامة القاري: «اتَّفق المسلمون على إطلاق لفظ المُتكلِّم على الله تعالى، لكنَّهم اختلفوا في معناه؛ فذهب أهل الحقِّ ـ أي: أهل السُّنَّة ـ إلى أنَّ كلامه تعالى معنًى قائمٌ بذاته ليس بحرف ولا صوت، فيعقل سماعه إذن بخرق العادة، كما قال الغزالي.

وذهب الباقون إلى أنَّه تعالى مُتكلِّم بالحروف والأصوات، ثُمَّ اختلف هؤلاء؛ فذهب الحنابلة منهم على ما نُقل عنهم إلى أنَّها قديمة قائمة بذاته تعالى، وأمَّا السَّلف فهم لا يقولون بذلك، بل يقولون: إنَّ الله ﷻ يتكلَّم بحرف وصوت يليقان به، ولا يشبهان

(١) «روح المعاني»: ١/ ١١٩.

حرف العبد وصوته.

وذهب المعتزلة إلى أنّها حادثة قائمة بغير ذاته.

وذهب الكَرَّامِيَّة إلى أنّها حادثة قائمة بذات الله تعالى.

ودليل أهل الحقِّ: أنَّ الحرف والصوت مخلوقان، وكلام الله غير مخلوق، لامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى؛ إذ هو من أمارات الحدوث. نعم، القرآن مقروءٌ بألسنتنا، محفوظٌ في صدورنا، مكتوبٌ في مصاحفنا، كما نقول: الله مذكورٌ بألسنتنا، معبودٌ في مساجدنا، مسجودٌ له في محاريبنا، غير حالٍّ فينا ولا فيها». كذا في «ضوء المعالي على بدء الأمالي»[1]، وهكذا رُوي عن الإمام أبي حنيفة ﷺ.

قال إمام الحرمين: «كلام الله تعالى مكتوبٌ في المصاحف، محفوظٌ في الصُّدور، وليس حالًّا في مصحف، ولا قائمًا بقلب. والكتابة قد يُعبَّر بها عن حركات الكاتب، وقد يُعبَّر عن الحروف المرسومة والأسطر المرقومة، وكلها حوادث.

ومدلول الخطوط، والمفهوم منها الكلام القديم، وهذا بمثابة إطلاق القول بأنَّ كلام الله تعالى مكتوبٌ في المصاحف، وليس المعنيُّ بذلك اتّصاله بالأجسام وقيامه بالأجرام.

ولم يصرْ أحدٌ من المنتمين إلى التَّحقيق إلى قيام الكلام بمحلِّ الأسطر، إلَّا الجبائي فيما حكينا من هذيانه. ويُؤثر عن النَّجَّار أنَّ الرُّقوم هي أجسام كلام الله تعالى، والكلام أصوات عند القراءة وأجسام عند الكتابة، وكلُّ ذلك خبطٌ وتخليط في بغية الحقِّ، وتفريط في درك الصِّدق». كذا في «الإرشاد»[2].

قال الإمام الغزالي: «**وإن عُقل كون السَّماوات السَّبع والعرش والكرسي والأرض، وكون الجنَّة والنَّار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوظة في تعداد ذرَّة من القلب، وعُقل أنَّ ذلك**

---

(١) «ضوء المعالي»: صـ٢٩.

(٢) «الإرشاد إلى قواطع الأدلَّة في أصول الاعتقاد»: صـ١١٨.

مرئيٌّ في مقدار عدسة من الحدقة الَّتي فيها [إنسان العين][(١)] من غير أن تحلَّ ذات السَّماوات والأرض والعرش والكرسي والجنَّة والنَّار في الحدق والورقة.

فليُعقل كون الكلام مقروءًا بالألسنة الظَّاهرة، محفوظًا في القلوب الباطنة مكتوبًا في المصاحف بالأحبار المُتنوِّعة من غير حلول ذات الكلام فيها، أي: في تلك المصاحف قطعًا، إذ لو حلَّت بكتابة ذات الكلام فرضًا وتقديرًا، لحلَّ ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق، ولحلَّت ذات النَّار بكتابة اسمها في الأوراق ولاحترقت. ولكان مَنْ نطق بالنَّار احترق فمُه، والجنَّة والنَّار مكتوبتان في المصاحف، ثم أحد لا يتخيَّل أنَّهما مُدرَجتان فيها بالذَّات، وكذا النَّبيُّ ﷺ مكتوب في التَّوراة والإنجيل، لا على معنى أنَّه حالٌّ فيهما، ولكن فيهما دلالة عليه، وهو المكتوب ﷺ بتلك الكتابة.

وقد أوضحه المُصنِّف في «إلجام العوام»[(٢)] بوجه آخر، فقال: اعلم أنَّ لكلِّ شيء في الوجود أربعَ مراتب:

* وجود في الأعيان.
* ووجود في الأذهان.
* ووجود في اللسان.
* ووجود في البياض المكتوب عليه.

كالنَّار مثلًا: فإنَّ لها وجودًا في التَّنُّور، ووجود في الخيال والذِّهن، وأعني بهذا الوجود: العلم بصورة النَّار وحقيقتها.

ولها وجود في اللسان، وهي الكلمة الدَّالَّة عليها، أعني: لفظ النَّار.

ولها وجود في البياض المكتوب عليه بالرُّقوم.

---

(١) في الأصل: «عين الإنسان»، والمثبت من المصدر وبه يستقيم المعنى.

(٢) «إلجام العوام»: صـ١٤٢.

والإحراق صفة خاصَّة للنَّار، الَّتي هي في التَّنُّور دون الَّتي في الأذهان وفي اللسان وعلى البياض، وإلَّا لاحترق الذِّهن واللسان والورق.

وكذلك القِدم وصفُ كلام الله تعالى، وما يُطلق عليه القرآن له وجودٌ على أربع مراتب:

أوَّلها ـ وهي الأصل ـ: وجود قائم بذات الله تعالى.

والثَّانية: وجود العلم في أذهاننا قبل أن ننطق بلساننا.

ثُمَّ: وجوده في لساننا بتقطع أصواتنا.

ثُمَّ: وجوده في الأوراق بالكتابة.

فإذا سُئِلنا عمَّا في أذهاننا من علم القرآن قبل النُّطق به؟ قلنا: علمنا صفتنا، وهي مخلوقة، لكنَّ المعلوم به قديم.

فإذا سُئلنا عن صوتنا وحركة لساننا؟ قلنا: ذلك صفة لساننا ولساننا حادث، وصفته تُوجد بعده، وما هو بعد الحادث حادث بالضَّرورة، ولكنَّ منطوقنا ومذكورنا ومقروءنا ومتلوَّنا بهذه الأصوات الحادثة؛ قديمٌ.

ثُمَّ قال: فهذه أربع مراتب للوجود، فكما أنَّ ما يُرى في المرآة يُسمَّى إنسانًا بالحقيقة، لكن على معنى أنَّه صورة محكيَّة له، فكذا ما في اللسان من الكلمة يُسمَّى باسمه بمعنى: أنَّه دلالة على ما في الذِّهن، ومهما فُهم اشتراك لفظ القرآن وكلُّ شيء بين هذه الأمور الأربعة.

فإذا ورد في الخبر أنَّ القرآن في قلب العبد، وأنَّه في المصحف وأنَّه في لسان القارئ، وأنَّه صفةٌ في ذات الله تعالى صدِّق بالجميع مع الإحاطة بحقيقة المُراد». انتهى المقصود من كلامه، كذا في «الاتحاف شرح الإحياء»[1].

---

(١) «إتحاف السَّادة المتقين»: ٢/ ٢٣٥.

فالكلام الحقيقي الَّذي هو الصفة الأزليَّة ليس قائمًا بلسان أو قلب أو حالًّا في مصحف أو لوح، لكنَّه مُتجلٍّ في هذه المرايا والمظاهر، ولا يخفى على أهل العلم أنَّ الظُّهور والتَّجلِّي غير الحلول.

ذكر قول الإمام أبي حنيفة النعمان في مسألة القرآن

قال الإمام الأعظم رحمه الله: «وصفاته تعالى كلُّها في الأزل، بخلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويَقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويسمع لا كسمعنا، ويتكلَّم لا ككلامنا.

ونحن نتكلَّم بالآلات، أي: بالحلق واللسان والشَّفة والأسنان والحروف، أي: الأصوات المُعتمِدة على المخارج، والله يتكلَّم بلا آلة ولا حروف، والحروف مخلوقة وكلام الله غير مخلوق». كذا في «شرح الفقه الأكبر» للعلَّامة القاري[١]، وكذا في «إشارات المَرام»[٢].

وقال الإمام الأعظم في كتاب «الوصيَّة»: «نُقرُّ بأنَّ القرآن كلام الله تعالى ووحيُه وتنزيله وصفته، لا هو ولا غيره، بل هو صفته على التَّحقيق، مكتوب في المصاحف، مقروءٌ بالألسنة، محفوظٌ في الصُّدور غير حالٍّ فيها، والحروف والحركات والكاغذ[٣] والكتابة [والقراءة][٤] كلُّها مخلوقة؛ لأنَّها أفعال العباد.

وكلام الله ﷻ غير مخلوق؛ لأنَّ الكتابة والحروف والكلمات كلها [دلالة][٥] القرآن لحاجة العباد إليها، وكلام الله تعالى قائمٌ بذاته، ومعناه مفهومٌ بهذه الأشياء، فمَن قال بأنَّ كلام الله مخلوق فهو كافرٌ بالله العظيم[٦]، والله تعالى معبودٌ ولا يزال عمَّا كان، وكلامه

---

(١) «شرح الفقه الأكبر»: صـ٥٧.

(٢) «إشارات المَرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان»: صـ١٢٠.

(٣) كلمة فارسية معرَّبة: «كاغَد» بفتح الغين. وهو القرطاس. «لسان العرب»: ٣/ ٣٨٠.

(٤) هذه الزيادة مذكورة في «إشارات المَرام» صـ١٤٢. (المؤلف).

(٥) في الأصل: «آلة»، والمثبت من المصدر.

(٦) يقول د. حمزة البكري: «أي: بعد إقراره بأنَّ كلامه تعالى قائم بذاته، لأنَّه يصير قائلاً بقيام الحوادث =

مقروءٌ ومكتوبٌ ومحفوظٌ من غير مزايلةٍ عنه». وانتهى كذا في «شرح الفقه الأكبر» للعلَّامة القاري[1].

تنبيه:

اعلم أنَّ ما جاء في كلام الإمام الأعظم وغيره من علماء الأنام من تكفير القائل بخلق القرآن، فمَحمول على كفران النِّعمة، لا كفر الخروج من المِلَّة. كما في «شرح الفقه الأكبر» للعلَّامة القاري[2]، فهو كما قال ابن عباس ﵄ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] هم كفرة، وليسوا كمَن كفر بالله واليوم الآخر[3].

وحاصله: أنَّ المُراد به كفر دون كفر، وقال بحر العلوم في «شرح مسلم الثبوت»: الكلام الإلهيُّ صفة واحدة قائمة بذاته، تختلف تعيناته بالمحال، وهي في حدِّ ذاتها قديمة.

فإذا نزل على لسان جبريل كساها تعيُّنات بها صارت مُترَتِّبة، فإذا قرأها جبريل غير قادرة فسمعها الرَّسول ﷺ انحفظت في صدره كما سُمعت مُترَتِّبة، لكن على صفة القرار، فالحقيقة واحدة، وظهوراتها مختلفة. فطَورًا تظهر بكسوةٍ وأخرى بأخرى.

وظهور شيء واحد بتعيُّنات شتَّى غير مُنكَر عقلًا ولا شرعًا، فالقرآن المقروء وإن صدر بلسان الرَّسول ﷺ، لكن مَن قال: لم يقله الله تعالى وليس كلامه فهو كافرٌ البتَّة.

وهذا الَّذي رامَه الإمام الهمام أعظم الأئمَّة، حيث قال في «الفقه الأكبر»: القرآن في المصاحف مكتوبٌ، وفي القلوب محفوظٌ، وعلى الألسُن مقروءٌ، وعلى النَّبيِّ ﷺ مُنزَّلٌ.

لفظنا بالقرآن مخلوقٌ، وكتابتنا له وقراءتنا له مخلوقٌ، والقرآن غير مخلوقٍ، وأراد

= بذات الله. أمَّا من قال بحدوث كلامه تعالى ونفى قيامه بذاته ـ كالمعتزلة ـ فلا يكفر.

(١) «شرح الفقه الأكبر»: صـ٤٨. و«شرح وصيَّة الإمام أبي حنيفة»: صـ١٠٣.

(٢) «شرح الفقه الأكبر»: صـ٥٢.

(٣) «تفسير الطبري»: ٨/ ٤٦٥.

باللفظ التَّلفُّظ وهو فعلنا مخلوق البتَّة.

أراد به كسوة التَّعيُّن الَّذي اكتساه القرآن على اللسان، وهو أيضًا مخلوق لا شكَّ فيه، واللام في قوله: (القرآن غير مخلوق) للعهد، أي: القرآن الَّذي صفته أنَّه مكتوبٌ ومحفوظٌ ومنزَّلٌ ومقروءٌ غير مخلوق في حدِّ نفسه، وإن كانت تعيُّناته الَّتي في الكتابة والقراءة والحفظ والنُّزول مخلوقة».

ثم ذكر بحر العلوم ما قاله الإمام أبو حنيفة في كتاب الوصيَّة ـ كما تقدَّم ـ، وقال: «وما قال مُحقِّقو الحنابلة ونقلوه عن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: أنَّ القرآن الَّذي هو غير مخلوق هو هذه الألفاظ المقروءة مُرادهم ما ذكرنا، والَّذين جاءوا من بعدهم لم يتعمَّقوا في تحصيل معناه، ظنُّوا أنَّ هذه الحروف بهذا التَّرتيب قديمة حتَّى توجَّه الطَّعن إليهم». كذا في «فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت»[1]، وسيأتي شرح قول الإمام أحمد بن حنبل، فانتظره.

حقيقة الكلام وحدُّه ومعناه

قال إمام الحرمين ـ قدَّس الله سرَّه ـ: «اعلم ـ أرشدك الله تعالى ـ أنَّ المعتزلة ومُخالفي أهل الحقِّ قد تخبَّطوا في حقيقة الكلام.

فقالوا: إنَّ الكلام حروف منتظمة وأصوات متقطِّعة دالَّة على أغراض صحيحة.

وقال أهل الحقِّ: الكلام هو القول القائم بالنَّفس الَّذي تدلُّ عليه العبارات تارة، وما يصطلح عليه من الإشارات تارة أو نحوها كرقوم تُسمَّى الكتابة.

وأنكرت المعتزلة الكلام القائم بالنَّفس، سوى العبارات الآيلة إلى الحروف والأصوات، ومن الدَّليل على إثبات كلام النَّفس أنَّ قول القائل: افعل قد يتضمَّن استحبابًا، وقد يتضمَّن إيجابًا، وقد يقتضي إباحة، وقد يرد مَورد النَّهي.

---

(١) «فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت»: ٢/ ٧.

فإذا دلَّ على إيجاب يستحيل أن يكون هو الإيجاب بنفسه، فإنَّ صورة اللفظ في إرادة الإيجاب كصورة اللفظ في إرادة الاستحباب، إذ هو أصوات متقطِّعة، والأصوات لا تختلف في انقسام جهات الاحتمالات على قطع، فيلزم المصير إلى أنَّ الإيجاب معنًى في النَّفس، ثُمَّ تعتور عليه الدَّلالات بالعبارات وغيرها من الأمارات.

وإن رددنا إلى إطلاق أهل اللسان، عرفنا قطعًا أنَّ العرب تُطلق كلام النَّفس والقول الدَّائر في الخلد، وتقول: كان في نفسي كلام، وزوَّرت في نفسي قولًا، واشتهار ذلك يُغني عن الاستشهاد عليه بنثر لناثر أو شعر لشاعر، وقد قال الأخطل[1]:

إنَّ الكَلام لفي الفُؤاد وإنَّما ... جُعل اللسانُ على الفُؤاد دَليلا

فإن قال المُخالف: الألفاظ المُفيدة يُسمِّيها العقلاء: كلامًا على الإطلاق، ويقولون: سمعنا كلامًا ومرامهم ما أدركوه من العبارات.

قلنا: الطَّريقة المرضيَّة عندنا أنَّ العبارات تُسمَّى كلامًا على الحقيقة والكلام القائم بالنَّفس كلام، وفي الجمع بينهما ما يَدرأ تشغيب المُخالفين.

ومن أصحابنا مَنْ قال: الكلام الحقيقي هو القائم بالنَّفس، والعبارات تُسمَّى كلامًا تجوُّزًا كما تُسمَّى علومًا تجوُّزًا؛ إذ قد يقول القائل: سمعتُ علمًا وأدركت علومًا، وإنَّما يريد إدراك العبارات الدَّالَّة على العلوم، ورب مجاز يُشتهر اشتهار الحقائق». كذا في «الإرشاد» ملخَّصًا ومختصرًا[2].

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري: «الكلام كلُّه ليس من جنس الحروف ولا من جنس للأصوات، بل الحروف والأصوات على وجه مخصوص دلالات على الكلام القائم بنفس المتكلِّم.

---

(١) شاعر معروف من فحول الشعراء في الدولة الأمويَّة، وكان مختصًّا بالخليفة عبد الملك بن مروان، ومات سنة ٩٠هـ في خلافة الوليد. (المؤلف).

(٢) «الإرشاد»: ص٩٥ ـ ٩٩.

وقال عبد الله بن سعيد وأبو العباس القلانسي وأصحابهما من قدماء الأشاعرة: إنَّ كلام المخلوق حروف وأصوات؛ لأنَّه تكون لها مخارج الحروف والأصوات، وكلام الله ليس بحروف ولا أصوات؛ لأنَّه غير موصوف بمخارج الحروف والأصوات، وإذا قرأ القارئ منَّا كلام الله فقراءته حرف وصوت، ومقروؤُه ليس بحروف ولا أصوات، وهذا القول هو اختيار أكثر أهل الحديث»، كذا في «الإتحاف شرح الإحياء»(١).

وقال الإمام أبو بكر الباقلاني: «يجب أن يُعلم أنَّ الكلام الحقيقيَّ هو المعنى الموجود في النَّفس، لكن جعل عليه أمارات تدلُّ عليه، فتارة تكون قولًا باللسان، وما اصطلحوا عليه وجرى عُرفُهم به، وجُعل لغة لهم.

وقد بيَّن تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فأخبر تعالى أنَّه أرسل موسى ﷺ إلى بني إسرائيل بلسانٍ عبراني، فأفهم كلام الله القديم القائم بالنَّفس العبرانية، وبعث عيسى ﷺ بلسانٍ سرياني، فأفهم قومه كلام الله القديم بلسانهم، وبعث نبيَّنا ﷺ بلسان العرب، فأفهم قومه كلام الله القديم القائم بالنَّفس بكلامهم.

فلغة العرب غير لغة العبرانيَّة ولغة السريانيَّة وغيرهما، لكنَّ الكلام القديم القائم بالنَّفس شيء واحد لا يختلف ولا يتغيَّر، وقد يدلُّ على الكلام القائم بالنَّفس الخطوط المُصطلح عليها بين أهل كلِّ خطٍّ، فيقوم الخطُّ في الدَّلالة مقام النُّطق باللسان، وقد بيَّن تعالى ذلك، فقال: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، فقام الخطُّ مقام النُّطق لِما كان يدلُّ على الكلام دلالة النُّطق، لكنَّ الخطوط تختلف بحُكم الاصطلاح والمواضعة وقلَّة الحروف وكثرتها. فحروف العرب وخطوطهم تُخالف غيرها، وكذلك حروف الهند وخطوطهم تُخالف الجميع، وعند كلِّ قوم رسمٌ خاصٌّ للحروف والخطوط، لا يَفهمه غيرُهم إلَّا أن يتعلَّم لغتهم وخطوطهم.

---

(١) «إتحاف السادة المتقين»: ٢/ ٤٦.

فصحَّ أنَّ الكلام الحقيقيَّ هو المعنى القائم بالنَّفس دون غيره، وإنَّما الغير دليل عليه بحكم التَّواضع والاصطلاح، ويجوز أن يُسمَّى كلامًا؛ إذ هو دليل على الكلام لا أنَّه نفس الكلام الحقيقي. وكذلك قد يدلُّ على الكلام الحقيقي القائم بالنَّفس الرُّموز والإشارات، وقد بيَّن ذلك تعالى في قصة زكريا ﷺ: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزًاۗ﴾ [آل عمران: ٤١]، يعني: أن لا تُفهم الكلام القائم بنفسك باللسان، وإنَّما تُفهمه بالرَّمز والإشارة، ففعل كما أمره تعالى فأخبر عنه، فقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، فأفهم أمره وكلامه القائم بنفسه بالإشارة دون نطق اللسان، وممَّا يدلُّ على أنَّ حقيقة الكلام المعنى القائم بالنَّفس من الكتاب والسُّنَّة والأثر وكلام العرب ما نذكر.

فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ونحن نعلم وكلُّ عاقل أنَّ الله تعالى ما كذَّب المنافقين في ألفاظهم، وإنَّما كذَّبهم فيما تُكنُّه ضمائرهم، وأيضًا قوله تعالى مُخبِرًا عن الكفَّار: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨]، فأخبر تعالى أنَّ القول بالنَّفس قائم وإن لم يَنطق به اللسان، فهذا كلام باطني، والقول هو الكلام، والكلام هو القول.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، أي: ما حدَّث به المرء نفسه.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وأيضًا قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فأسقط حُكم الكفر عن المُكره على كلمة الكفر، وجعل الحُكم لصدق الكلام القائم في القلب، فدلَّت هذه الآيات أنَّ حقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنَّفس، وله الحُكم في الصِّدق والكذب دون الحروف والأصوات الَّتي هي أمارات ودلالات على الكلام الحقيقي.

ويدلُّ عليه من جهة السُّنَّة: قوله ﷺ: «يَا معشر مَنْ آمنَ بلسانه، ولم يدخلِ الإيمانُ في قلبه»، وهذا في حقِّ المنافقين، فأخبر ﷺ أنَّ الكلام الحقيقي هو الَّذي في القلب دون نطق اللسان، وأنَّ الحُكم للكلام الَّذي في القلب على الحقيقة، وأنَّ قول اللسان مَجازٌ قد يُوافق قول القلب وقد يُخالفه.

وأيضًا قوله ﷺ: «يَقول الله تبارك وتعالى: إذَا ذكَرَني عبدِي في نفسِه»، فأثبت الذِّكر للنَّفس، فالذِّكر والقول والكلام واحد.

ويدلُّ على ذلك أيضًا قول عمر: «زوَّرت في نفسي كلامًا فأتى أبو بكر فزاد عليه»، فأثبت الكلام في النَّفس من غير نُطق لسان، وكان من أجلِّ أهل اللسان والفصاحة، وهو أحد الفصحاء السَّبعة، والعربي الفصيح يقول: كان في نفسي كلام، وكان في نفسي قول، وكان في نفسي حديث، إلى غير ذلك، وأنشد الأخطل:

لا تُعجبنَّك من أثير خطبةٌ ... حتَّى يكونَ مع الكلام أصيلا

إنَّ الكلام لفي الفُؤاد وإنَّما ... جُعل اللسانُ على الفُؤاد دليلا»

انتهى كلام الباقلاني مختصرًا من كتابه «الإنصاف»[1].

والحاصل: أنَّ الكلام في الحقيقة هو كلام النَّفس، وهو المعنى القائم بالنَّفس، والحروف والأصوات دلالات عليه ومعرفات له، وهذا هو المختار عند الإمام الغزالي، راجع «الإتحاف شرح الإحياء»[2].

---

(١) «الإنصاف في ما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به»: صـ١٠١ ـ ١٠٥. وقال شيخ الإسلام الإمام زاهد الكوثري ﷺ: لقد أحسن المؤلِّف كلَّ الإحسان في التَّدليل على الكلام النَّفسي بتوسُّع لا تجده في غير هذا الكتاب.

(٢) «إتحاف السَّادة المتقين»: ٢/ ٢٣٥.

معنى إنزال كلام الله ﷻ

قال إمام الحرمين: «كلام الله مُنزَّل على الأنبياء الكِرام ﵈، وقد دلَّ على ذلك آيٌ كثيرة من كتاب الله.

ثُمَّ ليس المعنيُّ بالإنزال حطَّ شيء من علوٍّ إلى سفل، فإنَّ الإنزال بمعنى الانتقال يتخصَّص بالأجسام والأجرام.

فالمَعنيُّ بالإنزال: أنَّ جبريل ﵇ أدرك كلام الله تعالى وهو في مقامه فوق سبع سموات، ثم نزل إلى الأرض، فأفهم الرَّسول ﷺ ما فهمه عند سدرة المُنتهى من غير نقلٍ لذات الكلام.

وإذا قال القائل: نزلت رسالة الملك إلى القصر لم يُرد بذلك انتقال أصواته وانتقال كلامه القائم بنفسه. كذا في «الإرشاد»[1].

وقال العلَّامة القاري ـ معنى كونه منزلًا عليه ـ: «أنَّه نزل عليه بواسطة الحروف المُفردات والمُركَّبات في الحالات المُختلفات، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]، أي: مُحدَث في الإنزال، وإلَّا فكلامه الأزليُّ مُنزَّه عن الانتقال». كذا في «شرح الفقه الأكبر»[2].

وقال الإمام أبو بكر الباقلاني: «يجب أن يُعلم أنَّ كلام الله تعالى مُنزَّل على قلب النَّبيِّ ﷺ نزول إعلام وإفهام، لا نزول حركة وانتقال، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]. فالمُراد به: نزول إعلام وإفهام، لا نزول حركة وانتقال؛ كلام الله القديم القائم بذاته.

---

(١) «الإرشاد»: صـ٩٥ ـ ٩٩.

(٢) «شرح الفقه الأكبر»: صـ٤٧.

لأنَّ صفة القديم كالعلم والكلام ونحو ذلك من صفات الذَّات لا يجوز أن تُفارق الموصوف؛ لأنَّ الصِّفة إذا فارقت الموصوف اتَّصف بضِدِّها، والله تعالى مُنزَّه عن الصِّفة وضدِّها.

فجاء من ذلك أنَّ جبريل ﷺ علِم كلامَ الله وفهمه، وعلَّمه اللهُ النَّظم العربيَّ الَّذي هو قراءته، وعلَّم هو القراءة نبيَّنا ﷺ، وعلَّم النَّبيُّ ﷺ أصحابه، ولم يزل ينقل الخلفُ عن السَّلف ذلك إلى أن اتَّصل بنا، فصرنا نقرأ بعد أن لم نكن نقرأ.

فالقراءة أغيار لأنَّ قراءة جبريل ﷺ غير قراءة نبيِّنا ﷺ، وقراءة نبيِّنا ﷺ غير قراءة أصحابه، وقراءة أصحابه غير قراءة مَنْ بعدهم كذلك، هلمَّ جرًّا إلى يومنا.

لكنَّ المقروء والمتلوَّ هو كلام الله القديم الَّذي ليس بمخلوقٍ ولا يُشبه كلام الخلق، وهذا أمر واضح إن شاء الله تعالى».

انتهى كلام الباقلاني مختصرًا، من كتابه «الإنصاف»[1].

وقد أخرج الطبراني من حديث النواس بن سمعان ﷺ مرفوعًا: **«إذا تكلَّم الله بالوحي أخذت السَّماء رجفةٌ شديدة من خوف، فإذا سمع بذلك أهلُ السَّماء، صُعقوا وخرُّوا سُجَّدًا، فيكون أوَّلهم يرفع رأسه جبريلُ، فيُكلِّمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به على الملائكة، فكلَّما مرَّ بسماء سأله أهلُها: ماذا قال ربُّنا؟ قال: الحقَّ، فينتهي به حيثُ أُمِر»**[2].

وهذا المنظوم العربي يُسمَّى كتاب الله، ويُسمَّى القرآن، نظمه الله تعالى، وهو دالٌّ على كلام الله تعالى وعبارة عنه، ولا يُقال: إنَّه عين الكلام القائم بذاته، وإنَّما سمَّع الله كلامه القديم جبريلَ الأمين بهذا النَّظم العربي.

---

(١) «الإنصاف»: صـ٩٢.

(٢) في الجزء المفقود من «المعجم الكبير»، ونقله عنه نور الدِّين الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١١٣٣٧، ورواه ابن أبي عاصم في كتاب «السُّنَّة»: ٥١٥.

ويُطلق اسم الإنزال على كلام الله تعالى بإنزال هذا المنظوم الدَّالِّ عليه، فالظَّاهر أنَّ جبريل ﵇ أخذ القرآن عن الله ﷻ سماعًا، وهو أنزله على النَّبيِّ ﷺ كما سمعه من الله ﷻ، ولا دخل لجبريل في إنشائه وترتيبه، بل الله ﷻ أنزل كلامه القدسيَّ في لباس هذه الحروف الَّتي نقرؤها بألسنتنا، ونكتبها في مصاحفنا.

وأنزله جبريل على النَّبيِّ ﷺ في كسوة النَّظم العربيِّ كما سمعه من الله ﷻ، ثم قرأه النَّبيُّ ﷺ على الصَّحابة ﭫ كما سمعه من جبريل ﵇.

والحاصل: أنَّ جبريل سمع كلام الله ﷻ كيف شاء الله تعالى، ثمَّ أنزله على نبيِّه ﷺ، وقيل: إنَّ الله ﷻ أظهر القرآن في اللوح المحفوظ كتابة، فحفظه الملكُ وأدَّاه بأيِّ نوع كان من الأداء، ولا يَخفى أنَّ هذا القول مُخالف للظَّاهر المتبادر، ومُخالف للأحاديث الصَّحيحة الصَّريحة، وأظنُّه قولًا من القائلين بخلق القرآن، فتنبَّه لذلك واستقم.

وقال الشَّيخ أبو الشكور السَّالمي: «إنَّ الله تعالى كلَّم جبريل من غير صوت ولا حرف، ولكن سمع جبريل بالصَّوت والحرف، فيكون هذا الصَّوت والحرف مخلوقًا، وليس هذا مُحالًا؛ لأنَّا نقرأ كلام الله تعالى، وقراءتنا مع الحروف والأصوات مخلوقة، والمقروء كلام الله غير مخلوق». كذا في «التَّمهيد»[1].

وكلَّم الله ﷻ موسى ﵇ بلا حرف وصوت، ولكن سمعه موسى ﵇ بحرف وصوت دالٍّ على كلامه سبحانه، ألَا ترى أنَّ الحقَّ ﷻ مع كونه مُنزَّهًا عن المكان والجهة يرانا ونحن في جهة ومكان، ونحن نراه تعالى إن شاء الله تعالى في دار الكرامة، ونحن في جهة وهو مُقدَّس عن المكان والجهة، فكذلك هو سبحانه ينظر إلينا ويُكلِّمنا في دار القرار بلا حرف وصوت، ونحن نسمع كلامه تعالى بحرف وصوت، فالحرف والصَّوت وسيلة وذريعة لسماعنا؛ لا أنَّه لكلامه وتكليمه ﷻ.

---

(١) «التمهيد في بيان التوحيد»: ص١٩١.

معنى سماع كلام الله تعالى

قال إمام الحرمين: «كلام الله تعالى مسموع في إطلاق المسلمين، والشَّاهد لذلك من كتاب الله تعالى، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

ثمَّ السَّماع لفظة محتملة، لا يتَّحد معناها ولا ينفرد مقتضاها، فقد يُراد بها الإدراك، وقد يُراد بها الفهم والإحاطة، وقد يُراد بها الطَّاعة والانقياد، وقد يُراد بها الإجابة.

فأمَّا السَّمع بمعنى الإدراك فمشهور لا خفاء، وأمَّا السَّمع بمعنى الفهم والعلم، فشائع مذكور غير منكور.

ووصف الله المُعاندين من الكفَرة بكونهم صُمًّا، وليس المُراد اختلال حواسِّهم، لكنَّ المُراد: إعراضهم عن درك المعاني والإحاطة بما أُنذروا به، وتدبُّر آيات الله تعالى.

وإذا حكى الحاكي كلام غيره على وجهه فقد يقول السَّامع لأصوات المبلغ: قد سمعت كلام فلان، وهو يعني الغائب الَّذي أنهى إليه معنى كلامه.

والَّذي يجب القطع به: أن المسموع المدرَك في وقتنا الأصوات، فإذا سُمِّي كلام الله مَسموعًا، فالمعنيُّ به كونه مفهومًا معلومًا عن أصوات مُدركة ومسموعة، والشَّاهد لذلك من قضايا الشَّريعة إجماع الأمَّة على أنَّ الرَّبَّ تعالى خصَّص موسى، وغيره من المُصطفين من الإنس والملائكة، بأن أسمعهم كلامه العزيز من غير واسطة». كذا في «الإرشاد»[1].

قال الإمام الماتريدي[2]: «إنَّما خصَّ موسى ﷺ باسم الكليم؛ لأنَّ موسى ﷺ سمع صوتًا دالًّا على كلام الله تعالى على وجهٍ خارق للعادة بغير واسطة الكتاب والملك؛ لأنَّه

---

(١) «الإرشاد»: صـ١١٩.

(٢) وكذا في «الإتحاف شرح الإحياء»: ٢/ ٢٣٤، وانظر: صـ١٥١ من «إشارات المرام». (المؤلف).

ليس فيه واسطة الحرف والصَّوت»، ذكره الماتريدي بمعناه في كتاب «التأويلات»[١]، اختاره الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، وجوَّز الأشعري سماع الكلام النَّفسي بغير صوت، وقاس الأشعري سماع الكلام النَّفسي الَّذي ليس بصوت ولا حرف على رؤية ما ليس بلون، فكما عُقل رؤية ما ليس بجسم فليُعقل سماع ما ليس بصوت، وهو لا يكون إلَّا بطريق خرق العادة، كما نبَّه عليه القاضي أبو بكر الباقلاني، والحقُّ: أنَّه لا خلاف في الجواز والإمكان.

وإنَّما الخلاف فيما وقع لسيِّدنا موسى ﷺ، فأنكر الماتريدي سماع الكلام النَّفسي، وعند الماتريدي إنَّما سمع موسى ﷺ صوتًا دالًّا على كلام الله تعالى، وعند الأشعري أنَّه ﷺ سمع الكلام النَّفسي، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، والحمل على الإسناد الحقيقي مُمكن، ولا مُوجب للعدول عنه.

ويُؤيِّد الماتريدي ظاهرُ قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [القصص: ٣٠]، فإنَّ السَّمع مخصوص بإدراك ما يكون صوتًا، وإدراك ما ليس صوتًا يختصُّ باسم الرُّؤية». كذا في «المسامرة شرح المسايرة»[٢].

تتمَّة مُشتملة على فائدة مهمَّة: «وأمَّا ما رُوي أنَّ السَّبعين الَّذين اختارهم موسى ﷺ سمعوا كلام الله وشهدوا بذلك، فلا يلزم منه أنَّ الله كلَّمهم، وأنَّهم سمعوا كلامه؛ لأنَّ الإنسان قد يسمع كلام مَن لا يُكلِّمه. قاله الفاكهاني». كذا في «استحالة المعيَّة بالذَّات» للشَّيخ الخضر الشنقيطي[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «تأويلات القرآن»: ٤/ ١٦٤.

(٢) «المسامرة»: صـ٣١٨.

(٣) «استحالة المعية بالذات»: صـ٢٨٤.

تفصيل المذاهب في مسألة الكلام

تحرير مذهب المتكلِّمين:

ذهب جمهور المُتكلِّمين من الأشاعرة والماتريدية إلى أنَّ القرآن كلام الله قديم صفة من صفاته ليس بمخلوق ولا حادث، وأنَّ كلامه القديم لا يتَّصف بالحروف والأصوات، ولا شيء من صفات الخلق، وأنَّه تعالى لا يفتقر في كلامه إلى مخارج وأدوات، وأنَّ كلامه القديم لا يحلُّ في شيء من المخلوقات.

قال صدر الإسلام البزدوي: «إنَّ القرآن كلام الله تعالى، وهو مكتوبٌ في مصاحفنا، محفوظٌ في قلوبنا، مسموعٌ بآذاننا، متلوٌّ بألسنتنا، غير حالٍّ في شيء منها، بل هو قائم بذات الباري ﷻ.

وهكذا نقول في كلام العباد: إنَّه يُكتب في الكاغذ، ويُتلَى باللسان، ويُحفظ بالقلب، ويُسمع بالآذان، وكتابة الكلام: أن يُكتب ما يكون دالًّا على الكلام، فيصير الكلام مكتوبًا بكتابته.

فكذلك يكون كلام الله مكتوبًا بكتابة هذا المنظوم [العربي]، وهذا حقيقة وليس بمَجاز؛ لأنَّ كتابة الكلام لا يكون إلَّا هكذا مع أنَّ الكلام قائم بذات المُتكلِّم لا ينفصل عنه.

فأمَّا الحفظ فحفظ الكلام: أن يُحفظ ما هو دالٌّ على الكلام، وهو المنظوم، فيكون بحفظه حافظًا للكلام، فإنَّه يُقال: حفظ فلان كلام فلان، إذا حفظ شعره الَّذي نظم. فمَن

حفظ هذا المنظوم الَّذي نظمه اللهُ يصير بحفظه حافظًا كلام الله تعالى، فهذا أيضًا حقيقة وليس بمَجاز، فإنَّ حفظ الكلام ليس إلَّا هذا.

وأمَّا التِّلاوة فتلاوة الكلام أيضًا بتلاوة ما هو دالٌّ على الكلام، وهو المنظوم الَّذي نظمه المُتكلِّم، فيصير بتلاوته تاليًا كلامه، يُقال: فلان تلا كلام فلان، وقرأ كلامه إذا قرأ منظومه الدَّالَّ على كلامه، فمَن قرأ هذا المنظوم الدَّالَّ على كلام الله تعالى يصير به تاليًا وقارئًا كلام الله، وهو حقيقة أيضًا وليس بمَجاز؛ لأنَّ تلاوة الكلام تكون هكذا.

وأمَّا السَّماع فسماع الكلام من غير المُتكلِّم أيضًا سماع المنظوم الدَّالِّ على الكلام، فإنَّ مَنْ سمع شعر إنسان وخطبته من غير المُتكلِّم يُقال: سمع كلام فلان من فلان، فإذا سمع ما هو منظوم الله تعالى، وهو القرآن الدَّالُّ على كلامه من قارئ وتالٍ، ويكون سامعًا كلام الله تعالى، وهذا حقيقة وليس بمَجاز، فإنَّه لا طريق لسماع الكلام من غير المُتكلِّم إلَّا هذا.

وأمَّا موسى ﷺ؛ سمع كلام الله بلا واسطة؛ كلام مُتكلِّم غير الله تعالى من غير أن يكون ثَمَّ صوتٌ وحرف، بل الله أسمع كلامه القائم به موسى ﷺ بلطيف صنعه وكمال قدرته، كما بيَّنَّا، فمسعه موسى وفهمه بلا واسطة كلام البشر، ونحن نسمع بواسطة كلام البشر، فيقع بيننا فرقٌ». انتهى كلام صدر الإسلام البزدوي ملخَّصًا ومختصرًا، من كتابه «أصول الدين»[1].

وهو كلام نفيس جدًّا، وهو في الحقيقة شرح لقول الإمام أبي حنيفة ﷺ المذكور في «الفقه الأكبر» و«كتاب الوصيَّة»، ومَنْ أراد البسط فليُراجع «شرح الفقه الأكبر» للعلَّامة القاري، وكتاب «إشارات المَرام من عبارات الإمام» للعلَّامة البياضي، من أجلَّاء علماء الروم في القرآن الحادي عشر الهجري.

وقال العلَّامة الآلوسي: «ومعنى قول الأشعري: إنَّ كلام الله تعالى القائم بذاته، يُسمع عند تلاوة كلِّ تالٍ، وقراءة كلِّ قارئ. أنَّ المسموع هو الكلام اللفظي؛ لأنَّه صورته من حيث

---

(١) «أصول الدين»: ص٧٠.

الكلمات الغيبيَّة؛ فإنَّها لا تُسمع إلَّا على طريق خرق العادة». كذا في «روح المعاني»[(١)].

وقول الإمام أبي حنيفة: (غير حالٍّ) فيها إشارة إلى أنَّ الحروف الملفوظة المسموعة صورٌ للكلمات الغيبيَّة القدسيَّة القائمة بذات الحقِّ سبحانه، لا أنَّها مَحلٌّ وظرف لها، إذ لا يُمكن حلول القديم في ذات الحادث.

❁ ❁ ❁

(١) «روح المعاني»: ١/ ١٣٣.

بيان أنَّ كلام الله القديم لا يتَّصف بالحروف والأصوات، وإقامة الدَّليل على ذلك

قال الإمام أبو بكر الباقلاني: «يجب أن يُعلم أنَّ كلام الله القديم لا يتَّصف بالحروف والأصوات ولا شيء من صفات الخلق، وأنَّه تعالى لا يفتقر في كلامه إلى مخارج وأدوات، بل يتقدَّس عن جميع ذلك، وأنَّ كلامه القديم لا يحلُّ في شيء من المخلوقات، والدَّليل على أنَّ كلامه تعالى لا يتَّصف بالحروف والأصوات:

(١) أنَّ الحروف متناهية ومعدودة ومحصورة، والقديم لا يدخله الحصر والحدُّ، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

(٢) وأيضًا إنَّ حروف الكلمة يقع بعضها سابقًا لبعض، وكذلك الأصوات متعاقبة يتقدَّم بعضها على بعض، ويتأخَّر بعضها عن بعض، ومختلفة الصُّور والأشكال، ويُخالف بعضها بعضًا، وكلُّ ذلك صفة كلام الخلق لا صفة كلام الحقِّ الَّذي هو قديم ليس بمَخلوق.

(٣) وأيضًا فإنَّ القول بقِدم الحروف والأصوات يُوجب القِدم لجميع كلام الخلق، وأصوات النَّاطق والصَّامت، فإنَّ الحروف الَّتي يزعمون أنَّها قديمة وأنَّها صفة لكلامه تعالى لا يخلو إمَّا أن تكون هذه الحروف الَّتي تجري في كلام الخلق أو مثلها أو ضدَّها، فإن قالوا: إنَّها هي؛ وجب قِدم كلام الخلق، وكذلك إن قالوا: مثلها وجب ذلك أيضًا؛ لأنَّ حدَّ المِثلين ما سدَّ أحدُهما مسدَّ الآخر وناب منابه وساوقه من جميع الوجوه.

وإن قالوا: بل هي مضادَّة لهذه الحروف، فقد يقولون القول من غير أن يكون له معنًى، وهذا بيِّن الفساد.

وإن قالوا: الأصوات والحروف إذا ذكرنا الله بها أو تلونا بها كلامه؛ قديمة، وإذا ذكرنا بها غير الله وأنشدنا بها شعرًا؛ كانت محدَثة، فهذا جهلٌ عظيم وتخبُّط ظاهر؛ لأنَّ الشَّيء عندهم على هذا القول تارة يكون مُحدَثًا، ثمَّ يكون قديمًا، وتارة قديمًا ثمَّ يصير مُحدَثًا، وليس في الجهل أعظم من هذا، وكفى به ردًّا لقولهم.

(٤) وأيضًا يُقال لهم: إذا كان الكلام القديم أصواتًا وحروفًا، والكلام المخلوق من الشِّعر والخُطب أيضًا أصواتًا وحروفًا، فقد [صار] الكلام القديم كالكلام المخلوق، وصار القديم مثل الحادث.

(٥) وأيضًا يُقال لهم: خَبِّرونا عن حروف كلام الله على زعمهم، أهي ثمانية وعشرون حرفًا أو أكثر أو أقل؟

فإن قالوا: هي ثمانية وعشرون، فقد جعلوا القديم ممَّا يحلُّه الحصر والعدُّ والافتتاح والانتهاء، وهي صفة المخلوق لا صفة القديم.

وإن قالوا: أكثر؛ قلنا: أكثر إلى ما له حدٌّ أو إلى ما لا حدَّ له؟ فأيُّ القولين قالوا كان باطلًا؛ لأنَّ القرآن لا يخرج في الكتابة والتِّلاوة على أكثر من هذه الثَّمانية وعشرين حرفًا، فعلى قولهم يجب أن يكون معنا بعض القرآن لا كلُّه؛ لأنَّ القرآن عندهم حروف تزيد على هذه الحروف، ولعلَّ الَّذي يكون معنا من القرآن أقله.

لا سيَّما إن قالوا: إنَّ الحروف القديمة لا يدخلها حصرٌ ولا عدٌّ، وهذا قول ساقط واهٍ عند كلِّ عاقل مُحصِّل. فلم يبقَ إلَّا أنَّ الحروف والأصوات أدوات نكتب بها ونتلو بها الكلام القديم، وغير الكلام القديم، لا أنَّها نفس الكلام القديم، فافهم ذلك.

(٦) ويدلُّ على أنَّ كلام الله القديم لا يجوز أن يكون حروفًا وأصواتًا: ما رُوي عن ابن

عبَّاس أنَّه قال: «لمَّا سلَّط الله بختنصر على اليهود لمَّا قتلوا يحيى ﷺ سلَّطه عليهم، فقتلهم وخرب بيت المقدس، وحرق التَّوراة.

قال عزير ﷺ في جملة مناجاته: «يا ربِّ، سلِّط عليهم عدوًّا من أعدائك، بطر رحمتك، وأمِن مكرك، وهدم بيتك، وحرق كتابك»، فأوحى الله تعالى إليه من جملة ما أوحى: «إنَّ بختنصر إنَّما أحرق من التَّوراة الخط والحروف والورق والدَّفتر، ولم يحرق كلامي»، فأخبر تعالى أنَّ كلامه ليس هو الحروف الَّتي حُرقت، ولا أنَّه ممَّا تناله الأيدي، ولا تعتديه ولا يبلى ولا ينعدم.

(٧) ويُؤكِّد هذا قول النَّبيِّ ﷺ: «لو جُعل هذا القرآنُ في إهاب، وأُلقي في النَّار لم يحترق»، ولم يرد ﷺ أنَّ الجلد والمِداد والحروف المُصوَّرة لا تحترق، وإنَّما أراد أنَّ كلام الله هو القرآن لا يحترق بالنَّار، ولا يُتصوَّر عليه الحرق والعدم، وإنَّما يُتصوَّر ذلك على الأجسام والأشكال، فأمَّا الكلام القديم فلا».

هذا خلاصة كلام الإمام الباقلاني، ومَن رغب إلى الأصل فليُراجع كتاب «الإنصاف»[1] له رحمه الله.

قال الإمام القرطبي: «قال علماؤنا رحمهم الله: وفي فعل عثمان رضي الله عنه (أي: في أمْر عثمان رضي الله عنه بتحريق المَصاحف وتخريقها) رَدٌّ على الحُلُوليَّة والحَشْوِيَّة القائلين بِقِدم الحروف والأصوات؛ لأنَّ القراءة لا تتعلَّق بها قدرة قادر، فيُقال لهم: ما تقولون في كلام الله القديم؟ أيجوز أن يُذاب أو يُحرق أو يُمحى؟». راجع «تفسير القرطبي»[2].

والحاصل:

أنَّ كلام الله سبحانه عند جمهور المُتكلِّمين وكافَّة الأولياء والعارفين صفة من صفاته

---

(١) «الإنصاف»: ص٩٥ ـ ١١٣.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»: ص٩٠.

قديم، غير مخلوق، وليس من جنس الحروف والأصوات.

وإنَّما هذه الحروف والكلمات دلالات القرآن، أي: الكلام النَّفسي القائم بذاته ﷻ لحاجة العباد إليها في التَّبليغ وفهم معناه؛ لأنَّ معنى كلام الله إنَّما يُفهم بها، وحقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنَّفس.

قال الحافظ القطب القسطلاني: «العجب ممَّن ينتمي إلى أهل السُّنَّة ويتعرَّض للاقتداء بالسَّلف الصَّالح منهم، ويعتمد على ما ورد في الكتاب والسُّنَّة، كيف يُخالف قوله قولهم، وينتهي إلى ما لم يرد من السَّادة المُقتدَى بهم؛ من الخوض في كيفيَّة الكلام، فيزيد فيه ـ بحرف وصوت ـ ولم يردْ ذلك في كتاب ولا سُنَّة، ويستدلُّ على إثبات المقطوع به بالمظنون من الأحاديث المتضادَّة للمتون؟» اهـ. كذا في حاشية كتاب «الأسماء والصِّفات»[1].

(١) «الأسماء والصفات»: صـ١٩٨، والتعليق من شيخ الإسلام الإمام زاهد الكوثري، وأضاف: «وقد نقل نصَّ عبارته اليافعي في «مرهم العلل المعضلة»».

كلمة للإمام البيهقي في حقيقة الكلام

قال الإمام البيهقي: «الكلام ما ينطق به المُتكلِّم، وهو مستقرٌّ في نفسه، كما جاء في حديث عمر ﷺ، يعني: في قصة السَّقيفة: «وكنتُ زوَّرتُ في نفسي مقالة»، وفي رواية: «هيَّأت في نفسي كلامًا»، فسمَّاه كلامًا قبل التَّكلُّم به، وسمَّاه مقالة قبل التَّلفُّظ به.

ثم إن كان المُتكلِّم ذا مخارج سمع كلامه ذا حروف وأصوات، وإن كان المُتكلِّم غير ذي مخارج سمع كلامه غير ذي حروف وأصوات، والباري ـ جلَّ ثناؤه ـ ليس بذي مخارج، وكلامه ليس بحرف وصوت، فإذا فهمناه ثمَّ تلوناه؛ تلوناه بحروف وأصوات».

انتهى كلام البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات»[1].

وقد نقل الحافظ العسقلاني كلام البيهقي هذا في «شرحه على البخاري» في باب: قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣][2]، فهذا كلام البيهقي في حقيقة الكلام بين يديك، وقد قرأتَ في الأوراق الماضية كلام الباقلاني حقيقة الكلام؛ تجدهما سواء، لا فرق بينهما.

مذهب الحنابلة والحشويَّة:

قد علمت مذهب المُتكلِّمين والأولياء والعارفين، وأمَّا مذهب السَّلف والمُحقِّقين من الحنابلة:

أنَّ الله مُتكلِّم يتكلَّم بحرف وصوت يليقان بشأنه، ولا يُشبهان صوت مخلوق ولا

---

(١) «الأسماء والصفات»: صـ٢٦٢.

(٢) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٧.

حرفه بوجهٍ البتَّة.

فهؤلاء يُثبتون الحرف والصَّوت مع اعتقاد التَّنزيه وعدم التَّشبيه، وقالت عامَّة الحنابلة: أنَّ القرآن اسمٌ للنَّظم، والمعنى جميعًا، ولا معنى للكلام إلَّا المنتظم من الحروف المسموعة الدَّالَّة على المعاني المقصودة، وهو قديم قائم بذات الباري تعالى، وقد عُلم بالضَّرورة من دِين النَّبيِّ ﷺ حتَّى العوام والصِّبيان أنَّ القرآن هو هذا الكلام، المُؤلَّف المُنتظم من الحروف المسموعة، وعليه انعقد إجماع السَّلف. انظر من «شرح العقيدة السفارينية»[1].

قال العلَّامة القسطلاني: «وعند أهل الحقِّ أنَّ كلامه تعالى ليس من جنس الحروف والأصوات، بل صفة أزليَّة قائمة بذاته تعالى، وهو بها آمِر وناهٍ ومُخبِر وغير ذلك، يدلُّ عليها بالعبارة والكتابة أو الإشارة.

فإذا عبَّر عنها بالعربيَّة فقرآن، وبالسريانيَّة فإنجيل، وبالعبرانيَّة فتوراة، والاختلاف على العبارات دون المسمَّى، كما إذا ذُكر الله بألسنة مُتعدِّدة ولغات مُختلفة.

فقالت الحنابلة والحشويَّة: إنَّ تلك الأصوات والحروف مع تواليها وترتُّب بعضها على بعض، وكون الحرف الثَّاني من كلِّ كلمة مسبوقًا بالحرف المُتقدِّم عليه، كانت ثابتة في الأزل قائمة بذات الباري تعالى وتقدَّس، وأنَّ المسموع من أصوات القرَّاء والمرئيَّ من أسطر الكتاب نفس كلام الله.

وعند أهل الحقِّ: الكلام القائم بذات الباري تعالى لا يجوز أن يكون هو الحسِّيَّ، أعني: المُنتظم من الحروف المسموعة؛ لأنَّه حادث بالضَّرورة أنَّ له ابتداء وانتهاء، وأنَّ الحرف الثَّاني من كلِّ كلمة مسبوقٌ بالأوَّل، مشروط بانقضائه، وأنَّه يمتنع اجتماع أجزائه في الوجود وبقاء شيء منها بعد الحصول، والحادث يمتنع قيامه بذات الباري تعالى،

---

(١) «لوامع الأنوار البهية»: ١/ ١٤٣.

فتعيَّن النَّفسي القديم». كذا في «إرشاد الساري»(١).

وقال الحافظ العسقلاني: «وذهب بعض الحنابلة وغيرُهم إلى أنَّ القرآن العربيَّ كلام الله، وكذا التَّوراة، وأنَّ الله لم يزل مُتكلِّمًا إذا شاء، وأنَّه تكلَّم بحروف القرآن، وأسمع مَنْ شاء من الملائكة والأنبياء صوته، وقالوا: إنَّ هذه الحروف والأصوات قديمة العين لازمة الذَّات، ليست مُتعاقبة، بل لم تزل قائمة بذاته، مقترنة لا تسبق، والتَّعاقُب إنَّما يكون في حقِّ المخلوق بخلاف الخالق». كذا في «فتح الباري»(٢).

فالحروف عند الحنابلة في حقِّه تعالى مُقترنة لا مُتعاقبة، وقالوا: إنَّ التَّعاقُب إنَّما يكون في حقِّ المخلوق لا في حقِّ الخالق، والحنابلة يقولون بالحروف والصَّوت مع اعتقاد التَّنزيه وعدم التَّشبيه بالخلق(٣).

فيقولون: إنَّ الله تعالى يتكلَّم كما يليق بجلاله، وأنَّ كلامه حروف وأصوات أزليَّة مجتمعة في الأزل. انظر «شرح الطحاوية»(٤).

وهؤلاء قد قالوا: قد رُوي عن الإمام أحمد أنَّ الله تعالى تكلَّم بحرف وصوت.

وقال إمام الحرمين: «ذهبت الحشويَّة المُنتمون إلى الظَّاهر إلى أنَّ كلام الله تعالى قديم أزليٌّ، ثمَّ زعموا أنَّه حروف وأصوات، وقطعوا بأنَّ المسموع من أصوات القرَّاء ونغماتهم عينُ كلام الله تعالى، وأطلق الرِّعاع منهم القول بأنَّ المسموع صوت الله تعالى، وهذا قياس جهالاتهم.

ثمَّ قالوا: إذا كُتب كلام الله تعالى بجسم من الأجسام، وانتظمت تلك الأجسام رسومًا ورقومًا وأسطرًا وكلامًا، فهي بأعيانها كلام الله تعالى القديم، وقد كان إذ ذاك جسمًا حادثًا،

---

(١) «إرشاد الساري»: ١٠/ ٤٢٨.

(٢) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٥.

(٣) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٥.

(٤) «شرح العقدية الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي: صـ٢٧٢، و٢٧٤.

ثمّ انقلب قديمًا.

وقضوا بأنّ المرئيّ من الأسطر الكلام القديم الّذي هو حرف وصوت.

وأصلهم أنّ الأصوات على تقطُّعها وتواليها؛ كانت ثابتة في الأزل قائمة بذات الباري، تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا، وقواعد مذهبهم مبنيَّة على جحد الضَّرورات، فإنَّهم أثبتوا للكلام القديم ـ على زعمهم ـ ابتداء وانتهاء، وجعلوا منه سابقًا ومسبوقًا.

فإنَّ الحرف الثَّاني من كلِّ كلمة مسبوق بالمُتقدِّم عليه، وكلُّ مسبوق مبتدأ وجودُه، وباضطرار نعلم كون المُفتتح وجوده حادثًا.

ولا خفاء بمُراغمتهم لبديهة العقول في حُكمهم؛ بانقلاب الحادث قديمًا.

وممَّا يُقرِّر افتضاحهم في مناكرة الحقائق: أنَّ الحروف لو مُثِّلَتْ من بعض الجواهر فهي عين كلام الله تعالى عندهم، والحديد الَّذي صِيغت منه الحروف خارج من كونه حديدًا، ونحن نُدرك زُبُر الحديد متآلفة جسمًا.

فكيف تسوغ محاجَّة قوم هذه غايتهم؟

ثمَّ جهلتهم يُصمِّمون على أنَّ اسم الله إذا كُتب، فالرَّقم المرئيُّ في الكتابة هو الإله بعينه وهو المَعبود، والَّذي يُصمد إليه.

ثمَّ أصلُهم أنَّ الكلام القديم يحمل الأجسام ولا يُفارق الذَّات، وهذا تلاعُب بالدِّين، والله ﷺ». كذا في «الإرشاد»[1] لإمام الحرمين.

قال العلَّامة الزبيدي: «وذهب الحشويَّة إلى أنَّ القراءة الَّتي هي حروف وأصوات وهي فِعل العبد وكسبُه، وهي أعراض لا تبقى باتِّفاق مَنْ زعم أنَّ الأعراض لا تبقى هي عين كلام الله تعالى، وهي قديمة.

---

(١) «الإرشاد»: صـ١١٥.

وقالوا: إنَّ الحروف المكتوبة في المصاحف الَّتي يُنسب حصولها للكاتبين قديمة، وبالغوا فقالوا: لو أُخِذت زُبُر من حديد وقطعٌ من نحاس أو شيءٌ من الكأس، وجُعِلت حروفًا تُقرأ، كما لو جُعلت صورة، صارت تلك الأجسام قديمة.

وقال أبو نصر القشيري: والعجب كلُّ العجب مِن تجاهُل أقوام في المصير إلى أنَّ كلام الله تعالى إذا كُتب على الآجر أو شيءٍ من الأصباغ ينقلب عين الآجر والصبغ قديمًا، فإذا صار الجهل إلى هذا القَدْر، والحُكم بأن المُحدَث يصير قديمًا، والقديم يُفارق ذات الباري، ويحلُّ في المُحدَثات، فالأولى السُّكوت». كذا في «الإتحاف شرح الأحياء»[1].

«وقال المُوفَّق ابن قدامة صاحب «المغني» الَّذي يقول عنه ابن تيمية: أنَّه ما حلَّ دمشق مثلُه بعد الأوزاعي ـ في مناظرته مع بعض الأشاعرة في صدد نفي الكلام النَّفسي، المسجلة في المجموعة المحفوظة تحت رقم ١١٦ ـ بظاهرية دمشق ـ: «قال أهل الحقِّ: القرآن كلام الله غير مخلوق، وقالت المُعتزلة: هو مخلوق، ولم يكن اختلافهم إلَّا في هذا الموجود دون ما في نفس الباري ممَّا لا ندري ما هو ولا نعرفه آه. وله أيضًا رسالة سمَّاها «الصِّراط المستقيم في إثبات الحرف القديم»».

كذا في «حاشية السيف الصقيل»[2]، وانظر: «مقالات الكوثري»[3].

وقال الحافظ ابن تيمية في فتاويه ما نصُّه: «والصَّواب الَّذي عليه سلف الأمَّة ـ كالإمام أحمد والبخاري وغيره وسائر الأئمَّة قبلهم وبعدهم ـ هو أنَّ القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه، وليس شيء من ذلك كلامًا لغيره؛ ولكن أنزله على رسوله.

وليس القرآن اسمًا لمُجرَّد المعنى ولا لمجرَّد الحرف، بل لمجموعهما، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط، ولا المعانِي فقط. كما أنَّ الإنسان المُتكلِّم النَّاطق ليس هو

---

(١) «إتحاف السادة المتقين»: ٢/ ٢٣٦.

(٢) حاشية شيخ الإسلام زاهد الكوثري على «السيف الصقيل»: صـ٦٤.

(٣) «مقالات الكوثري»: صـ٣٤.

مجرَّد الرُّوح ولا مجرَّد الجسد؛ بل مجموعهما.

وأنَّ الله يتكلَّم بصوت كما جاءت به الأحاديث، وليس ذلك كأصوات العباد، فإنَّ الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

فكما لا يُشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته، فكذلك لا يُشبه كلامه كلام المخلوق، ولا معانيه تُشبه معانيه، ولا حروفه تُشبه حروفه، ولا صوت الرَّبِّ يُشبه صوت العبد، فمَنْ شبَّه الله بخلقه؛ فقد ألحد في أسمائه وآياته».

كذا في المجلد الخامس من «مجموعة الفتاوى» لابن تيمية[١]، وهكذا في الجزء الأوَّل من «مجموعة الفتاوى» لابن تيمية[٢]، ومثله في كتابه «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» المطبوع[٣]، «منهاج السُّنَّة»[٤]، وكذا في «شرح العقيدة الأصفهانية»[٥]، و«مجموعة الرسائل»[٦]، وكذا في رسالته في القرآن.

وبالجملة؛ لم يألُ ابن تيمية في إثبات قِدم الحروف اللفظيَّة، وسلك في ذلك مسلك ابن قدامة، وادَّعى أنَّ ذلك مذهب السَّلف، وليس كذلك، بل إنَّما هو مذهب الحنابلة.

وقد ذكر الشَّيخ قاسم بن قُطلوبغا، تلميذ الكمال ابن الهمام المتوفَّى سنة ٨٧٩هـ في «شرح المسايرة» كلامًا لابن تيمية في إثبات الحرف والصَّوت، ثمَّ ناقشه، فنُورده بتمامه، فقال:

قال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد ابن تيمية في جزءٍ أجاب فيه عن فُتيا رُفعت إليه:

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ١٢/ ٢٤٣، و١٧٢، ١٣٧، ٧٧.

(٢) «مجموع الفتاوى»: ٣/ ١٤٤، و١٧٢، ٢٠٨، ٤٠١، ٤٠٤.

(٣) «درء تعارُض العقل والنقل»: ١/ ٢٦٧.

(٤) «منهاج السُّنَّة»: ٥/ ٤١٩.

(٥) «شرح العقيدة الأصفهانية»: ٤٩٢

(٦) «مجموعة الرسائل والمسائل»: ٣/ ٢١، و٢٤.

وأمَّا الحروف، فهل هي مخلوقة أو غير مخلوقة؟ فالخِلاف في ذلك بين الخَلف مشهور. فأمَّا السَّلف فلم يُنقل عن أحدٍ منهم أنَّ حروف القرآن أو ألفاظه أو تلاوته مخلوقة، ولا ما يدلُّ على ذلك.

بل قد ثبت عن غير واحد؛ الرَّدُّ على مَنْ قال: بأنَّ ألفاظ القرآن مخلوقة، وقالوا: هو جهميٌّ، ومنهم مَنْ كفَّره.

وفي لفظ بعضهم: تلاوة القرآن، ولفظ بعضهم: الحروف. وممَّن ثبت عنه ذلك الشَّافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، والحميدي، ومعمر بن أسلم الطوسي، وهشام ابن عمار، وأحمد بن صالح المصري، ومَن أراد الوقوف على نصوص كلامهم فليُطالع الكتب المُصنَّفة في السُّنَّة، مثل: كتاب «الرَّدُّ على الجهميَّة» للإمام عبد الرَّحمن بن أبي حاتم، وكتاب «الشَّريعة» للآجري، وكتاب «الإبانة» لابن بطة، و«السُّنن» للكافي، و«السُّنَّة» للطبراني، وغير ذلك من الكتب الكبيرة.

ولم يُنسب أحدٌ منهم إلى خلاف ذلك، إلَّا أنَّ بعض أهل الغرض نسب البخاري إلى أنَّه قال ذلك. وقد ثبت عنه بالإسناد المَرضيِّ أنَّه قال: مَنْ قال عنِّي أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق؛ فقد كذَب، وإنَّما قلت: أنَّ أفعال العباد مخلوقة[١]. وتراجمُه في آخر صحيحِه تُبيِّن ذلك. وهنا ثلاثة أشياء:

أحدها: حروف القرآن الَّتي هي لفظه قبل أن ينزل بها جبريل، فمَن قال: أنَّ هذه الحروف مخلوقة؛ فقد خالف إجماع السَّلف، فإنَّه لم يكن في زمانهم مَن يقول هذا، إلَّا الَّذين قالوا: القرآن مخلوق.

فإنَّ أولئك إنَّما عنوا بالخلق: الألفاظ، وأمَّا ما سوى ذلك فهم لا يُقرُّون بثبوته، لا مخلوقًا ولا غير مخلوق.

---

(١) ذكر ذلك القاضي أبو يعلى عن محمد بن نصر المروزي في «طبقات الحنابلة»: ١/ ٢٧٧، والحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب»: ١١/ ٣١٨.

وقد اعترف غيرُ واحد من فحول أهل الكلام بهذا، منهم: عبد الكريم الشهرستاني مع خبرته بـ«المِلل والنِّحل»، فإنَّه ذكر أنَّ السَّلف مطلقًا ذهبوا إلى أنَّ حروف القرآن مخلوقة[(١)]، وقال: ظهور القول بحدوث الحروف مُحدَث، وقد ذكر مذهب السَّلف في كتابه المُسمَّى بـ«نهاية الإقدام»[(٢)].

الثَّاني: أفعال العباد؛ وهي حركاتهم الَّتي تظهر عند التِّلاوة، فلا خلاف بين السَّلف أنَّ أفعال العباد مخلوقة؛ ولهذا بدَّعوا مَنْ قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق؛ لأنَّ ذلك يدخل فيه فعله.

ثمَّ قال الثَّالث: التِّلاوة الظَّاهرة من العبد عقيب حركة الآلة.

فهذا منهم مَنْ يصفها بالخلق، ومنهم مَنْ ينفي عنها الخلق، والصَّواب: أن لا يُطلق واحدٌ منهما كما عليه الإمام أحمد وجمهور السَّلف؛ لأنَّ في كلٍّ واحد من الإطلاقين إيهامًا للخلط، فإنَّ أصوات العباد مُحدَثة بلا شكٍّ.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «زيِّنوا القرآن بأصواتِكم»، والتِّلاوة في نفسها الَّتي هي حروف القرآن وألفاظه غير مخلوقة، والعبد إنَّما يقرأ كلام الله بصوته. كما أنَّه إذا قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنِّيَّات» فهذا الكلام لفظه ومعناه إنَّما هو كلام رسول الله ﷺ، وهو قد بلغه بحركته وصوته، كذلك القرآن لفظه ومعناه كلام الله ﷻ ليس للمخلوق فيه إلَّا تبليغه وتأديته بصوته.

وما يَخفى على لبيبٍ الفرق بين التِّلاوة في نفسها قبل أن يتكلَّم بها الخلق، وبعد أن يتكلَّم بها، وبين ما للعبد في تلاوة القرآن من عملٍ وكسب، وإنَّما غلط بعض المُوافقين والمُخالفين، فجعلوا البابين واحدًا، وأرادوا أن يستدلُّوا على حدوث نفس حروف القرآن بما دلَّ على حدوث أفعال العباد، وما تولَّد عنها، وهذا من أقبح الغلط، وليس في الحجج

---

(١) كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: غير مخلوقة. (المؤلف).

قلت: وهو كذلك، انظر: «الملل والنحل»: ١/ ٨٩، و١٠٧.

(٢) «نهاية الإقدام»: صـ١٧٧.

العقليَّة ولا السَّمعيَّة ما يدلُّ على حدوث نفس حروف القرآن إلَّا من جنس ما يحتجُّ به على حدوث معانيه.

والجواب عن الحجج مثل الجواب عن هذه سواء لمَن استهدى الله فهداه». انتهى كلامه.

قال الشَّيخ قاسم بن قُطلوبغا بعد نقل هذا الكلام: «وإنَّما سُقت كلام هذا الرجل ـ ابن تيمية ـ لاعتراف أهل مذهبه أنَّه أعلمهم، وأنَّ عنده ما عند المُتقدِّمين منهم والمُتأخِّرين، ويُعلم ممَّا ذُكر صحَّة ما نقل مشايخنا عنهم من أنَّ كلام الله عندهم هو الحروف المؤلَّفة والأصوات المُقطَّعة، وأنَّه حالٌّ في الألسنة والصُّدور والمصاحف، وأنَّه مع هذا غير مخلوق، قاله صاحب «التبصرة».

وقال: وكثيرٌ من الحشويَّة يساعدونهم، ويقولون: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فيجعلون قراءتهم غير مخلوقة، وهذا هذيان ظاهر، لا أعلم ما لهم من حجَّة، فإنَّ مشايخنا لم يذكروا لهم شبهةً، والله أعلم.

ويُعلم ممَّا ذُكر أنَّ السَّلف الَّذين عناهم ردُّوا على مَنْ قال: ألفاظ القرآن مخلوقة، أو قال: تلاوته مخلوقة، أو قال: حروف القرآن مخلوقة، وأنَّ بعضهم كفَّر القائل لذلك، وحيث ردُّوا هذا فهم قائلون بأنَّها غير مخلوقة كما قال الشهرستاني، وأنَّ كلام الله لفظي حالٌّ في الألسنة، لقوله: (حروف القرآن الَّتي هي لفظُه قبل أن ينزل بها جبريل)، وقوله: (والتِّلاوة في نفسها الَّتي هي حروف القرآن وألفاظه غير مخلوقة)، وقوله: (وكذلك القرآن لفظه ومعناه كلام الله ﷻ ليس للعبد فيه إلَّا تأديته بصوت)، وقوله: (والعبد إنَّما يقرأ كلام الله بصوته)، وقوله: (وما يَخفى على لبيبٍ الفرق بين التِّلاوة نفسها قبل أن يتكلَّم بها الخلق وبعد أن يتكلَّم بها، وبين ما للعبد في تلاوة القرآن من عمل وكسب).

وأنَّ الكلام يُضاف إلى أوَّل مَنْ يتكلَّم به كائنًا مَنْ كان، والنَّاس بعده يُؤدُّون ذلك بحركة الألسنة، كقوله: قال النَّبيُّ ﷺ، وهو قد بلغه بحركته وصوته ولم يتعرَّض للكتابة الَّتي

في المصاحف، ويدلُّ لقول أصحابنا في ذلك: ما قرأتُ في «المعتمد» لأبي يعلى أنَّ أبا طالب قال لأحمد عن نُقوش المصحف، والسَّواد الَّذي في البياض، فقال: أصحُّ حديث في الباب حديث ابن عمر ﷺ: **«لا تُسافروا بالقرآن إلى أرضِ العدُوِّ»**.

وعن هذا قال أئمَّتُنا: القرآن الَّذي هو كلام الله تعالى مكتوبٌ في مصاحفنا بأشكال الكتابة، وصور الحروف الدَّالَّة عليه، محفوظٌ في قلوبنا بألفاظ مُخيَّلة، ومقروءٌ بألسنتنا بحروفه المَلفوظة المسموعة، مسموعٌ بآذاننا بذلك أيضًا غير حالٍّ فيها، ليس حالًّا في المصاحف ولا في القلوب والألسنة والآذان، بل هو معنًى قائم بذات الله يلفظ ويسمع بالنظم الدَّالِّ عليه، ويُحفظ بالنَّظم المُخيَّل، ويُكتب بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف الدَّالَّة عليه.

كما يُقال: النَّار جوهر مُحرِق، يُذكر باللفظ، ويُكتب بالقلم، ولا يلزم منه كون حقيقة النَّار صوتًا وحرفًا، وذلك أنَّ للشيء وجودًا في الأعيان، ووجودًا في الأذهان، ووجودًا في العبارة، ووجودًا في الكتابة.

فالكتابة تدلُّ على العبارة، وهي ما في الأذهان، وهو على ما في الأعيان، فحيث يُوصف القرآن بما هو من لوازم القِدم كما في قولنا: **القُرآن غير مَخلوق**، فالمُراد: حقيقته الموجودة في الخارج، وحيث يُوصف بما هو من لوازم المخلوقات والمُحدَثات، يُراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة، كما في قولنا: **قرأتُ نصفَ القرآن**، أو المُخيَّلة كما في قولنا: **حفظتُ القرآن**، أو الأشكال المَنقوشة كما قولنا: **يحرمُ على المُحدِث من مسِّ القرآن**.

وقوله: (ولا يَخفى على لبيبٍ الفرق بين التِّلاوة في نفسها قبل أن يتكلَّم بها الخلق وبعد أن يتكلَّم بها، وبين ما للعبد في تلاوة القرآن من عملٍ وكسب). قلت: الَّذي تعقله الألبَّاء أن ليس قبل تكلُّم الخلق تلاوة، ولا بعد تكلُّمهم تلاوة، وإنَّما التلاوة تكلُّمهم، والمتلوُّ القرآن، والصِّفة القديمة القائمة بذات الله تعالى المدلول عليها بالتِّلاوة، قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، ففِعلُه ﷺ تلاوة، لا أنَّ فعله شيءٌ والتِّلاوة شيءٌ آخر، والله أعلم.

قوله: (إنَّما خلط بعض المُوافقين والمُخالفين فجعلوا البابين واحدًا) يعني: جعلوا عمل العبد والتِّلاوة واحدًا، والحال: أنَّهما شيئان؛ صوت القارئ، وكلام الله تعالى، وسنُبيِّن بطلان هذا، والله أعلم.

قوله: (وأرادوا) يعني: بعض المُوافقين والمُخالفين، (أن يستدلُّوا على حدوث حروف القرآن بما دلَّ على حدوث أفعال العباد وما تولَّد عنها، وهو من أقبح الغلط) يعني: وليست من أفعال العباد، وإنَّما هي الكلام القديم، فالحاصل: أنَّ القراءة نُطق القارئ وكلام الله تعالى، وهذا كلُّه دعوى ليس فيها ما يصلح شُبهة، فضلًا عن حُجَّة.

ويُقال له: هل تكلَّم الله بهذه الحروف دفعة واحدة أو على التَّعاقُب؟ فإن كان الأوَّل؛ تحصَّل منه أنَّه غير هذه الكلمات الَّتي نسمعها؛ لأنَّ الَّتي نسمعها حروف متعاقبة، فحينئذ لا يكون هذا القرآن المسموع قديمًا.

وإن كان الثَّاني؛ فالأوَّل لمَّا انقضى كان مُحدَثًا؛ لأنَّ ما ثبت عدمُه امتنع قِدمه، والثَّاني لمَّا حصل بعد عدمه كان حدثًا فظهر بطلان ما ادَّعاه، وأنَّه هو أقبح الغلط، والله تعالى أعلم.

قوله: (وليس في الحجج العقليَّة ولا السمعيَّة ما يدلُّ على حدوث نفس حروف القرآن إلَّا من جنس ما يُحتجُّ به على حدوث معانيه، والجواب عن الحجج مثل الجواب عن هذا سواء). قلت: ممنوع، بل الجواب ناطق بأنَّ الألفاظ مخلوقة، والمعنى قديم، كما تقدَّم في جواب شُبهة المعتزلة، وكفى في الحجج العقليَّة ما قدَّمناه في بطلان ما ادَّعاه، والله تعالى أعلم.

انتهى كلام الشَّيخ قاسم قطلوبغا في «شرح المسايرة»[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) «حاشية زين الدين قاسم على المسايرة»: ١/ ٨٥ ـ ٨٩.

مسألة الحروف

حروف المُعجم إذا وُجدت في كلام الله فهي قديمة غير مخلوقة، وإذا وُجدت في العباد فهي مخلوقة، وإذا تكلَّمنا بكلام ذكرنا فيه الأسماء المذكورة في القرآن مثل: آدم، ونوح، وإبراهيم، وغير ذلك؛ فكلامنا مخلوق، وحروف كلامنا مخلوقة.

فإنَّ هذه الحروف وإن تكلَّم الله بها في القرآن، لكن لم يتكلَّم بها مفردة، كما قال أحمد بن حنبل لرجل: ألستَ مخلوقًا؟ قال: بلى، قال: أليس كلامك منك؟ قال: بلى، قال: أليس كلامك مخلوقًا؟ قال: بلى، قال: فالله تعالى غير مخلوق، وكلامه منه ليس بمخلوق. كذا في «مجموعة الرسائل» ملخَّصًا لابن تيمية[1].

قال الإمام أبو بكر الباقلاني ما حاصله: أنَّ هذا تخبُّط ظاهر؛ فإنَّ الحروف في القرآن هي الحروف بعينها في كلام الإنسان، وعلى هذا القول يلزم أن يكون الشَّيء الواحد قديمًا تارة وحادثًا تارة، فإنَّ هذه الحروف إذا وُجدت في القرآن كانت قديمة، وإذا وُجدت في كلام الخلق تكون مخلوقة، مع أنَّ الحروف في الكلامين واحدة.

وقال الشهرستاني: «قالت السَّلف والحنابلة: قد تقرَّر الاتِّفاق على أنَّ ما بين الدَّفَّتين كلام الله، وأنَّ ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه عين كلام الله، فيجب أن يكون الكلمات والحروف بعينها كلام الله، ولمَّا تقرَّر الاتِّفاق على أنَّ كلام الله غير مخلوق، فيجب أن تكون الكلمات أزليَّة غير مخلوقة، ولقد كان الأمر في أوَّل الزَّمان على قولين:

أحدهما: القِدم.

---

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل»: ٣/ ٥٦.

والثَّاني: الحدوث.

والقولان مقصوران على الكلمات المكتوبة والآيات المقروءة بالألسُن، فصار الآن إلى قول ثالث، وهو: حدوث الحروف والكلمات، وقِدم الكلام.

والأمر الَّذي تدلُّ عليه العبارات، فكانت السَّلف على إثبات القِدم والأزليَّة لهذه الكلمات دون التَّعرُّض لصفة أخرى وراءها، وكانت المعتزلة على إثبات الحدوث والخلقيَّة لهذه الحروف والأصوات، دون التَّعرُّض لأمرٍ وراءها، فأبدع الأشعري قولًا ثالثًا، وقضى بحدوث الحروف، وهو خرق الإجماع، وحكم بأنَّ ما نقرؤه كلام الله مَجازًا لا حقيقة، وهو عين الابتداع». اهـ. كذا في «نهاية الإقدام»[١].

قلت: قد سبق مُراد الإمام الأشعري وكلامه بديعٌ جدًّا وليس بابتداع، بل هو نعم الإبداع، وحاصله: أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنَّ هذه الحروف والكلمات دلالات القرآن، أي: الكلام النَّفسي القديم القائم بذاته سبحانه، لا أنَّها عين الكلام القديم، كما في «إشارات المَرام من عبارات الإمام»[٢].

قال الإمام أبو الحسن الأشعري: «الكلام كلُّه ليس من جنس الحروف، ولا من جنس الأصوات، بل الحروف والأصوات على وجهٍ مخصوص دَلالاتٌ على الكلام القائم بنفس المتكلِّم». كذا في «الإتحاف»[٣].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، فصدور العلماء واللوح المحفوظ ولسان الرَّسول ﷺ مخلوقة، والكلام القديم غير حالٍّ فيها، وإنَّما القديم ما قام بالله ﷻ دون ما في الصُّدور والألواح والألسنة، وهذا ظاهر جدًّا لا يشكُّ فيه عاقل، وهو

(١) «نهاية الإقدام»: صـ١٧٧.

(٢) «إشارات المرام»: صـ١٤٨.

(٣) «إتحاف السَّادة المتقين»: ٢/ ٤٦.

قول الإمام الأعظم والهمام المقدام[١]، العالم العابد الزَّاهد الصُّوفي، أبي حنيفة الكوفي، وهو أوَّل مَنْ أشار إلى الفرق بين ما قام بالحقِّ ﷻ وما قام بالخلق، فما قام بالحقِّ سبحانه قديم غير مخلوق، وما قام بالخلق حادث ومخلوق.

وخلاصة الكلام:

من مذاهب الحنابلة على ما يظهر من كلام مشايخهم، ولا سيَّما من كلام ابن تيمية في فتاواه ورسائله: أنَّ كلام الله عندهم هو الحروف المُؤلَّفة والأصوات المُقطَّعة، وأنَّه حالٌّ في الألسنة والصُّدور والمصاحف، وأنَّه مع هذا غير مخلوق، كما قال صاحب «التَّبصرة»، انظر: «شرح المسايرة» لزين الدين قاسم بن قطلوبغا[٢].

وقد سبق في الأوراق الماضية نقلًا عن الإمام الشهرستاني أنَّ مذهب الحنابلة: أنَّ ما بين الدَّفَّتين كلام الله، وأنَّ ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه عين كلام الله، فيجب أن تكون الكلمات والحروف هي بعينها كلام الله. اهـ.

ولا يخفى أنَّه جحدٌ للضَّرورة، وإنكارٌ للبداعة، قال الإمام الغزالي: «مَنْ لم يعقله عقله ولا نَهاه نُهَاه[٣] عن أن يقول: لساني حادث، ولكن ما يحدث فيه بقدرتي الحادثة قديم، فاقطع عن عقله طمعك، وكفَّ عن خطابه لسانك.

ومَنْ لم يفهم أنَّ القديم عبارة عمَّا ليس قبله شيء، وأنَّ الباء قبل السين في قولك: (بسم الله)، فلا يكون السِّين المُتأخِّر عن الباء قديمًا، فنزِّه عن الالتفات إليه قلبك؛ إذ لا فائدة في الكلام معهم سوى اللجاج والمِراء». كذا في «الإتحاف شرح الإحياء»[٤].

---

(١) في الأصل: «الأقدام»، والظاهر أنه ما أثبتُّه.

(٢) «حاشية زين الدين قاسم على المسايرة»: ١/ ٧٨.

(٣) بالضم، جمع نهية، وهي العقل، سُمِّيت بذلك لأنَّها تنهى عن القبيح. «لسان العرب»: ١٥/ ٣٤٦.

(٤) «إتحاف السَّادة المتقين»: ٢/ ٢٣٢.

ومُحصَّله: أنَّه كيف يُمكن أن يكون اللسان مُحدَثًا وصفته قديمة، أو يحلُّ به القديم، أو يقوم به صفة القديم ويمتزج القديم بالحادث، ولا يخفى أنَّ امتزاج القديم بالحادث مُحالٌ بإجماع أهل العقل؟!

وقال الحليمي في «شعب الإيمان»: «إنَّ كلام الله ليس بحرف ولا صوت، والكلام الحقيقي هو كلام النَّفس، فالأصوات والحروف إنَّما وُضعت دلالات على كلام النَّفس، ومَنْ قلت له: اكتب أرضًا أو فرسًا أو آدميًّا، فكتب الَّذي أمليتَ عليه في ورقة أو لوح ثمَّ زعم أنَّ الأرض والسَّماء والفرس هو المكتوب في الورقة، فاقطع طمعك عن عقله، واقضِ بحماقته.

ومَنْ زعم أنَّ حركة شفتيه أو صوته أو كتابته بيده في الورقة هو عين كلام الله القائم بذاته؛ فقد زعم أنَّ صفة الله قد حلَّت بذاته، ومسَّت جوارحه، وسكنت قلبه، وأيُّ فرق بين مَنْ يقول هذا وبين مَنْ يزعم من النَّصارى أنَّ الكلمة اتَّحدت بعيسى ﷺ». انتهى كلامه، كذا في حاشية كتاب «الأسماء والصِّفات» للبيهقي[1]، وحاشية «السَّيف الصقيل»[2].

وقال ابن حزم في «المِلل والنِّحل»: «أجمع أهل الإسلام على أنَّ الله تعالى كلَّم موسى ﷺ، وعلى أنَّ القرآن كلام الله، وكذا غيره من الكتب المُنزَّلة والصُّحف.

ثمَّ اختلفوا؛ فقالت المعتزلة: إنَّ كلام الله صفة فِعل مخلوقة، وأنَّه كلَّم موسى ﷺ بكلام أحدثه في الشَّجرة.

وقال أحمد ومَنْ تبعه: كلام الله هو عِلمه لم يزل، وليس بمخلوق.

وقالت الأشعرية: كلام الله صفة ذات لم يزل، وليس بمخلوق، وهو غير عِلم الله، وليس لله إلَّا كلامٌ واحد.

---

(١) «الأسماء والصفات»: صـ٢٤٧.

(٢) «السيف الصقيل»: صـ٦٤.

واحتجَّ لأحمد بأنَّ الدَّلائل القاطعة قامت على أنَّ الله لا يُشبهه شيء من خلقه بوجه من الوجوه، فلمَّا كان كلامنا غيرنا، وكان مخلوقًا؛ وجب أن يكون كلامه سبحانه ليس غيره وليس مخلوقًا، وأطال في الرَّدِّ على المُخالفين». كذا في «فتح الباري»، باب: قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣][١].

فدلَّ هذا الكلام أنَّ الكلام القديم في نظر الإمام أحمد بن حنبل وابن حزم هو المعنى القائم بالله سبحانه، بمعنى الكلام النَّفسي في علم الله تعالى، وقد صحَّ عن أحمد بن حنبل قوله في المناظرة: القرآن مِن علم الله، وعِلم الله غير مخلوق[٢].

والقرآن باعتبار الوجود العلمي شاملٌ للفظ والمعنى جميعًا؛ لأنَّ كليهما في علم الله ﷻ، وهو معنًى قديم قائم بذات الله تعالى، يُلفظ ويُسمع بالنَّظم الدَّالِّ عليه، ويُحفظ بالنَّظم المُخيَّل، ويُكتب بنقوش وأشكال موضوعة للحروف الدَّالَّة عليه، ومع ذلك ليس حالًّا في المصاحف، ولا في القلوب والألسنة والآذان، كما تقدَّم عن الإمام أبي حنيفة النعمان، عليه الرَّحمة والرِّضوان.

واعتُرض على هذا: بأنَّ ما قاله ابن حزم مُخالف لِما نقل عبد الله بن أحمد عن أبيه في كتاب «السُّنَّة» قال: «سألتُ أبي عن قوم يقولون: لمَّا كلَّم الله موسى ﵇ لم يتكلَّم بصوت، فقال لي أبي: بل تكلَّم بصوت»[٣].

والجواب عنه: إن صحَّ هذا؛ إنَّ مُراده أنَّ موسى ﵇ سمع كلام الله بصوت دالٍّ على كلامه، كما ذكره الماتريدي في كتاب «التأويلات»[٤]، فالحرف والصَّوت إنَّما كان في سماعه ﵇، لا في كلامه تعالى.

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٤، وكذلك في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم: ٣/ ٤.

(٢) انظر: «الجامعة لعلوم الإمام أحمد»: ٣/ ٣٩٩.

(٣) «السنة لعبد الله بن أحمد»: ٢/ ٢٨٠.

(٤) انظر: «تأويلات القرآن»: ٤/ ١٦٤.

ثمَّ قال ابن حزم ما حاصله: «إنَّ قولنا القرآن، وقولنا: كلام الله، لفظ مشترك يُطلق على خمسة أشياء:

(١) الصَّوت المسموع الملفوظ به، أي: العبارات الدَّالَّة على كلام الله المسموعة لنا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢].

(٢) والمعنى المفهوم من ذلك الصَّوت فإنَّه قرآن، وكلام الله حقيقة، فإنَّا إذا فسَّرْنا الزَّكاة والصَّوم والحجَّ، قلنا في كلٍّ هذا: هذا كلام الله، وهو القرآن.

(٣) والمصحف المرسوم، أي: النُّقوش الكتابيَّة الدَّالَّيَّة عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣]، وفي الحديث: «**لا تُسافروا بالقرآنِ إلى أرض العدوِّ**».

(٤) والمستقِرُّ المحفوظ في الصُّدور من الألفاظ المُخيَّلة وهي القرآن، وهو كلام الله حقيقة لا مَجازًا، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقد أمر النَّبيُّ ﷺ بتعاهُد القرآن، وقال: «**إنَّه أشدُّ تفصِّيًا من صدور الرِّجال من النَّعَم مِن عُقُلِها**».

(٥) هو المعنى القديم القائم بذات الله تعالى، وهو عِلمه الَّذي سلف بما يأمر وينهى، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩]، فإنَّما عنى به سابق عِلمه الَّذي سلف بما يُنفذه ويقضيه.

فهذه خمسة معانٍ للقرآن يُطلق على كلٍّ معنًى منها بأنَّه قرآن، وكلام الله ﷻ حقيقة لا مَجازًا، بنصِّ الكتاب والسُّنَّة.

الأربعة الأُوَل منها حادثة مخلوقة، والخامس منها قديم غير مخلوق؛ فإنَّ الصَّوت واللسان حادث كما هو ظاهر؛ لأنَّه هواء مندفع من الحلق والصَّدر والحنك واللسان والأسنان والشَّفتين، وكلُّ ذلك مخلوق وحادث بلا شكٍّ.

وأمَّا المصحف فإنَّما هو ورق من جلود الحيوان ومن مِداد مُؤلَّف من صمغ وماء، وكلُّ ذلك مخلوق، وكذلك حركة اليد في خطِّه وحركة اللسان في قراءته، واستقرار ذلك في النُّفوس؛ هذه كلُّها أعراض مخلوقة، وأمَّا عِلم الله تعالى فلم يزل، وهو كلام الله تعالى، وهو القرآن، وهو غير مخلوق.

ولمَّا كان اسم القرآن يقع على خمسة أشياء وقوعًا مستويًا صحيحًا، منها أربعة مخلوقة وواحد غير مخلوق، وهو المعنى الخامس، فإنَّ الألسنة وصدور أهل العلم والمصاحف مخلوقة مع ما فيها، وأمَّا القديم فهو ما في عِلمه ﷻ وما قام به دون ما في الصُّدور والألواح والألسنة، وهذا ظاهر جدًّا؛ فإنَّ عِلم الله غير مخلوق، وكلام الله غير مخلوق، والقرآن غير مخلوق».

انتهى المقصود من كلام ابن حزم ملخَّصًا ومختصرًا من كتابه كتاب «الفصل في المِلل والأهواء والنِّحل»[1].

وخلاصة الكلام:

أنَّ القرآن له إطلاقات عديدة كما علمت، فباعتبار إطلاقه على صفة قائمة بذاته تعالى قديم غير مخلوق، سواء اعتُبرت تلك الصِّفة معنًى قائمًا به تعالى، وهو مبدأ الكلام اللفظي، أو اعتُبرت صورة علميَّة في عِلم الله القديم.

---

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم: ٣/ ٤ ـ ٧.

فإلى الأوَّل جنح الجمهور. وإلى الثَّاني ذهب أحمد بن حنبل وابن حزم، وباعتبار بقيَّة الإطلاقات مُحدَث كائن بعد أن لم يكن.

قال الإمام أبو عبد الله البخاري في «خلق الأفعال»: «أمَّا ما احتجَّ به الفريقان بمذهب أحمد ويدَّعيه كلٌّ لنفسه فليس بثابت كثير من أخبارهم، وربَّما لم يفهموا دقَّة مذهبه.

بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أنَّ كلام الله غير مخلوق، وما سواه مخلوق، وأنَّهم كرهوا البحث والتَّنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنَّبوا الكلام والخوض والتَّنازُع إلَّا فيما جاء فيه العلم، وبيَّنه رسول الله ﷺ».

انتهى كلامه، كذا في «فتح الباري»، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [الفاتحة: ٢٢] إلى آخره[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٩٣، وفي «خلق أفعال العباد»: صـ٦٢٧.

ذِكْر ما احتجَّ به الحنابلة
لإثبات الحرف والصَّوت في الكلام القديم مع الجواب عنه

قال الحافظ العسقلاني: «اختلف أهلُ الكلام في أنَّ كلام الله هل هو بحرف وصوت أو لا؟

فقالت المُعتزلة: لا يكون الكلام إلَّا بحرف وصوت، والكلام منسوب إلى الله قائم بالشَّجرة.

وقالت الأشاعرة: كلام الله ليس بحرف ولا صوت، وأثبتت الكلام النَّفسيَّ، وحقيقته معنًى قائم بالنَّفس، وإن اختلفت عنه العبارة، كالعربية والعجمية، واختلافها لا يدلُّ على اختلاف المُعبَّر عنه، والكلام النَّفسي هو ذلك المُعبَّر عنه.

وأثبتت الحنابلة أنَّ الله مُتكلِّم بحرف وصوت، أمَّا الحروف فللتَّصريح بها في ظاهر القرآن، وأمَّا الصَّوت فمَنْ منع قال: إنَّ الصَّوت هو الهواء المنقطع المسموع من الحنجرة، وأجاب مَنْ أثبته بأنَّ الصوت الموصوف بذلك هو المعهود من الآدميين السَّمع والبصر، وصفات الرَّبِّ بخلاف ذلك، فلا يلزم المحذور المذكور مع اعتقاد التَّنزيه وعدم التَّشبيه، وأنَّه يجوز أن يكون من غير الحنجرة، فلا يلزم التَّشبيه.

وقد قال عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب «السُّنَّة»[1]: سألت أبي عن قومٍ يقولون: لمَّا كلَّم الله موسى لم يتكلَّم بصوت، فقال لي أبي: بل تكلَّم بصوت». كذا في «فتح الباري»[2].

---

(١) «السنة لعبد الله بن أحمد»: ٢/ ٢٨٠.

(٢) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٦٠.

وقال السفاريني: «مذاهب أئمَّة الحديث في ذلك: أنَّ الحقَّ - جلَّ شأنه - يتكلَّم بحرف وصوت، لا يُشبهان صوتَ مخلوقٍ ولا حرفه بوجهٍ البتَّة، مُنزِّهين الله تعالى عمَّا لا يليق بجلاله من شُبهات الحدوث وسمات النَّقص، كما قالوا في سائر الصِّفات، مع اعتقادهم الجازم الَّذي لا يعترِيه شكٌّ، ولا وهمٌ ولا خَيالٌ، نفْيَ التَّشبيه والتَّمثيل، والتَّحريف والتَّعطيل، كما عليه سلف الأمَّة وفُحول الأئمَّة، فهو حقُّ اليقين بلا محال، وهل بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال؟

وقال: البيان مذهب الحنابلة كسائر السَّلف: إنَّ الله يتكلَّم بحرف وصوت». كذا في «شرح العقيدة السفارينية»[1].

فهذا مذهب الحنابلة، واحتجُّوا لإثبات الحرف والصَّوت في كلامه القديم بوجوه.

فلنذكرها مع ما أجاب عنها سادات المُتكلِّمين والأولياء والعارفين، وقد بسط الكلام على ذلك الإمام أبو بكر الباقلاني في كتابه «الإنصاف»، فلنذكر خلاصة مع زيادات اقتبسناها من كلام العلماء الرَّبَّانيين الرَّاسخين في العلم.

الوجه الأوَّل:

من الوجوه الَّتي احتجُّوا بها على أنَّ الكلام القديم بالصَّوت والحرف: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، قالوا: والَّذي يُسمع إنَّما هو صوت وحرف، وقد نسبه إليه، فدلَّ ذلك على أنَّه مُتكلِّم بصوت وحرف؛ لأنَّ الصِّفة الأزليَّة لا يُمكن سماعها.

الجواب عنه:

أنَّ هذه الآية حجَّة عليكم، وذلك أنَّ كلَّ عاقل يقول: إنَّ المُشرك لا يسمع كلام الله بلا واسطة، وهي قراءة القارئ، فلا بُدَّ من وجود القراءة الَّتي هي حروف وأصوات.

فحينئذ يحصل لهذا المشرك السَّماع لكلامه، ولا يَخفى أنَّ المسموع المُدرَك في هذا الوقت إنَّما هو الصَّوت، فإذا سُمِّي كلام الله مسموعًا، فالمعنى به كونه مفهومًا معنويًّا عن

---

(١) «الوامع الأنوار البهية»: ١/ ١٤٣.

أصوات مُدرَكة مسموعة.

والشَّاهد لذلك من القضايا الشَّرعية إجماع الأمَّة على أنَّ الرَّبَّ تعالى خصَّص موسى ﷺ وغيره من المُصطفين من الإنس والملائكة بأن أسمعهم كلامه العزيز من غير واسطة، فلو كان السَّامع لقراءة القارئ مُدركًا لنفس كلام الله ما كان موسى ﷺ مخصَّصًا بالتَّكليم».

كذا في كتاب «الإنصاف»(١)، وكتاب «الإرشاد»(٢).

الجواب الثَّاني:

أنَّ المُراد بهذه الآية ما هو سماع الحروف والأصوات، وإنَّما المُراد بهذه الآية: حتَّى يتدبَّر كلام الله ويفهم ما فيه. لعلَّه أن يرجع عن شركه ويهتدي.

الجواب الثالث:

هو أن يُقال لهم: إذا كان الكلام القديم أصواتًا وحروفًا.

والكلام المخلوق الَّذي من الشِّعر والخُطب أصواتًا وحروفًا، فقد صار الكلام القديم كالكلام المخلوق. وهذا القول يُوجب أن يكون كلام قديم أو محدَث سواء؛ لأنَّ الحروف والأصوات في الكلامين سواء.

نُثبت أنَّ الحرف والصَّوت أداةٌ يُقرَأ بها الكلام القديم، لا أنَّ الحرف والصَّوت نفس الكلام القديم.

والجواب الرَّابع:

هو أن يُقال لهم: خبِّرونا عن قولكم: إنَّ الله متكلِّم بأصوات وحروف، أهي هذه

---

(١) «الإنصاف»: صـ١١٣.

(٢) «الإرشاد»: صـ١٢٠.

الحروف والأصوات الجارية الدَّائرة في سائر كلام الخلق أو غيرها؟ فإن قالوا: هي هذه؛ فقد جعلوا جميع كلام الخلق قديمًا كلَّه.

وإن قالوا: بل هي غير هذه الحروف والأصوات الجارية في كلام الخلق، قلنا: فإذن ليس عندنا كلام الله تعالى بل هو غائب عنَّا.

وكذلك يجب أن لا يكون في المصحف قرآن؛ لأنَّ الحروف فيه هي الحروف المعهودة الجارية في خطوط الخلق، وكِلا هذين القولين باطلٌ. فثبت أنَّ الحروف والأصوات (أدوات) يُقرأ بها الكلام القديم، ويُكتب بها الكلام القديم، لا أنَّها نفس الكلام القديم.

وأنَّ الكلام القديم يُفهم بالحروف المَنظومة على اختلاف نظمها بين أرباب تلك الخطوط والأشكال، فكذلك صحَّ أنَّ القراءة هي حروف وأصوات يُسمع بها كلام الله القديم على حسب اللغات بين أربابها، لا أنَّها نفس كلامه القديم.

وهذا كلُّه من كتاب «الإنصاف» للإمام الباقلاني[١].

والوجه الثَّاني:

من الوجوه الَّتي احتجَّت بها الحنابلة على إثبات قِدم الحروف، وأنَّ كلامه القديم يتَّصف بالحروف ما رُوي عن النَّبيِّ ﷺ: «**أُنزِل القرآنُ على سبعة أحرُف**»[٢].

والجواب:

أنَّ المراد به اختلاف القراءات، فإنَّ الاختلاف إنَّما يجري في صفة القراءة لا في الكلام القديم، والرَّسول ﷺ أخبر أنَّ القرآن يُقرأ على سبع لغات، فالقراءات سبع، والمقروء واحد، وهو كلام الله القديم الَّذي لا يُشبه كلام الخلق، ولا يختلف في حالٍ من الأحوال، وإن

---

(١) «الإنصاف»: صـ١١٣ ـ ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف: ٤٩٩٢، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه: ٨١٨.

اختلفت القراءات، فافهم التَّحقيق ترشد إن شاء الله تعالى. كذا في «الإنصاف»[١].

والوجه الثَّالث:

ما رُوي عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ قرأ القرآنَ فلَهُ بكلِّ حرف عشرُ حسنات»[٢].

والجواب:

أنَّ الحرف راجعٌ إلى القراءة والتِّلاوة، لا إلى كلام الله القديم، فإنَّ الأجر إنَّما يقع على الطَّاعة الَّتي هي القراءة لا على القديم الَّذي هو كلام الله تعالى، فالحرف في الحديث عائدٌ على القراءة لا إلى المقروء. كذا في «الإنصاف»[٣].

فالحرف في قراءة القارئ، والصَّوت فِعل القارئ، فلا وجه لاحتجاجه. كذا في «السيف الصقيل»[٤].

والوجه الرَّابع:

ما رُوي في الحديث: «إذا كان يوم القيامة نادى الله بصوت يسمعه مَنْ بعد كما يسمعه مَنْ قرب»[٥]، فقد أضاف الرَّسول ﷺ الصَّوت إلى الله تعالى.

---

(١) «الإنصاف»: صـ١٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب: فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمَن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر: ٢٩١٠، ولفظه: «مَنْ قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها».

(٣) «الإنصاف»: صـ١٢٢.

(٤) «السيف الصقيل»: صـ٦٠.

(٥) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة التَّمريض في كتاب: التَّوحيد، باب: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وأحمد: ١٦٠٤٢. وقال شيخ الإسلام الإمام زاهد الكوثري في حاشية «الإنصاف»: «يريد به حديث جابر ﷺ، وفي سنده عبد الله بن محمد بن عقيل، وهو ضعيف. وقد انفرد عنه القاسم بن عبد الواحد، وهو ممَّن لا يُحتجُّ بهم عند بعضهم، ولذا علَّقه البخاري بقوله: (ويُذكر) على أن كون الإسناد مجازيًا متعيِّن بحديث الدارقطني: «يبعث الله يوم القيامة مناديًا بصوت يسمعه أوَّلهم وآخرهم»». انتهى كلام الكوثري.

=

والجواب عنه:

أنَّ هذا حديث جابر ذكره البخاري تعليقًا بصيغة: ويُذكر، أي: بصيغة التَّمريض إشارة إلى أنَّه ضعيف، ليس من شرطه كما هو عادته في الأحاديث المُعلَّقة على ما قاله ابن حجر، ومداره على عبد الله بن محمد بن عقيل، وهو ضعيف.

قال الإمام البيهقي: «هذا حديث تفرَّد به القاسم بن عبد الواحد عن ابن عقيل، والقاسم بن عبد الواحد بن أيمن المكي؛ لم يحتجَّ بهما الشَّيخان أبو عبد الله البخاري وأبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، ولم يُخرجا هذا الحديث في الصَّحيح بإسناده، وإنَّما أشار البخاري إليه في ترجمة الباب، واختلف الحفَّاظ في الاحتجاج بروايات ابن عقيل لسوء حفظه.

ولم يثبت صفة الصَّوت في كلام الله ﷻ أو في حديث صحيح عن النَّبيِّ ﷺ غير حديثه، وليس بنا ضرورة إلى إثباته. وقد يجوز أن يكون الصَّوت فيه إن كان ثابتًا راجعًا إلى غيره، كما رويناه عن عبد الله بن مسعود موقوفًا ومرفوعًا: «**إذا تكلَّم الله بالوحْي، سمع أهلُ السَّماء صلصلة كجرِّ السِّلسلة على الصَّفا**»، وفي حديث أبي هريرة ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ: «**إذا قضى اللهُ الأمرَ في السَّماء ضربتِ الملائكةُ بأجنحتها خُضعانًا لقوله، كأنَّه سلسلةٌ على صفوان**».

ففي هذين الحديثين دلالة على أنَّهم يسمعون عند الوحي صوتًا، لكن للسَّماء ولأجنحة الملائكة، تعالى الله عن شبه المخلوقين علوًّا كبيرًا.

وأمَّا الحديث الَّذي ذكره البخاري عن عمر بن حفص عن أبيه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقولُ الله: يا آدمُ، فيقول: لبَّيك وسعْديك،**

= قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني في كتاب «الرؤية»: ٤٣، وفي إسناده أبان بن أبي عياش، متروك الحديث، كما قال أحمد، وقال شعيب بن حرب: سمعت شعبة يقول: لأن أشرب بول حمار حتى أروى أحبُّ إليَّ من أن أقول: حدَّثنا أبان بن أبي عياش. وللكوثري كلام طويل في «السيف الصقيل»: صـ ٥٩.

فيُنادي بصوت أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ يأمرك أن تُخرج من ذُرِّيَّتك بعثًا إلى النَّار». فهذا لفظ تفرَّد به حفص بن غياث، وخالفه وكيع وجرير وغيرهما من أصحاب الأعمش، فلم يذكروا[1] فيه لفظ الصَّوت. فقد سُئل أحمد بن حنبل عن حفص، فقال: كان يُخلط في حديثه، ثمَّ إن كان حفِظه ففيه ما دلَّ على أنَّ هذا القول لآدم يكون على لسان ملَكٍ يُناديه بصوت: «إنَّ الله تعالى يأمرك» فيكون قوله: «فيُنادي بصوت»، يعني ـ والله أعلم ـ: يُناديه ملَكٌ بصوت، وهذا ظاهر في الخبر، وبالله التوفيق». كذا في كتاب «الأسماء والصِّفات» للإمام البيهقي[2].

فتحصل من كلامه جوابان:

الأوَّل: أنَّ هذا حديث ضعيف. **والثَّاني**: أن الإسناد فيه مجازيٌّ.

وقد أخرج الدارقطني عن أبي موسى: **«يَبعث اللهُ يوم القيامة مُناديًا بصوتٍ يسمعه أوَّلهم وآخرُهم»** كما في «حادي الأرواح»[3] مع «إعلام الموقِّعين»، فهذا يُعيِّن أنَّ الإسناد مجازيٌّ على تقدير ثبوت الحديثين.

قال الإمام أبو بكر الباقلاني: «أنَّ هذا الحديث قد رُوي فيه ما يدلُّ على أنَّ الصَّوت من غير الله بأمره؛ لأنَّه رُوي: **«إذا كان يومُ القيامة جمعَ اللهُ الخلائقَ في صعيدٍ واحدٍ، ينفذهم البصَر ويسمعهم الدَّاعي بأمر مناديًا فيُنادي»** فصحَّ أنَّ النِّداء من غيره تعالى، لكن لمَا كان بأمره أُضيف النِّداء إليه، كما يُقال: نادى الخليفةُ في بغداد بكذا أو كذا، أو يُقال: أمر الخليفة مُناديًا فنادى بأمره في بغداد بكذا وكذا، ولا فرق بين المَوضعين، فإنَّ كلَّ عاقلٍ يعلم أنَّ الخليفة لم يُباشر النِّداء بنفسه، لكن لمَّا كان بأمره جاز أن يُضيفه إلى نفسه، وأن يُضاف إليه وإن لم يكن هو المُنادي بنفسه.

---

(١) قال الحافظ: «وأشار في موضع آخر أنَّ الراوي أراد: فينادي نداء فعبَّر عنه بقوله: بصوت آخر». «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٨. (المؤلف).

(٢) «الأسماء والصفات»: صـ٢٦٣.

(٣) «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»: صـ٣١٠.

ويُصحِّح جميع ذلك القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٢]، فأضاف النِّداء إلى المُنادي، فصحَّ أنَّ الصَّوت صفة للمُنادِي، لا صفة الآمر بالنِّداء، وقال تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] والطَّامس جبريل وميكائيل، طمسَا أعيُن قوم لوط، لكن لمَّا كان بأمره أضافه إلى نفسه، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣] على قراءة مَنْ قرأ بالنُّون المفتوحة، والنَّافخ إسرافيل.

وكذلك يُقال: رجم وجلد رسول الله ﷺ، وإنَّما الرَّاجم والجالد غيره، لكن لمَّا كان بأمره حسن أن يُضاف إليه، فافهم الحقَّ لتبطل به الباطل»، كذا في «الإنصاف»[١].

والوجه الخامس:

ما رُوي: «إنَّ الله تعالى إذا تكلَّم بالوحي»[٢]، وفي رواية: «إذا قضى اللهُ الأمر في السَّماء جاء له صوتٌ كجرِّ السِّلسلة على الصَّفا»، وفي رواية: «ضربتِ الملائكةُ بأجنحتِها خضعانًا لقولِه كأنَّه سلسلةٌ على صفوان»[٣].

والجواب:

أنَّ هذا الحديث حجَّة عليكم؛ لأنَّ هذا الصَّوت خلافُ ذلك الصَّوت الَّذي في الخبر الأوَّل؛ لأنَّ ذلك قال فيه: «يَسمعه مَنْ بعد كما يَسمعه مَنْ قرب»، وهذا الصَّوت إنَّما يسمعه بعض الملائكة فيُصبح أنَّ هذا الصَّوت خلاف ذلك الصَّوت، ولو كان الصَّوت صفة قديمة لَما اختلف؛ لأنَّ القديم لا يجوز عليه الاختلاف ولا التَّغيُّر، فلمَّا اختلف وتغيَّر دلَّ على أنَّ ذلك صفة الخلق لا صفة الحقِّ.

---

(١) «الإنصاف»: صـ١٢٤.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القرآن: ٤٧٣٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: باب قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨]: ٤٧٠١.

ويُؤيِّد ذلك ما روى النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلَّم الله بالوحي أخذتِ السَّماوات منه رجفةٌ شديدة من خوف الله تعالى، فإذا سَمع بذلك أهلُ السَّماوات صُعقوا وخرُّوا سُجَّدًا، وأوَّل مَنْ يرفع رأسَه جبريل ﵇، فتكلَّم الله من وحيه بما أراد، فينتهي به جبريلُ ﵇ على الملائكة كلَّما مرَّ بسماء، سأل أهلُها: ماذا قال ربُّنا؟ فيقول جبريل: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير».

فثبت أنَّ الصَّوت المشبَّه بالسِّلسلة صوتُ رجفة السَّماوات، لأنَّهم سمعوا صوت رجفة السَّماوات لا كلام الله تعالى، ولهذا سألوا جبريل ﵇: «ماذا قال ربُّنا؟».

فدلَّ على أنَّهم لم يسمعوا كلامه، وإنَّما سمعوا صوت رجفة السَّماوات الَّتي شُبِّهت بجرِّ السِّلسلة، لأنَّهم لو سمعوا كما سمع جبريل لفهموا كما فهم جبريل، وليس في شيء من هذه الرِّوايات إذا تكلَّم الله سمعوا من الله صلصلة، وإنَّما سمعوا من السَّماء إذا أحدث الله فيها، وجعل ذلك علامة لأهل السَّماوات يعلمون بها أنَّ الله تعالى تكلَّم بالأمر، وأنَّ المخصوص بسماع كلامه جبريل ﵇؛ ولهذا سألوه: «ماذا قال ربُّنا؟ قال: الحق» فيصفون الله تعالى بقول الحقِّ لا بالصَّلصلة والصَّوت، فصار هذا الحديث حجَّة عليهم، لا لهم». كذا في «الإنصاف»[1].

الرَّدُّ على مَنْ قال: إذا كان الكلام القديم غير حالٍّ في المصحف فما معنى تعظيمه؟

قال الإمام أبو بكر الباقلاني: «وإن قيل: إذا كان الكلام القديم لا يحلُّ في المصحف، فما معنى تعظيمه وتوقيره عن الأدناس والأنجاس وأن لا يُحمل إلَّا على الطَّهارة؟

(فالجواب): أنَّ هذا جهلٌ وتخبُّط؛ لأنَّ توقير المحلِّ والمكان لا يدلُّ على حلول القديم الَّذي لا يُتصوَّر عليه الحلول.

---

(١) «الإنصاف»: صـ١٢٦.

كما أنَّا نحترم المسجد ولا ندخله إلَّا على طهارة، ولا نُدخل إليه شيئًا نجسًا ولا قذرًا، ونُنزِّهه عن البصقة والنُّخامة، وإن كانت طاهرة؛ توقيرًا له وتعظيمًا.

لا أنَّه حلَّ فيه قديم، وكذلك الطَّواف بالبيت لا يدلُّ على أنَّه قديم أو حلَّ فيه القديم، وكذلك الخطوط الَّتي يُكتب بها القرآن والصُّحف الَّتي يُكتب فيها؛ نُوقِّره ونُعظِّمه ونُنزِّهه أن يُمسَّ إلَّا على طهارة، ولا يُوجب ذلك كونُ المِداد الأسود والصُّفرة والحمرة قديمة، أو حلَّ القديم فيها، وهذا أمرٌ واضح لمَن له عقل وتحصيل، إذا تأمَّله ونظر فيه. كذا في «الإنصاف»[1].

❁ ❁ ❁

(١) «الإنصاف»: صـ١٣٥.

فتاوى العلماء الأعلام في مسألة الكلام

قد تقدَّم أنَّ مذهب الحنابلة أنَّ القرآن اسمٌ للنَّظم والمعنى، وأنَّ الله يتكلَّم بحرف وصوت، ومن هذه الحروف والأصوات قديمة العين لازمة الذَّات ليست متعاقبة، بل لم تزل قائمة بذاته سبحانه مقترنة، إذ التَّعاقُب إنَّما يكون في حقِّ المخلوق لا في حقِّ الخالق. كذا في «فتح الباري»(١).

فنرى من النُّصح للمسلمين أن ننقل هنا أجوبة العلماء الأعلام في مسألة الكلام، فيكشف الغطاء عن وجه المَرام؛ وهم: الإمام العزُّ بن عبد السَّلام، والإمام جمال الدِّين أبو عمرو عثمان بن الحاجب المالكي، والإمام علم الدِّين السخاوي مؤلف «جمال القرَّاء»، حين استُفتوا في هذه المسألة.

صورة السُّؤال(٢)

ما يقول السَّادة الفقهاء ﵃ في كلام الله القديم القائم بذاته؟

هل يجوز أن يُقال: إنَّه عين صوت القارئ وحروفه المُقطَّعة، وعين الإشكال الَّتي يُصوِّرها الكاتبُ في المصحف؟

وهل يجوز أن يُقال: إنَّ كلام الله القديم القائم بذاته حروف وأصوات على المعنى الظَّاهر فيها، وأنَّه عين ما جعله الله معجزة لرسوله ﷺ؟

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٥.

(٢) نقلنا صورة السؤال هذه وأجوبة العلماء عنها مِن تكملة الرَّدِّ على «نونية ابن القيم»، للعلامة الكوثري: صـ: ٤٤. (المؤلف).

قلت: ونصُّ هذا السُّؤال والأجوبة ورد في «نجم المهتدي ورجم المعتدي»: ٢/ ٤٧١.

وما الَّذي يجب على مَنِ اعتقد جميع ذلك، وأذاعه وغرَّ به ضعفاء المسلمين؟

وهل يحِلُّ للعلماء المُعتبرين إذا علموا أنَّ ذلك قد شاع أن يسكتوا عن بيان الحقِّ في ذلك، وإظهاره والرَّدَّ على مَنْ أظهر ذلك واعتقده؟

أفتونا مأجورين...

صورة جواب الإمام عزِّ الدِّين بن عبد السَّلام

القرآن كلام الله، صفة من صفاته قديمٌ بقِدَمه، ليس بحروف ولا أصوات، ومَنْ زعم أنَّ الوصف القديم هو عين أصوات القارئين وكتابة الكاتبين؛ فقد ألْحَد في الدِّين، وخالف إجماع المسلمين بل إجماع العقلاء من غير أهل الدِّين.

ولا يحِلُّ للعلماء كتمانَ الحقِّ ولا تركُ البِدع سارية في المسلمين.

ويجب على وُلاة الأمر إعانةُ العلماء المُنزِّهين المُوحِّدين، وقمع المبتدِعة المُشبِّهين المُجسِّمين، ومَنْ زعم أنَّ المعجزة قديمةٌ؛ فقد جهل حقيقتها.

ولا يحِلُّ لوُلاة الأمر تمكين أمثال هؤلاء من إفساد عقائد المسلمين، ويجب عليهم أن يُلزموهم بتصحيح عقائدهم بمباحثة العلماء المُعتبرين، فإن لم يفعلوا أُلجِئوا إلى ذلك بالحبس والضَّرب والتَّعزير، والله أعلم.

كتبه: عبد العزيز بن عبد السَّلام

صورة جواب الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن الحاجب المالكي

مَنْ زعم أنَّ أصوات القارئ وحروفه المتقطِّعة والأشكال الَّتي يُصوِّرها الكاتب في المصحف هي نفس كلام الله تعالى القديم؛ فقد ارتكب بدعةً عظيمةً، وخالف الضَّرورة، وسقطت مكالمته في المناظرة فيه، ولا يستقيم أن يُقال: إنَّ كلام الله تعالى القديم القائم بذاته هو الَّذي جعله الله معجزة لرسوله؛ فإن ذلك يُعلَم بأدنى نظر.

وإذا شاع ذلك، أو سُئل عنه العلماء؛ وجب عليهم بيان الحقِّ في ذلك وإظهاره.

ويجب على مَنْ له الأمر وفَّقه الله؛ أخذ مَن يعتقد ذلك ويُغرُّ به ضعفاء المسلمين، وزجره وتأديبه وحبسُه عن مخالطة مَنْ يخاف منه إضلاله إلى أن تظهر توبتُه عن اعتقاد مثل هذه الخرافات الَّتي تأباها العقول السَّليمة، والله أعلم.

كتبه: عثمان بن أبي بكر الحاجب

صورة جواب الإمام علم الدِّين أبي الحسن علي السَّخاوي

كلام الله ﷻ قديم، صفة من صفاته، ليس بمخلوق، وأصوات القرَّاء وحروف المصاحف أمرٌ خارج عن ذلك؛ ولهذا يُقال: (صوت قبيح)، و(قراءة غير حسنة) و(خطٌّ قبيح غير جيِّد)، ولو كان ذلك كلام الله لم يجزْ ذمُّه على ما ذكر؛ لأنَّ أصوات القرَّاء به تختلف باختلاف مخارجها، والله تعالى مُنزَّه عن ذلك.

والقرآن عندنا مكتوبٌ في المصاحف، متلوٌّ في المحاريب، محفوظٌ في الصُّدور، غير حالٍّ في شيء من ذلك.

والمصحف عندنا مُعظَّم مُحترمٌ، لا يجوز للمُحدِث مسُّه. ومَنِ استخفَّ به أو ازدراه فهو كافرٌ مُباح الدَّم.

والصِّفة القديمة القائمة بذاته ﷻ ليست المعجزة؛ لأنَّ المعجزة ما تحدَّى بها الرَّسول ﷺ، وطالبَ بالإتيان بمثله، ومعلومٌ أنَّه لم يتحدَّهم بصفة الباري القديمة، ولا طالبهم بالإتيان بمثلها، ومَنِ اعتقد ذلك وصرَّح به أو دعا إليه؛ فهو ضالٌّ مبتدع، بل خارج عمَّا عليه العقلاء إلى تخليط المجانين، والواجب على علماء المسلمين إذا ظهرت هذه البدعة إخمادُها وتبيين الحقِّ، والله أعلم.

علي السَّخاوي[1]

(١) قال شيخ الإسلام الكوثري بعد أن نقل هذه الفتاوى في «حاشية السيف الصقيل» صـ٤٥: «انظر =

بيان الفرق بين القراءة والمقروء والتِّلاوة والمتلوّ

ذهب أهلُ الحقِّ إلى أنَّ القراءة غير المقروء، والتِّلاوة غير المتلوِّ، والكتابة غير المكتوب؛ لأنَّ المقروء كلام الله، وليست القراءة كلامه، بل هي صفة القارئ.

وكذلك الحفظ صفة الحافظ، والمحفوظ كلام الله، وكذلك الكتابة صفة الكاتب وصنعته، والمكتوب كلام الله، كما أنَّ الذِّكر صفة الذَّاكر والمذكور هو الله تعالى، وكذلك العبادة من الصَّلاة والصَّوم والحج صفة للعابد، وهي في أنفسها مختلفة الصِّفات متغايرة، والمعبود بها واحد، ليس بمختلف، وفي هذا كفاية لمَن سلم له التَّصوُّر والفهم، وكذلك القراءات مختلفة متنوِّعة، والمقروء واحد لا يجوز عليه الاختلاف والتَّنوُّع.

راجع كتاب «أصول الدين» لعبد القاهر البغدادي(١)، ومن كتاب «الإنصاف» للإمام الباقلاني(٢).

قال الباقلاني: «وزعمت المُشبِّهة أنَّ القراءة هي المقروء، والتِّلاوة هي المتلوُّ، وزعموا أنَّ القديم يحلُّ في المُحدَث، ويختلط به، ولا يخفى أنَّ هذا القول بدعة عظيمة». كذا في «الإنصاف»(٣).

قال إمام الحرمين: «القراءة عند أهل الحقِّ: أصوات القرَّاء ونغماتهم، وهي أكسابهم الَّتي يُؤمرون بها في حال القراءة إيجابًا في بعض العبادات، وندبًا في كثير من الأوقات.

= يا رعاك الله! كيف كان العلماء يتكاتفون في قمع البِدع وإحقاق الحقِّ على اختلاف مذاهبهم في تلك العصور الزَّاهرة بخلاف غالب أهل العلم في زماننا هذا، فإنَّ لهم منازعَ وراء اختلاف المذاهب، لا يهمُّهم ذيوع الباطل وقد خانوا دِينهم الَّذي ائتمنهم اللهُ عليه، وبه يعيشون، ويوم الخائنين يوم رهيب»، انتهى. قلت: حسبنا الله ونعم الوكيل، فكيف لو أدرك زماننا؟

(١) «أصول الدين»: صـ١٢٧.

(٢) «الإنصاف»: صـ٧٦.

(٣) «الإنصاف»: صـ١٠٦.

ويُزجرون عنها إذا أجنبوا، ويُثابون عليها ويُعاقبون على تركها، وهذا ممَّا أجمع عليه المسلمون، ونطقت به الآثار، ودلَّ عليه المستفيض من الأخبار.

ولا يتعلَّق الثَّواب والعقاب إلَّا بما هو من اكتساب العباد، ويستحيل ارتباط التَّكليف والتَّرغيب والتَّعنيف بصفة أزليَّة خارجة عن المُمكنات وقيل: المَقدورات.

والقراءة هي الَّتي تُستطاب من قارئ، وتُستبشع من آخر، وهي الملحوظة والقويمة المستقيمة، وتتنزَّه عن كل ما ذكرناه الصِّفةُ القديمة.

وأمَّا المقروء بالقراءة فهو المفهوم منها المعلوم، وهو: الكلام القديم الَّذي تدلُّ عليه العبارات، وليس منها.

ثمَّ المقروء لا يحلُّ القارئ ولا يقوم به، وسبيل القراءة والمقروء كسبيل الذِّكر والمذكور. فالذِّكر يرجع إلى أقوال الذَّاكرين، والرَّبُّ المذكور المُسبَّح المُمجَّد، غيرُ الذِّكر والتَّسبيح والتَّمجيد.

والعرب وضعت أنواع الدَّلالات على المدلولات بالعبارات، فسَمَّتْ الإنباء عن الشِّعر: إنشادًا، والإنباء عن الغائبات الَّتي ليست من قبيل الكلام: ذِكرًا، أو سمَّت الدَّلالة على كلام الله تعالى بالأصوات: قراءة». كذا في كتاب «الإرشاد»[1].

مسألة لفظي بالقرآن مخلوق

اعلم أنَّ هذه المسألة هي المشهورة بمسألة اللفظ، ويُقال لأصحابها: اللفظيَّة.

واشتدَّ إنكار الإمام أحمد ومَن تبعه على مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، ويُقال: إنَّ أوَّل مَن قاله: الحسين بن علي الكرابيسي، أحد أصحاب الإمام الشَّافعي.

فلمَّا بلغ ذلك أحمد بدَّعه وهجره، ثمَّ قال بذلك داود بن علي الأصبهاني رأس الظَّاهرية، وهو يومئذ بنيسابور، فأنكر عليه إسحاق بن راهويه، وبلغ ذلك أحمد، فلمَّا

---

(١) «الإرشاد»: صـ١١٧.

قدم بغداد لم يأذن له في الدُّخول عليه.

وجمع ابن أبي حاتم أسماء مَن أطلق على اللفظيَّة أنَّهم جهميَّة، فبلغوا عددًا كثيرًا من الأئمَّة، وأفرد لذلك بابًا في كتابه «الرَّدُّ على الجهميَّة»، والَّذي يتحصَّل من كلام المحقِّقين:

أنَّهم أرادوا حسم المادة صونًا للقرآن أن يُوصف بكونه مخلوقًا، وإذا حُقِّق الأمر لم يفصح أحدٌ منهم بأنَّ حركة لسانه إذا قرأ قديمة، وقال البيهقي في كتاب «الأسماء والصِّفات»[1]: مذهب السَّلف والخلف من أهل الحديث والسُّنَّة: أنَّ القرآن كلام الله، وهو صفة من صفات ذاته ليست بائنة منه.

وأمَّا التِّلاوة فهم على طريقين: منهم مَن فرَّق بين التِّلاوة والمتلوِّ، ومنهم مَن أحبَّ ترك القول فيه.

وأمَّا ما نُقل عن أحمد بن حنبل أنَّه سوَّى بينهما؛ فإنَّما أراد حسم المادة لئلَّا يتدرع أحدٌ إلى القول بخلق القرآن.

ثمَّ أسند من طريقين إلى أحمد أنَّه أنكر على مَنْ نقل عنه أنَّه قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، وأنكر على مَنْ قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وقال: القرآن كيف تصرَّف غير مخلوق؟ فأخذ بظاهر هذا الثَّاني مَن لم يفهم مُراده، وهو مبيَّن في الأوَّل.

(قال عبد الله بن محمد بن ناجية: سمعتُ عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: سمعتُ أبي يقول: مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق ـ يُريد به القرآن ـ فهو كافر، قال البيهقي: هذا تقييدٌ حفظه عنه ابنُه عبد الله، وهو قوله: يُريد به القرآن، فقد غفل عنه غيره)[2]،

وظنَّ بعضُهم أنَّ البخاري خالف أحمد، وليس كذلك، بل مَن تدبَّر كلامه لم يجد فيه خلافًا معنويًّا، لكنَّ العالِم من شأنه إذا ابتُلي في ردِّ بِدعة يكون أكثر كلامه في ردِّها دون

---

(١) «الأسماء والصفات»: صـ٢٥١.

(٢) وضع المؤلف هذه الرواية بين قوسين، فإنها ليست في «فتح الباري» الَّذي هو في صدد النقل منه، إنَّما هي في «الأسماء والصفات»: صـ٢٥٧.

ما يقابلها، فلمَّا ابتُلي أحمد بمَن يقول: القرآن مخلوق، كان أكثر كلامه في الرَّدِّ عليهم، حتى بالغ فأنكر على مَن يقف ولا يقول: مخلوق ولا غير مخلوق، وعلى مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ لئلَّا يتدرَّع بذلك مَن يقول: القرآن بلفظي مخلوق، مع أنَّ الفرق بينهما لا يخفى عليه، لكنَّه قد يخفى على البعض.

وأمَّا البخاري فابتُلي بمَن يقول: أصوات العباد غير مخلوقة، حتى بالغ بعضهم فقال: والمِداد الورق بعد الكتابة، فكان أكثر كلامه في الرَّدِّ عليهم.

وبالغ في الاستدلال بأنَّ أفعال العباد مخلوقة بالآيات والأحاديث.

وغرضه: الرَّدُّ على مَن لم يُفرِّق بين التِّلاوة والمتلوِّ.

ولم يُنقل عن أحمد قط أنَّ فِعلَ العبد القديم ولا صوته، وإنَّما أنكر إطلاق اللفظ، وصرَّح البخاري بأنَّ أصوات العباد مخلوقة، وأنَّ أحمد لا يُخالف ذلك، ولكنَّهم لم يفهموا مُرادَه ومذهبه.

والمعروف عن أحمد وأهل العلم أنَّ كلام الله تعالى غير مخلوق، وما سواه مخلوق، لكنَّهم كرهوا التَّنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنَّبوا الخوض فيها والتَّنازُع، إلَّا ما بيَّنه الرَّسول ﷺ، فقد نصَّ أحمد في كتاب «الرَّدُّ على الجهمية» أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنَّه لم يزل يتكلَّم إذا شاء، وافترق أصحابه فرقتين:

منهم مَن قال: هو لازم لذاته، والحروف والأصوات مقترنة، لا متعاقبة، ويُسمع كلامه مَن شاء.

وأكثرهم قال: إنَّه مُتكلِّم بما شاء متى شاء، وأنَّه نادى موسى ﷺ حين كلَّمه، ولم يكن ناداه من قبل.

انتهى كلام الحافظ العسقلاني مختصرًا في باب[1] قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

---

(١) اعلم أنَّ هذا الباب أوَّل باب عقدَه البخاري للرَّدِّ على مَن لم يُفرِّق بين التلاوة والمتلوِّ، وأتبع هذا الباب بالتراجم المتعلِّقة بذلك، مثل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]، وباب ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ =

﴿أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] من كتاب التوحيد في «فتح الباري»(١).

الحاصل: أنَّ مقصود الإمام أحمد بن حنبل بالإنكار على مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، أنَّ اللفظ يُراد به أمران:

أحدهما: الملفوظ نفسه، وهو غير مقدور للعبد ولا فِعل له.

والثَّاني: التَّلفُّظ به والأداء، وهو فِعل العبد.

فإطلاق الخلق على اللفظ قد يُوهم المعنى الأوَّل، وهو خطأ، وإطلاق نفي الخلق قد يُوهم المعنى الثَّاني وهو خطأ، فمنع الإطلاقين.

فالإمام أحمد سدَّ الذَّريعة، حيث منع إطلاق لفظ المخلوق نفيًا وإثباتًا على اللفظ.

وأبو عبد الله البخاري ميَّز وفصَّل وأشبع الكلام في ذلك، وفرَّق بين ما قام بالرَّبِّ سبحانه وبين ما قام بالعبد، وأوقع المخلوق على تلفُّظ العباد وأصواتهم وحركاتهم وأكسابهم، ونفى اسم الخلق عن الملفوظ، وهو القرآن.

وقد شفى في هذه المسألة في كتاب «خلق أفعال العباد»(٢) وأتى بما يُزيل الشُّبهة ويُوضح الحقَّ. كذا في «الصَّواعق المرسلة»(٣).

۞ ۞ ۞

= ﴿أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [الملك: ١٣]، ثم بوَّب في آخر «الجامع الصحيح» بابًا مترجمًا، ذكر قراءة الفاجر المنافق، وأنَّ أصواتهم لا تُجاوز حناجرهم، فإنَّ قراءة الفاجر قائمة بالفاجر مخلوقة لله تعالى، وأتبعه بباب آخر ذكر فيه حديث: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان»، مراده بهذا الاستدلال على أنَّ الثقل في الميزان والخفَّة على اللسان متعلق بفِعل العبد وكسبه، وهو صوته وتلفُّظه لا يعود إلى ما قام بالرَّبِّ تعالى من صفاته وكلامه. كذا في «الصواعق المرسلة». (المؤلف).

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(٢) «خلق أفعال العباد»: صـ٧٨١.

(٣) «مختصر الصواعق المرسلة»: صـ١٣٥٠ ـ ١٣٥٣.

خاتمة الكلام وفذلكة المرام

أنَّ القرآن له إطلاقات:

١ ـ يُطلق على الصِّفة القائمة بالذَّات العَليَّة.

٢ ـ ويُطلق على ما يُقرأ بألسنتنا.

٣ ـ ويُطلق على ما هو مكتوبٌ في مصاحفنا.

٤ ـ ويُطلق على قراءة العبْد.

فمنهم مَن يقول: هذا كلُّه مخلوقٌ حادِثٌ. ومنهم مَن يقول: هذا كلُّه قديم غير مخلوق.

وأبان الحقَّ في ذلك الإمام أبو حنيفة، فقال: ما [قام][1] بالله غير مخلوق، وما [قام] بالخلق مخلوق. يُريد أنَّ كلام الله باعتبار قيامه بذات الله سبحانه صفةٌ له كبقيَّة الصِّفات في القِدم.

وأمَّا باعتبار قيامه بألسنة التَّالين، وأذهان الحافظين، وبأوراق المصاحف، من الأصوات، والصُّور الذِّهنية، والنُّقوش الكتابية، فهو مخلوق حامليها وقارئيها وحافظيها وكاتبيها.

إذ من المُحال أن يكون القديم حالًّا في الحادث، فلا بُدَّ من الاعتراف بخلق ما [قام] بالخلق.

وذلك لأنَّ أوَّل مَن أتى بخلق القرآن هو الجعد بن درهم في سنة نيف وعشرين، فافتُتن

---

(١) غير موجود في الأصل، وأثبته من «تأنيب الخطيب» ليستقيم به المعنى.

به ناسٌ، فشايعه مُشايعون، ونافره مُنافرون، وقالوا في معاكسته بقِدم الكلام اللفظي.

ولمَّا رأى أبو حنيفة ذلك تدارك الأمر، وأبان الحقَّ، فقال: ما [قام] بالله الحقِّ غير مخلوق، وما [قام] بالخلق مخلوق، أراد بذلك أنَّ كلام الله باعتبار قيامه بذات الحقِّ سبحانه صفة له قديمة غير مخلوق، مثل بقيَّة الصِّفات، وباعتبار قيامه بألسنة القرَّاء، وأذهان الحفَّاظ، والمصاحف، حادِث ومخلوق. فاستقرَّت آراء أهل العلم والفهم على ذلك بعده.

وتابعه مَن جاء بعده من أهل العلم والفهم وأهل النظر والفكر، والإمام أحمد تكلَّم بكلام مجمَل حيث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف[1]، فظنَّ كثيرٌ من أصحابه أنَّ كلَّ ما له تعلُّق بالقرآن فهو قديم.

بل مرادُه: أنَّ القرآن كلام الله على كلِّ حالٍ، سواء ظهر على ألسنتنا أو على مصاحفنا، لكنَّ القرآن من حيث إنَّه كلام الله قائمٌ بذاته، وصفةٌ من صفاته، وفي علمه قديم غير مخلوق، وما قام بألسنتنا وما كُتِب في مصاحفنا فهو من حيث قيامه بذات الحادث حادِث، إذ لا يُمكن قيام الأمر القديم بالحادث، فما قام بالقديم هو قديم، وما قام بالحادث فهو حادث.

وكيف وأنَّ الحروف والألفاظ باعتبار وجودها اللفظي متعاقبة لا يتصوَّر العاقل فيها القِدم، وإنَّما يتصوَّر القِدم في الحروف القديمة الغيبيَّة باعتبار وجودها العِلميّ والنَّفسي، وبذلك قال أحمد بن حنبل، وتابعه ابن حزم، وهو الموافق لتحقيق أهل النَّظر والبصر.

قال ابن عساكر: «قال ابن أبي زيد في الرَّدِّ على تشنيع علي بن أحمد البغدادي على

---

(١) قال شيخ الإسلام الكوثري: «ومِن مثل هذا اللفظ المُوهم ظنَّ كثير من أصحاب أحمد أنَّ كلَّ ما له تعلُّق بالقرآن قديم، وقد قال البخاري في «خلق الأفعال»: فأمَّا ما احتجَّ به الفريقان لمذهب أحمد ويدَّعيه كلٌّ لنفسه، فليس بثابت كثير من أخبارهم، وربَّما لم يفهموا دقَّة مذهبه، بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أنَّ كلام الله غير مخلوق، وما سواه مخلوق، وأنَّهم كرهوا البحث والتَّنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنَّبوا أهل الكلام، والخوض والتَّنازع إلَّا فيما جاء فيه العلم، وبيَّنه رسول الله ﷺ». «الأسماء والصفات»: ص٢٥٦.

الأشعري في مسألة اللفظ:

والقارئ إذا تلا كتاب الله لو جاز أن يُقال: إنَّ كلام هذا القارئ كلامُ الله على الحقيقة يفسد هذا؛ لأنَّ كلام القارئ محدَثٌ؛ لأنَّه يفنى كلامه ويزول، وكلام الله ليس بمُحدَث ولا يفنى، وهو صفة من صفاته، وصفته لا تكون صفة لغيره.

وهذا قول محمد بن إسماعيل البخاري، وداود الأصبهاني وغيرهما ممَّن تكلَّم في هذا، وكلام محمد بن سحنون إمام المغرب، وكلام سعيد بن محمد بن الحداد؛ وكان من المتكلِّمين من أهل السُّنَّة وممَّن يردُّ على الجهميَّة.

ثم ذكر حكاية أحمد بن حنبل مع أبي طالب[1] حين بلغه أنَّ أبا طالب قد حكى عنه أنَّه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فطلبه فلمَّا حضر وقعد بين يديه وهو يَرعد متغيِّر الوجه، قال له أبو عبد الله: حكيْتَ عني أنِّي قلتُ: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ قال: إنَّما حكيتُ عن نفسي، فقال له: لا تَحكِ هذا عنك ولا عنِّي، فما سمعتُ عالمًا يقول هذا، وقال له: القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف».

كذا في «تبيين كذب المُفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» لابن عساكر[2]، وهذه الحكاية قد أوردها الإمام البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات»[3].

فهذا أصل قول أحمد بن حنبل ومذهبه.

والحنابلة فهموا منه ما فهموا، أو نسبوه إلى الإمام أحمد بن حنبل، وهو مبرأ عنه، ومَن استقرأ كلام أحمد بن حنبل وجده أنَّه لم يزدْ على أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وأعلن بذلك جهارًا ردًّا على الجهميَّة، وتوقَّف عن القول: لفظي بالقرآن مخلوق، وأنكر على مَن

---

(١) في الأصل: «ابن أبي طالب»، والصحيح ما أثبته. «تبيين كذب المفتري»: صـ٧٠٠، و«تاريخ الإسلام»: ٥/ ١٠٢٥.

(٢) «تبيين كذب المفتري»: صـ٧٠٠.

(٣) «الأسماء والصفات»: صـ٧٠٠.

نسب إليه هذا القول؛ لئلَّا يكون ذريعة إلى القول بخلق القرآن.

والحنابلة زادوا على ما قال الإمام أحمد، ونسبوا إليه أيضًا ما لم يقله، فإنَّهم نسبوا إليه أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وهذا القدر حقٌّ.

ونسبوا إليه أيضًا أنَّ ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه هو عين كلام الله القديم، وقالوا: هذا قول أحمد بن حنبل، وقد أخطؤوا فيه، فإنَّه لم يقل ذلك؛ إذ قد تواتر عن الإمام أحمد أنَّه كان يقول: القرآن من علم الله، وعلم الله غير مخلوق، فالقرآن غير مخلوق، وهذا دليلٌ على أنَّه كان يُريد بالقرآن ما هو قائم بذاته سبحانه في علم القديم، لا ما هو قائم بألسنتنا الحادثة، ولا ما هو محفوظ في صدورنا، ولا ما هو مكتوب في مصاحفنا، وإنَّما مُراده بقوله: القرآن كلام الله حيث تصرف، أي: أنَّه قرآن وكلام الله وصفته في كلِّ حالٍ وفي كلِّ شأن، سواء ظهر في الأوراق أو ظهر على اللسان؛ فهو قديم باعتبار الوجود العلمي، لا باعتبار هذا الوجود اللفظي أو الكتابي.

فمذهب أحمد بن حنبل أنَّ القرآن باعتبار وجوده في علم الله بحروف غيبيَّة قدسيَّة غير متعاقبة قديم غير مخلوق، لا باعتبار وجوده على ألسنة القرَّاء.

ثم جاء الإمام الأشعري وفصَّل القول فيه، وقسَّم الكلام إلى اللفظي والنَّفسي، وسلك في تحقيق المسألة مسلك الإمام أبي حنيفة النعمان، فقال: إنَّ القرآن كلام الله قديم غير مخلوق، لكن له وجودات ومَراتب، فمِن حيث إنَّه معنًى نفسيٌّ قائم بالحقِّ سبحانه؛ قديم غير مخلوق.

ومن حيث إنَّه قائمٌ بالألسنة الكونيَّة، ومحفوظٌ في الصدور اللحميَّة، ومكتوبٌ في الأوراق الرقيقة؛ حادِثٌ ومخلوقٌ.

وأنَّ القرآن قرآنٌ في جميع هذه المَراتب، لا يجوز نفيه ولا إنكاره، فكلام الإمام أبي حنيفة في مسألة الكلام هو أوَّل كلام رفعَ الحجاب عن حقيقة هذه المسألة، وفرَّق بين ما قام بالحقِّ وبين ما قام بالخلق، ثم تابعه أهلُ الحقِّ.

والأشعري إنَّما جاء مفسِّرًا أو شارحًا لقول أبي حنيفة، حيث قال: إنَّ القرآن كلام الله غير مغيَّر، ولا مبدَّل، ولا مخلوق، ولا حادِث، ولكن المظاهر الَّتي ظهر فيها القرآن هي حادثة ومخلوقة.

وحاشا أحمد بن حنبل أن يقول: إنَّ هذه المظاهر غير مخلوقة وغير حادثة!

وحاشا وحاشا أن يقول: إنَّ المسموع من أصوات القرَّاء ونغماتهم هو عين كلام الله القديم القائم بذاته ﷻ!

وقال التَّاج السُّبكي: «سمعت الوالد الإمام يقول: ما تضمَّنته «عقيدة الطَّحاوي» هو ما يعتقده الأشعري، لا يخلف إلَّا في ثلاث مسائل... إلخ». كذا في «الإتحاف»[1]، وكذا في «الطَّبقات الكبرى»[2].

وكذلك السَّلف، فغاية ما جاء عنهم أنَّ الله يتكلَّم بحرف وصوت يليقان بشأنه، لا يُشبهان حروف العبد وأصواته، وأنَّه لا يتكلَّم بصوت وحرف كحرفنا وصوتنا.

وأنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يزيدوا على هذا القول، ولم يُروَ عنهم أنَّ تلك الحروف والأصوات القائمة بألسنتنا مع تواليها وتعاقُبها، كانت ثابتة في الأزل، قائمة بذات الباري ﷻ، وأنَّ ما يُسمع من أصوات القرَّاء هو نفس كلام الله تعالى القديم وعينه.

وبالجملة: القرآن كلام الله ﷻ قديمٌ غير مخلوقٍ، لكن لمَّا أنزله من جناب قدسه أنزله في لباس الحدوث وكسوة الإمكان.

فالحدوث يرجع على هذه الحُلَّة والكسوة، لا إلى المعنى القدسي الَّذي قام بربِّ الخليقة.

والقرآن معجزة باعتبار هذه الكسوة الحادثة (أي: النَّظم العربي) لا باعتبار أنَّه كلام

---

(١) «إتحاف السادة المتقين»: ٢/ ١٠.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٣/ ٣٧٧.

قدسي غيبي قائم بذاته ﷻ، فثبت أنَّ مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان في مسألة القرآن هو مذهب الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، والإمام الأشعري شارحٌ لقول الإمام أبي حنيفة وموافق له لفظًا ومعنًى، وهو مذهب السَّلف الصَّالحين ﷺ أجمعين وعلينا معهم يا أرحم الرَّاحمين.

قال العلَّامة الكوثري في حاشيته على «السَّيف الصَّقيل»: «والحامل لأهل الحقِّ على القول بالكلام النَّفسي هو: إجماع التَّابعين على القول **بأنَّ القرآن كلامُ الله غير مخلوق**؛ فخرَّجوا إجماعهم على هذا الوجه المعقول، وإلَّا لما صحَّ قولهم.

وتسفيه أحلام التَّابعين جميعًا لا يصدر إلَّا عن مُجازف، فالفرق بين ما هو قائم بالخلق والمعنى القائم بالله سبحانه هو المُخلِّص الوحيد ـ عن الإشكالات والمُحالات العقلية ـ في هذه المسألة؛ فاللفظي حديث والنَّفسي قديم، كما أشار إلى هذا وإلى ذاك إمام الأئمَّة أبو حنيفة، وتابعه أهلُ الحقِّ». اهـ[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) «السيف الصقيل»: صـ١٣٩.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذِكر أدِلَّة أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق

الدَّليل الأوَّل:

قال الإمام البيهقي في كتاب «الاعتقاد»: «القرآن كلام الله، وكلام الله صفة من صفات ذاته، وليس شيءٌ من صفات ذاته مخلوقًا، لا مُحدَثًا ولا حادثًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فلو كان القرآن مخلوقًا لكان مخلوقًا بكُنْ، ويَستحيل أن يكون قولُ الله لشيءٍ بقولٍ لأنَّه يُوجب قولًا ثانيًا وثالثًا، فيتسلسل، وهو فاسد».

كذا في «فتح الباري»، باب قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣][(١)]، وكتاب «الأسماء والصِّفات» للبيهقي[(٢)]، وكتاب «الاعتقاد» للبيهقي[(٣)].

والدَّليل الثَّاني:

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ [الروم: ٤]، قال الإمام: أثبت الأمر لله من قبل جميع الأشياء، فلو كان أمرُ الله مخلوقًا؛ لزم حصول الأمر قبل نفسه، وهو مُحالٌ».

كذا في «معالم أصول الدين»[(٤)]، وليراجع «فتح الباري»، باب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٤.

(٢) «الأسماء والصفات»: صـ٢٤٤.

(٣) «الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد»: صـ١٤١.

(٤) «معالم أصول الدين»: صـ٦٤.

خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦][١].

قال الإمام البيهقي: «هذا وإن كان نزوله على سببٍ خاصٍّ، فظاهره يدلُّ على أنَّ أمره قبل كلِّ شيء سواه، ويبقى بعد كلِّ شيء سواه، وما هذا صفته لا يكون إلَّا قديمًا».

كذا في كتاب «الأسماء والصِّفات»[٢].

والدَّليل الثَّالث:

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، قال الإمام: «ميَّز بين الخلق والأمر، فوجب أن يكون الأمرُ داخلًا في الخلق». كذا في «معالم أصول الدين»[٣].

أخرج ابن أبي حاتم في كتاب «الرَّدُّ على الجهميَّة»[٤] من طريق بشار بن موسى، قال: كنَّا عند سفيان بن عيينة، فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فالخلق هو المخلوقات، والأمر هو الكلام.

ومن طريق حماد بن نعيم قال: سمعتُ سفيان بن عيينة: وسُئل عن القرآن أمَخلوق هو؟ فقال: يقول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ألا ترى كيف فرَّق بين الخلق والأمر، فالأمر كلامه، فلو كان كلامه مخلوقًا لم يُفرِّق.

وسبق ابن عيينة إلى ذلك محمَّد بن كعب القرظي، وتبعه الإمام أحمد بن حنبل وعبد السَّلام بن عاصم، أخرج كلَّ ذلك ابنُ أبي حاتم عنهم.

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٥٣٣.

(٢) «الأسماء والصفات»: صـ٢٢٤.

(٣) «معالم أصول الدين»: صـ٦٥.

(٤) الكتاب في عداد المفقود. ونقل منه أبو القاسم اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة»، وابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة»، والذهبي في «العلو»، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» وابن حجر في «لسان الميزان».

كذا في «فتح الباري»، باب قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[١].

والدَّليل الرَّابع:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] وأمرُ الله هو كلامه. وقوله: فلمَّا أمرَهما بالقيام، فقامتا لا يهويان، كان قيامهما بأمره.

وقال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، فالخلق جميع خلق داخل فيه؛ لأنَّ الكلام إذا كان لفظه عامًّا فحقيقته أنَّه عامٌّ، ولا يجوز لنا أن نُزيل الكلام عن حقيقته بغير حجَّة ولا بُرهان.

فلمَّا قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ كان هذا في جميع الخلق، ولمَّا قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ ذكر أمرًا غير جميع الخلق، فدلَّ ما وصفنا على أنَّ أمر الله غير مخلوق.

كذا في كتاب «الإبانة» للإمام الأشعري[٢].

وقال البخاري في كتاب «خلق أفعال العباد»: «خلق الله الخلق بأمره، وتواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنَّ القرآن كلام الله، وأنَّ أمر الله قبل مخلوقاته». كذا في «فتح الباري»، باب قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٣].

والدَّليل الخامس:

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهل يتوهَّم مسلم ـ يا ذوي الحِجَا ـ أنَّ الله سخَّر الشَّمس والقمر والنُّجوم مسخَّرات بخلقه؟

كذا في كتاب «التوحيد لابن خزيمة»[٤].

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي في مناظرته بشر المريسي: أخبر الله تعالى عن الخلق

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٥٣٢.

(٢) «الإبانة عن أصول الديانة»: صـ٦٣.

(٣) «فتح الباري»: ١٣/ ٥٣٣، وفي «خلق أفعال العباد»: صـ٦٢٠.

(٤) «كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ»: صـ٣٩٣.

أنَّه مُسخَّر بأمره، فالأمر هو الَّذي كان الخلق مُسخَّرًا به، فكيف يكون الأمر مخلوقًا؟

كذا في «فتح الباري»، باب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

والدَّليل السَّادس:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]، فلو كانت البحار مِدادًا لنفدت البِحار ولم يلحق الفناء كلمات ربِّي، كما لا يلحق الفناء علم الله ﷻ.

ومَن فنى كلامه لحقته الآفاتُ، وجرى عليه السُّكوت، فلمَّا لم يجزْ ذلك على ربِّنا ﷻ؛ صحَّ أنَّه لم يزل مُتكلِّمًا؛ لأنَّه لولا لم يكن مُتكلِّمًا وجب السُّكوت والآفات، وتعالى ربُّنا عن قول الجهميَّة علوًّا كبيرًا.

كذا في كتاب «الإبانة»(٢)، وكتاب «الاعتقاد» للبيهقي(٣).

والدَّليل السَّابع:

قوله ﷻ مُخبرًا عن نفسه أنَّه يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ وجاءت الرِّواية أنَّه يقول [هذا القول](٤)، فلا يردُّ عليه أحدٌ شيئًا، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وإذا كان ﷻ قائلًا مع فناء الأشياء إذ لا إنسان ولا مَلك ولا حيٌّ ولا جانٌّ ولا شجر ولا مدَرٌ، فقد صحَّ أنَّ كلام الله خارج عن الخلق؛ لأنَّه يُوجد ولا شيء من المخلوقات موجود.

كذا في كتاب «الإبانة»(٥).

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٥٣٣، وفي «الحيدة والاعتذار»: صـ٣٨.

(٢) «الإبانة»: صـ٦٧.

(٣) «الاعتقاد»: صـ١٤٥.

(٤) المثبت من المصدر.

(٥) «الإبانة»: صـ٧٢.

والدَّليل الثَّامن:

قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]، فلو كان كلام الله لا يُوجد إلَّا مخلوقًا، لم يكن لاشتراط هذه الوجوه معنًى؛ لأنَّ الكلام قد سمعه جميعُ الخلق ووجدوه بزعم الجهميَّة مخلوقًا في غير الله ﷻ، وهذا يُوجب إسقاط مرتبة النَّبيِّين، صلوات الله وسلامه عليهم.

ويجب عليهم إذا زعموا أنَّ كلام الله لموسى ﷺ خلقَه في شجرة؛ أن يكون مَن سمع كلام الله ﷻ مِن مَلك أو نبيٍّ أتى به من عند الله؛ أفضل مَرتبة في سماع الكلام من موسى ﷺ.

لأنَّهم سمعوه من نبيٍّ ولم يسمعْه موسى من الله ﷻ، وإنَّما سمعه من الشجرة.

وأن يزعموا أنَّ اليهودي إذا سمع كلام الله من نبيٍّ ﷺ أفضلُ مرتبة من موسى بن عمران ﷺ؛ لأنَّ اليهوديَّ سمعه من نبيٍّ من أنبياء الله، وموسى ﷺ سمعه مخلوقًا في شجرة، ولو كان مخلوقًا في شجرة لم يكن مكلِّمًا موسى ﷺ من وراء حجاب.

فإن مَن حضر الشَّجرة من الجنِّ والإنس قد سمعوا الكلام من ذلك المكان، وكان سبيل موسى ﷺ وغيره في ذلك سواء، في أنَّه ليس كلام الله له من وراء حجاب.

ثمَّ يُقال لهم: إذا زعمتم أنَّ معنى أنَّ الله ﷻ كلَّم موسى ﷺ: أنَّه خلق كلامًا كلَّمه به، وقد خلق الله عندكم في الذِّراع كلامًا، لأنَّ الذِّراع قالت لرسول الله ﷺ: «لا تَأكلْني؛ فإنَّني مَسمومة»، فيلزمكم أن يكون ذلك الكلام الَّذي سمع النَّبيُّ ﷺ كلام الله ﷻ، ويلزمكم أن يكون الله مُتكلِّمًا بالكلام الَّذي خلقه في الذِّراع، فالله ﷻ على قولكم هو القائل: «لا تأكلني؛ فإنَّني مَسمومة»، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ويلزمكم أن يكون الكلام الَّذي أنطق الله به الذِّئب لمَّا أخبر عن نبوَّة النَّبيِّ ﷺ كلامًا لله ﷻ، وإن زعموا أنَّ الذِّئب كان متكلِّمًا بذلك الكلام المفعول، لزمهم أن تكون الشَّجرة مُتكلِّمة بالكلام الَّذي ذكره الله ﷻ.

ثمَّ يُقال لهم: أليس قد قال الله ﷻ لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]،

فلا بُدَّ من نعم، فإذا كان كلام الله مخلوقًا، وكانت المخلوقات فانيات فيلزمكم إذا أفنى الله ﷻ الأشياء أن تكون اللعنة على إبليس قد فنيت، فيكون إبليس غير ملعون، وهذا ترك دِين المسلمين، واللعنة كلام الله، وهو قوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾، وكلام الله لا يجوز عليه الفناء والعدم، كما أنَّ غضب الله ورضاه وسخطه غير مخلوق، كذلك كلامه غير مخلوق.

كذا في كتاب «الإبانة» ملخَّصًا[1]، وكذا في كتاب «الاعتقاد» للبيهقي مختصرًا[2].

والدَّليل التَّاسع:

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، فخصَّ القرآن بالتَّعليم؛ لأنَّه كلامه وصفته، وخصَّ الإنسان بالتَّخليق لأنَّه خلْقَه ومصنوعه، ولولا ذلك لقال: خلق القرآن والإنسان، فلم يجمع القرآن مع الإنسان في الخلق، بل أوقع اسم الخلق على الإنسان والعليم على القرآن.

كذا في «فتح الباري»[3]، وكتاب «الأسماء والصفات»[4].

وقال الإمام عبد العزيز بن يحيى المكي في مناظرته لبشر ما ملخَّصه: «أنَّ الله ﷻ ذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعًا من كتابه، وأخبر عن خلقه، وقال: إنَّه مخلوق.

وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعًا، ولم يقلْ في موضع منها: أنَّه مخلوق، ولا أشار إليه بشيء من صفات الخلق.

ثمَّ لمَّا جمع بين القرآن والإنسان في آيةٍ واحدة فرَّق بينهما، فأخبر عن الخلق للإنسان، ونفى الخلق عن القرآن، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ

---

(١) «الإبانة»: صـ٧٥ ـ ٨٠.

(٢) «الاعتقاد»: صـ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٣) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٤.

(٤) «الأسماء والصفات»: صـ٢٢١.

ٱلْبَيَانَ ﴾، ففرَّق بين القرآن والإنسان».

انتهى ملخَّصًا، كذا في كتاب «الحيدة»[١].

والدَّليل العاشر:

قوله ﷻ مُخبِرًا عن المُشركين: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥] يعني: القرآن، فمَن زعم أنَّ القرآن مخلوق؛ فقد جعله قولًا للبشر، وهذا ما أنكر اللهُ على المُشركين.

كذا في كتاب «الإبانة»[٢].

والدَّليل الحادي عشر:

ما أخرج البيهقي بإسناده عن عقبة بن عامر الجهني ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّكم لنْ تَرجعوا إلى الله بشيءٍ أحبَّ إليه من شيءٍ خرج منه» يعني: القرآن.

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»[٣].

وقال مالك: القرآن كلام الله، من الله، وليس شيءٌ من الله مخلوق. كذا في «مجموعة الفتاوى» للحافظ ابن تيمية[٤].

وقال وكيع: مَنْ زعم أنَّ القرآن مخلوق؛ فقد زعم أنَّ شيئًا من الله مخلوق.

فقيل له: مِن أين قلتَ هذا؟ قال: لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، ولا يكون من الله شيء مخلوق.

---

(١) «الحيدة والاعتذار»: صـ٨٥.

(٢) «الإبانة»: صـ٦٩.

(٣) «الأسماء والصفات»: صـ٢٣٠.

(٤) «مجموع الفتاوى»: ١٢/ ٥١٧.

كذا في «مجموعة الفتاوى»(١).

والدَّليل الثَّاني عشر:

ما أخرجه البيهقي عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضلُ القرآن على سائر الكلام كفضل الله ﷻ على خلقه، وذلك أنَّه منه».

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»(٢).

والدَّليل الثَّالث عشر:

ما جاء في الحديث: «أعوذُ بكلماتِ الله التامَّات من شرِّ ما خلق».

قال البيهقي: «كلمات الله لا تنتهي إلى أمرٍ، ولا تُحصر بعد، وقد نفى الله تعالى عنها النَّفاد، (كما قال تعالى: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧])، كما نفى عن ذاته الهلاك.

ثمَّ إنَّه لا يصلح أن يَستعيذَ بمخلوقٍ من مخلوق، فدلَّ على أنَّه استعاذ بصفة من صفات ذاته، وأمر أن يُستعاذ بصفة من صفاته ذاته وهي غير مخلوقة، كما أمره الله تعالى أن يستعيذ بذاته، وذاته غير مخلوقة، وإنَّما سمَّاها تامَّة؛ لأنَّه لا يجوز أن يكون في كلامه عيبٌ أو نقصٌ، كما يكون ذلك في كلام الآدميين، وبلغني عن أحمد بن حنبل أنَّه كان يستدلُّ بذلك على أنَّ القرآن غير مخلوق، قال: وذلك لأنَّه ما من مخلوق إلَّا وفيه نقص».

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»(٣).

قال الإمام الرازي: «وصفَ كلمات الله تعالى بالتَّمام، والمُحدَث لا يكون تامًّا». اهـ.

كذا في «المعالم»(٤).

---

(١) «مجموع الفتاوى»: ١٢/ ٥١٧.

(٢) «الأسماء والصفات»: صـ٢٣١.

(٣) «الأسماء والصفات»: صـ١٨١، و١٨٣.

(٤) «معالم أصول الدين»: صـ٦٥. والعبارة في الأصل: «ما رُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول: «أعوذ=

قال الإمام البيهقي: «إنَّما سمَّاها تامَّة؛ لأنَّه لا يجوز أن يكون في كلامه عيبٌ أو نقصٌ، كما في كلام الآدميين». اهـ[١].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النَّبيُّ ﷺ يعوذ الحسن والحسين: «أُعيذُكما بكلماتِ الله التامَّة»، قال أحمد وغيره: ولا يجوز أن يُقال: أعيذُك بالسَّماء وبالجبال وبالأنبياء أو بالملائكة أو بالعرش أو بالأرض، أو بشيء ممَّا خلق الله، ولا يُتعوَّذ إلَّا بالله وكلماته.

كذا في «مجموعة الفتاوى» للحافظ ابن تيمية[٢].

والدَّليل الرَّابع عشر:

ما أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الصِّيام والقرآن يَشفعان للعبد، يقول الصِّيام: أي ربِّ، إنِّي منعتُه الطَّعام والشَّهوات بالنَّهار فشفِّعني فيه، ويقول القرآن: منعتُه النَّوم بالليل فشفِّعني فيه، فيُشفَّعان**»[٣].

فلمَّا كان الصَّوم مخلوقًا ومربوبًا، قال: «أي ربِّ»، والقرآن كان كلام الله صفة من صفات ذاته قديمًا غير مخلوقًا لم يقل: أيْ ربِّ؛ لئلَّا يتوهَّم منه كونه مربوبًا ومخلوقًا.

والدَّليل الخامس عشر:

ما أخرج البيهقي بإسناده: «عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على النَّاس بالموقِف، فقال: «**ألا رجل يَحملُني إلى قومه، فإنَّ قريشًا قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربِّي عز وجل**». لفظ حديث أبي داود، وفي رواية الدُّوري، قال: لمَّا أُمِر النَّبيُّ ﷺ أن

= بكلمات الله تعالى بالتَّمام»، والمحدَث لا يكون تامًّا».

(١) «الاعتقاد»: صـ١٤٩.

(٢) «مجموع الفتاوى»: ٦/ ٤٣٤. ط: المعرفة.

(٣) «الجامع لشعب الإيمان»: ١٨٣٩.

يُبلِّغ الرِّسالة جعل يقول: «يا قوم، لم تُؤذُونني أن أبلِّغ كلامَ ربِّي» يعني: القرآن».

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»[1].

واحتجَّ أحمد بن حنبل بهذه الآية، يعني: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] على أنَّ القرآن غير مخلوق؛ لأنَّه لم يردْ في شيء من القرآن ولا من الأحاديث أنَّه مخلوق، ولا ما يدلُّ على أنَّه مخلوق.

ثمَّ ذكر عن الحسن البصري أنَّه قال: لو كان ما يقول الجعد حقًّا؛ لبلَّغه النَّبيُّ ﷺ.

كذا في «فتح الباري»[2].

الأدلة العقلية في ذلك

قال الإمام ـ قدَّس الله سرَّه ـ: «(١) الكلام من صفات الكمال، فلو كان مُحدَثًا لكانت ذاته خالية عن صفات الكمال قبل حدوثه، والخالي عن الكمال ناقص، وذلك على الله مُحالٌ.

(٢) وأيضًا إنَّ كونه تعالى مَحلًّا للحوادث وهو مُحالٌ.

(٣) وأيضًا إنَّ الكلام لو كان حادثًا لكان إمَّا أن يقوم بذات الله تعالى أو بغيره، أو لا يقوم بمحلٍّ.

فلو قام بذات الله تعالى لزم كونه مَحلًّا للحوادث، وهو مُحالٌ، وإن قام بغيره فهو أيضًا مُحالٌ؛ لأنَّه لو جاز أن يكون مُتكلِّمًا بكلام قائم بغيره لجاز أن يكون مُتحرِّكًا بحركة قائمة بغيره وساكنًا بسكونٍ قائم بغيره، وهو مُحالٌ، وإن وُجد ذلك لا في مَحلٍّ فهو باطل بالاتفاق».
كذا في «معالم أصول الدين»[3].

---

(١) «الأسماء والصفات»: صـ١٨٥.

(٢) «فتح الباري»: ١٣/ ٥٠٤.

(٣) «معالم أصول الدين»: صـ٦٥.

ويُوضِّحه ما قال الإمام عبد العزيز المكي في مناظرته لبِشر المعتزلي: «يا أمير المُؤمنين سألتُ بِشرًا عن كلام الله مخلوق هو؟ فقال: نعم.

فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لا بُدَّ منها؛ أن تقول: الله ﷻ خلق كلامه في نفسه، أو خلقه في غيره، أو خلقه قائمًا بنفسه وذاته.

فإن قال: إنَّ الله خلق كلامه في نفسه؛ فهذا مُحالٌ باطل، لا يجد السَّبيل إلى القول به مِن قياس ولا نظر ولا معقول؛ لأنَّ الله تعالى لا يكون مكانًا للحوادث، ولا يكون فيه شيءٌ مخلوق، ولا يكون ناقصًا، فيزيد بشيء إذا خلقه.

ومَن قال هذا؛ فقد كفر بالله العظيم، وحلَّ دمُه.

وإن قال: خلق كلامه في غيره؛ فهذا أيضًا مُحالٌ باطل؛ لأنَّه يلزمه أن يجعل كلَّ كلامٍ خلقه الله في غيره؛ هو كلام الله، فيجعل الشِّعر وقول الزُّور والفحش والخنا، وكلَّ كلام ذمَّه الله وذمَّ قائليه من كلام الكفرة والسَّحرة وغيره لله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وإن قال: خلق كلامه قائمًا بنفسه وذاته؛ فهذا أيضًا مُحالٌ باطل؛ لأنَّه لا يكون الكلام إلَّا من مُتكلِّم.

كما لا يكون الإرادة إلَّا مِن مُريد، ولا العلم إلَّا من عالم، ولا القدرة إلَّا من قدير، ولا رُئي ولا يُرى أبدًا كلامٌ قائم بنفسه مُتكلِّم بذاته، وهذا ما لا يُعرف ولا يُعقل ولا يثبت من قياس ولا نظر ولا غيره.

فلمَّا استحال أن يكون القرآن مخلوقًا من هذه الجهات؛ ثبت أنَّه صفة لله ﷻ، وصفات الله ﷻ غير مخلوقة، فبطل قول بِشر من جهة النَّظر والقياس كما بطل من جهة الكتاب والسُّنَّة». كذا في كتاب «الحيدة»[1].

(٤) وأيضًا قد قامت الدَّلائل القاطعة على أنَّ الله تعالى لا يُشبهه شيءٌ من خلقه، بوجهٍ

---

(١) «الحيدة والاعتذار»: صـ٨٣.

من الوجوه، فلمَّا كان كلامنا غيرنا وكان مخلوقًا، وجب أن يكون كلامه ﷻ ليس غيره وليس مخلوقًا. كذا في «فتح الباري»[1].

(٥) وأيضًا الأنسب بالقديم من حيث هو قديم قِدم صفاته، إذ القديم بالقِدم أنسب من الحادث بالقديم لاتِّحادهما في وصف القِدم، ولأنَّ الأصل من صفات القديم من حيث هو قديم عدم الحدوث، فكيف لا يجب إثبات قِدم المعنى القائم بذاته إذا بطل قيام الحوادث به بأدلَّتنا المبنيَّة في محالها. كذا في «الإتحاف»[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٥.

(٢) «إتحاف السادة المتقين»: ٢/ ٢٤٠.

ما جاء عن الصَّحابة والتَّابعين وأئمَّة المسلمين ﷺ في أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق

قال الإمام البيهقي: «أخبرنا: عليُّ بن أحمد بن عبدان، أنا: أحمد بن عبيدٍ الصَّفار، ثنا: عبدالله بن أحمد بن حنبل، ثنا: أبو معمرٍ الهُذلي، عن شريح بن النعمان، حدَّثني: عبد الرَّحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير، عن نِيار بن مُكرم، أنَّ أبا بكر ﷺ قرأ عليهم سورة الروم، فقالوا: هذا كلامك أو كلام صاحبك؟ قال: **ليس بكلامي، ولا بكلام صاحبي، ولكنَّه كلام الله ﷻ**.

قال البيهقي: وهذا إسناد صحيح عن عبد الله بن هانئ.

قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: **القرآن كلام الله**.

وعن عثمان بن عفان ﷺ: **لو أنَّ قلوبَنا طهرت ما شبِعنا من كلام ربِّنا، وإنِّي لأكرهُ أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر في المُصحف**، وما مات عثمان حتَّى خُرق مصحفه من كثرة ما كان يُديم النظر فيه.

وعن عليٍّ ﷺ أنَّه قال حين قالوا له يوم صفين حكَّمْت [رجلين][1]: **ما حكَّمْتُ مخلوقًا، ما حكَّمْتُ إلَّا القرآن**.

كذا في كتاب «الاعتقاد»[2]، وكذا في كتاب «الأسماء والصفات»[3].

---

(١) هكذا في الأصل، أما في المصدر: «حكَّمْتَ كافرًا ومنافقًا».

(٢) «الاعتقاد»: صـ١٥١ ـ ١٥٣.

(٣) «الأسماء والصفات»: صـ٢٣٣ ـ ٢٣٦.

وعن عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨]، قال: غير مخلوق.

وعن عكرمة قال: كان ابن عباس في جنازة، فلمَّا وُضع الميِّت في لحده، قام رجل وقال: اللهمَّ ربَّ القرآن اغفرْ له، فقال ابن عباس: مه، **لا تقلْ مثل هذا؛ القرآن منه بدَا وإليه يَعود.**

في رواية قال له ابن عباس: **ثكلتك أُمُّك، إنَّ القرآن منه.**

وفي رواية أخرى قال ابن عباس: **القرآن كلامُ الله وليس بمربوب، منه خرج وإليه يعود.**

وفي رواية الطبراني عن عكرمة قال: كان ابن عباس في جنازة فلمَّا وُضع الميِّت في لحده قام رجل فقال: اللهمَّ ربَّ القرآن أوسع عليه مدخله، اللهمَّ ربَّ القرآن اغفر له، فالتفت إليه ابنُ عباس فقال: **مه، القرآن كلام الله، وليس بمربوب، منه خرج وإليه يعود.**

كذا في كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي[١]، وكذا في المجلد الخامس من «فتاوى ابن تيمية»[٢].

قال الإمام البيهقي: «رُوي عن أنس ﷺ أنَّه قال: **القرآن كلام الله، وليس كلام الله بمخلوق.**

قال أبو أحمد: هذا الحديث وإن كان موقوفًا على أنس ﷺ فهو مُنكَر؛ لأنَّه لا يُعرف للصَّحابة الخوض في القرآن.

قلت: إنَّما أراد به أنَّه لم يقع في الصَّدر الأوَّل ولا الثَّاني مَن يزعم أنَّ القرآن مخلوق، حتى يحتاج إلى إنكاره، فلا يثبت عنهم شيءٌ بهذا اللفظ الَّذي رويناه عن أنس ﷺ، وإنَّما ثبت عنهم إضافة القرآن إلى الله وتمجيده بأنَّه كلام تعالى، كما رويناه عن أبي بكر وعمر

---

(١) «الأسماء والصفات»: صـ٢٣٣ ـ ٢٣٦.

(٢) «مجموع الفتاوى»: ٦/ ٤٩٣. ط: المعرفة.

وعثمان وعليّ ﷺ».

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»[١].

حكاية إجماع الصَّحابة والتَّابعين

وقد روى غيرُ واحد عن سفيان بن عيينة قال: سمعتُ عمرو بن دينار يقول: أدركتُ مشايخنا والنَّاس منذ سبعين يقولون: **القرآن كلام الله منه بدا وإليه يعود.**

وفي لفظ: سمعتُ مشيختنا منذ سبعين سنة يقولون: **القرآن كلام وليس بمخلوق.**

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»[٢]، وكذا في المجلد الخامس من فتاوى ابن تيمية»[٣].

قال البيهقي: «وقد أدرك عمرو بن دينار أجلَّة أصحاب رسول الله ﷺ من البدريين والمهاجرين والأنصار مثل: جابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير ﷺ، وأجلَّة التَّابعين ﷺ، وعلى هذا مضى صدر هذه الأمَّة، لم يختلفوا في ذلك».

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»[٤].

وقال البيهقي في كتاب «الاعتقاد» بعد حكاية قول سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار: «أدركتُ مشيختنا...» إلخ: «ومشايخ عمرو بن دينار جماعة من الصَّحابة، ثمَّ أكابر التَّابعين؛ فهو حكاية إجماعٍ منهم». انتهى كلامه[٥].

---

(١) «الأسماء والصفات»: صـ٢٣٦.

(٢) «الأسماء والصفات»: صـ٢٣٨.

(٣) «مجموع الفتاوى»: ٦/ ٣٩٧. ط: المعرفة.

(٤) «الأسماء والصفات»: صـ٢٣٨.

(٥) «الاعتقاد»: صـ١٥٤.

ذكر أقوال الأئمة في القرآن

قال الإمام البيهقي: «قال أبو مصعب: سمعتُ مالك بن أنس يقول: **القرآن كلام الله غير مخلوق.**

(وقال:) سويد بن سعيد يقول: سمعتُ مالك بن أنس، وحماد بن زيد، وسفيان ابن عيينة، والفضيل بن عياض، وشريك بن عبد الله، ويحيى بن سليم، ومسلم بن خالد، وهشام بن سليمان المخزومي، وجرير بن عبد الحميد، وعليَّ بن مسهر، وعبدة، وعبد الله بن إدريس، وحفص بن غياث، [ووكيعًا][(١)] ومحمد بن فضيل، وعبد الرَّحيم بن سليمان، وعبد العزيز بن أبي حازم، والدراوردي، وإسماعيل بن جعفر، وحاتم بن إسماعيل، وعبد الله بن يزيد المقري، وجميع مَنْ حملتُ عنهم العلم يقولون: **الإيمان قولٌ وعمل، ويزيد وينقص، والقرآن كلام الله تعالى، وصفةُ ذاته غير مخلوق، ومَنْ قال إنَّه مخلوق؛ فهو كافرٌ بالله العظيم، وأفضل أصحاب رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ** رضي الله عنهم.

[قال عمران:][(٢)] وبذلك أقول، وبه أدين الله ﷻ، وما أُريت محمَّديًّا قط إلاَّ وهو يقوله».

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»[(٣)].

وقال الإمام البيهقي: «قال أبو شعيب المصري: سمعتُ محمَّد بن إدريس الشَّافعي رحمه الله يقول: **القرآن كلام الله غير مخلوق.**

وعن علي بن سهل الرملي أنَّه قال: سألت الشَّافعي عن القرآن، فقال: **كلام الله منزَّل غير مخلوق**، قلت: فمَن قال بالمخلوق فما هو عندك؟ قال لي: **كافر.**

---

(١) سقط من الأصل، المثبت من المصدر.

(٢) سقط من الأصل، المثبت من المصدر. وعمران هو عمران بن موسى الجرجاني، الراوي عن سويد بن سعيد.

(٣) «الأسماء والصفات»: صـ٢٤٠.

وقد روى عن المزني أنَّه كان يقول: **القرآن كلام الله غير مخلوق، ومَن قال: مخلوق فهو كافر».**

كذا في «الأسماء والصفات»[(١)].

وهكذا رُوي عن الحسن البصري، وأيوب السختياني، وسليمان التيمي، وخلقٍ من التَّابعين.

وعن مالك[(٢)] بن أنس، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، وابن أبي ليلى، وأبي حنيفة، والشَّافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأمثال هؤلاء من الأئمَّة.

بل اشتُهر عن أئمَّة السَّلف تكفير مَنْ قال: **القرآن مخلوق، وأنَّه يُستتاب، فإن تاب؛ وإلَّا قُتِل**، كما ذُكر ذلك عن مالك بن أنس.

وكفَّر الشافعي حفصًا الفرد حين قال: القرآن مخلوق، فقال الشَّافعي: **كفرتَ بالله العظيم، القرآن كلام الله غير مخلوق.**

وأمَّا أبو حنيفة وأصحابه فقد ذكر الطحاوي في «الاعتقاد» الَّذي في أوَّله: (ذِكر بيان اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة على مذهب أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمَّد بن الحسن): **القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفيَّة قولًا، وأنزله على نبيِّه وحيًا، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقًّا، وأيقنوا أنَّه كلام الله بالحقيقة، ليس بمخلوق، ككلام البريَّة، فمَن سمعه وزعم أنَّه كلام البشر؛ فقد كفر.**

وقال سفيان الثوري: **مَنْ قال: القرآن مخلوق؛ فقد كفر.**

وقال عبد الله بن المبارك: **مَنْ قال:** ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] **مخلوقٌ؛ فهو كافر.**

---

(١) «الأسماء والصفات»: صـ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٢) كما روى الخلال عن مالك: القرآن كَلَامُ اللهِ، من الله، وليس شيءٌ من الله مخلوق. كذا في «مجموعة الفتاوى» (ج: ١، ص: ٢٢) للحافظ ابن تَيمِيَّة. (المؤلف).

كذا في المجلَّد الأوَّل من مجموعة الفتاوى للحافظ ابن تيمية[١].

وأخرج البيهقي عن أبي الوزير قال: «قلتُ لابن المبارك: قال النضر بن محمَّد المروزي يقول مَنْ قال: إنَّ هذا مخلوق ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]؛ فهو كافر، قال ابن المبارك: **صدق النَّضر عافاه الله، ما كان اللهُ ليأمر موسى** ﷺ **بعبادة مخلوق**».

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»[٢].

وأخرج البيهقي عن محمَّد بن أيوب الرازي قال: «سمعتُ محمَّد بن سابق يقول: سألت أبا يوسف، فقلتُ: أكان أبو حنيفة يقول: القرآن مخلوق؟ فقال: **معاذ الله، ولا أنا أقوله**، فقلتُ: أكان يرى رأي جهم؟ فقال: **معاذ الله، ولا أنا أقوله**. رُواته ثقات»[٣].

وأخرج البيهقي أيضًا عن عبد الله بن أحمد الدشتكي قال: «سمعتُ أبي يقول: سمعتُ أبا يوسف القاضي يقول: كلَّمتُ أبا حنيفة سنة جرداء[٤] في أنَّ القرآن مخلوق أم لا؟ فاتَّفق رأيه ورأيي على أنَّ: **مَنْ قال: القرآن مخلوق؛ فهو كافر**.

قال أبو عبد الله: رُواة هذا كلُّهم ثقات.

وقال الحارث بن إدريس: سمعتُ محمَّد بن الحسن الفقيه يقول: **مَنْ قال: القرآن مخلوق؛ فلا تُصلِّ خلفه**».

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»[٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى»: ١٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧.

(٢) «الأسماء والصفات»: صـ٢٤١.

(٣) «الأسماء والصفات»: صـ٢٤٣.

(٤) في «تاج العروس»: ٧/ ٤٩٤: «من المجاز: (يوم جريد وأجرد)، أي: تامٌّ، وكذلك الشهر، عن ثعلب وفي: الأساس: ويُقال: مضى عليه عامٌ أجردُ وجريدٌ، وسنة جرداءُ كاملة متجرِّدة من النَّقص.

(٥) «الأسماء والصفات»: صـ٢٤٣.

وقال حرب بن إسماعيل الكرماني: سمعتُ إسحاق بن راهويه يقول: **ليس بين أهل العلم اختلافٌ أنَّ القرآن كلامُ الله وليس بمخلوقٍ، وكيف يكون شيءٌ من الرَّبِّ ـ عزَّ ذكرُه ـ مخلوقًا، ولو كان كما قالوا؛ لزمهم أن يقولوا: عِلم الله وقدرته ومشيئته مخلوقة، وهو كفرٌ محضٌ، والقرآن كلامُ الله ليس بمخلوقٍ، فمَن زعم أنَّه مخلوقٌ؛ فهو كافر.**

وقال وكيع بن الجراح: **مَنْ زعم أنَّ القرآن مخلوق؛ فقد زعم أنَّ شيئًا من الله مخلوق،** فقيل له: مِن أين قلت هذا؟ قال: **لأنَّ الله يقول:** ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]**، ولا يكون من الله شيءٌ مخلوقًا.**

وهذا القول قاله غيرُ واحدٍ من السَّلف.

وقال أحمد بن حنبل: **كلام الله من الله ليس ببائنٍ منه.**

وهذا معنى قول السَّلف: **القرآن كلام الله، منه بدا، ومنه خرج، وإليه يعود.**

كذا في المجلَّد الأوَّل من «مجموعة الفتاوى» للحافظ ابن تيمية(١).

وروى جماعة عن أحمد بن الحسن الترمذي قال: سألتُ أحمد فقلت: يا أبا عبد الله قد وقع في أمر القرآن ما قد وقع، فإن سُئِلت عنه ماذا أقول؟ فقال لي: **ألستَ أنت مخلوقًا؟** قلتُ: نعم، قال: **أليس كلامُك منك مخلوقًا؟** قلتُ: نعم، قال: **فكلام الله أليس منه؟** قلتُ: نعم، قال: **فيكون شيءٌ من الله ﷻ مخلوقًا؟**

المجلَّد الخامس من «مجموعة الفتاوى»(٢).

وقال الإمام أحمد: **قد ذكر اللهُ تعالى كلامَه في غير موضع من القرآن، وسمَّاه كلامًا وليس خلقًا، وهذا بيِّن.**

---

(١) «مجموع الفتاوى»: ١٢/ ٥١٧.

(٢) «مجموع الفتاوى»: ١٢/ ٤٣٣.

كذا في «مجموعة الفتاوى»[١].

وأخرج البيهقي عن محمد بن عليٍّ المشيحاني قال: «سمعتُ محمد بن إسماعيل البخاري يقول: القرآن كلامُ الله تعالى ليس بمخلوقٍ، عليه أدركنا علماء الحجاز؛ أهل مكَّة والمدينة، وأهل الكوفة والبصرة، وأهل الشَّام، ومصر، وعلماء أهل خراسان».

قال البيهقي: «وقد روينا نحو هذا عن جماعة آخرين من فقهاء الأمصار وعلمائهم ﷺ، ولم يصحَّ عندنا خلافُ هذا القول عن أحدٍ من النَّاس في زمان الصَّحابة والتَّابعين ﷺ أجمعين.

وأوَّل مَنْ خالف الجماعة في ذلك: الجعد بن درهم، فأنكره عليه خالد بن عبد الله القَسْري وقتله، فقد رُوي عن أبي حبيب أنَّه قال: شهدتُ خالد بن عبد الله القسري وقد خطبهم في يوم أضحى بواسط، فقال: ارجعوا أيُّها الناس فضحُّوا، تقبَّل الله منكم، فإنِّي مُضحٍّ بالجعد بن درهم، فإنَّه زعم أنَّ الله لم يتَّخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلِّم موسى تكليمًا، سبحانه وتعالى عمَّا يقول الجعد علوًّا كبيرًا، قال: ثمَّ نزل فذبحه، قال أبو رجاء: وكان الجهم يأخذ هذا الكلام من الجعد بن درهم».

كذا في كتاب «الأسماء والصفات»[٢].

قال ابن تيمية: «أئمَّة الدِّين كلهم مُتَّفقون على أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق.

ونصوص الأئمَّة في ذلك مشهورة متواترة، حتَّى إنَّ أبا القاسم الطبري الحافظ ذكر في كتابه [«شرح أصول السُّنَّة»][٣] مقالات السَّلف والأئمَّة [في الأصول][٤]: ذكر مَن قال: القرآن كلام الله غير مخلوق. وقال: هؤلاء خمسمائة وخمسون نفسًا أو أكثر من التَّابعين والأئمَّة

---

(١) «مجموع الفتاوى»: ٦/ ٤٤٩. ط: المعرفة.

(٢) «الأسماء والصفات»: صـ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٣) سقط من الأصل، والمثبت من المصدر، وهو لأبي القاسم الطبري اللالكائي.

(٤) كذلك سقط من الأصل، والمثبت من المصدر. وانظر: «شرح أصول اعتقاد»: ١/ ٣٤٤.

المَرضيِّين، سوى الصَّحابة على اختلاف الأعصار، ومُضيِّ السِّنين، وفيهم نحوٌ من مائة إمام ممَّن أخذ النَّاس بقولهم، وتمذهبوا بمذاهبهم.

ولو اشتغلتُ بنقل قول أهل الحديث لبلغتْ أسماؤهم أُلوفًا، لكنِّي اختصرتُ فنقلت عن هؤلاء عصرًا بعد عصر، لا يُنكِر عليهم مُنكرٌ، ومَنْ أنكر قولهم استتابوه، أو أمروا بقتله أو نفيه أو حبسه.

قال: ولا خلاف بين الأمَّة أنَّ أوَّل مَنْ قال بالقرآن مخلوق جعد بن درهم في سنِي نيفٍ وعشرين ومائة، ثمَّ جهم بن صفوان. فأمَّا جعد فقتله خالد بن عبد الله القَسْري. وأمَّا جهم فقُتِل بمرو في خلافة هشام بن عبد الملك.

كذا في «مجموعة الفتاوى»[1].

وجعدٌ، قد ضحَّى به خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم النحر، وقال: ضحُّوا أيُّها النَّاس، تقبَّل الله ضحاياكم، فإنِّي مُضحٍّ بالجعد بن درهم، إنَّه زعم أنَّ الله لم يتَّخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلِّم موسى تكليمًا، تعالى الله عمَّا يقول الجعد علوًّا كبيرًا، ثمَّ نزل فذبحه.

كذا في «مجموعة الرسائل» للحافظ ابن تيمية[2].

ثمَّ أخذ هذه المقالة عن الجعد الجهمُ بن صفوان، إليه نُسبت هذه المقالة فسُمِّيتْ مقالة الجهميَّة، ثمَّ وافق الجهم على ذلك المُعتزلة؛ أصحاب عمرو بن عبيد، وضمُّوا إليها بدعًا أخرى في القدَر وغيره. قاله الحافظ ابن تيمية[3].

والحاصل: أنَّ أوَّل مَنْ قال: القرآن مخلوق: الجعد بن درهم، ثمَّ جهم بن صفوان، ثمَّ من بعدهما بشر بن غياث.

---

(١) «مجموع الفتاوى»: ١٢/ ٥٠٤.

(٢) «مجموعة الرسائل والمسائل»: ٣/ ١٣٢.

(٣) «مجموعة الرسائل والمسائل»: ٣/ ١٣٢.

فهذه أقوال الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصَّالحين، كلُّهم اتَّفقوا على أنَّ القرآن كلام الله وعلمه ووحيُه ليس بمخلوق، ولكن لم يُروَ عن أحدٍ منهم حرفٌ واحدٌ في أنَّ الله ﷻ يتكلَّم بحرف وصوت.

فظهر منه أنَّ مذهب كافَّة أهل العلم قديمًا وحديثًا أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق ولا خالق.

فالعجب من الحنابلة والحشويَّة القائلين بالحرف والصَّوت، كيف يدَّعون أنَّ مذهبهم هو مذهب السَّلف، وكيف يقولون: نُؤمن بالحرف والصَّوت، ولا نخوض في المعنى ولا في التَّأويل مع أنَّه لم يثبت بالكتاب والسُّنَّة ولا بقولٍ من أقوال الصَّحابة أنَّه سبحانه يتكلَّم بحرف وصوت.

ولذا قال الحافظ العسقلاني: «والمحفوظ عن جمهور السَّلف: ترك الخوض في ذلك والتعمُّق فيه، والاقتصار على القول بأنَّ القرآن كلام الله، وأنَّه غير مخلوق، ثمَّ السُّكوت عمَّا وراء ذلك، والله أعلم».

كذا في «فتح الباري»، في باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣][1].

ثمَّ قال الحافظ العسقلاني رحمه الله في باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] إلخ: «ولم يُنقل عن أحمد في الصَّوت ما نُقل عنه في اللفظ.

ولم يُنقل عن أحمد قط أنَّ فِعل العبد قديمٌ ولا صوته، وإنَّما أنكر إطلاق اللفظ، وصرَّح البخاري بأنَّ أصوات العباد مخلوقة، وأنَّ أحمد لا يُخالف ذلك، فقال في كتاب «خلق أفعال العباد» ما يدَّعونه عن أحمد ليس الكثير منه بالبيِّن، ولكنَّهم لم يفهموا مُراده. ومذهبه المعروف عن أحمد، وأهل العلم، أنَّ كلام الله غير مخلوق، وما سواه مخلوق، لكنَّهم كرهوا

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٥.

التَّنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنَّبوا الخوض فيها والتَّنازُع، إلَّا ما بيَّنه الرَّسول ﷺ».

كذا في «فتح الباري»، في باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢][1].

❁ ❁ ❁

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٩٣.

الرَّدُّ عَلَى الْجَهْمِيَّة والمعتزلة

أجمع المسلمون على أنَّ الله تعالى مُتكلِّم، لكنَّ الجهميَّة والمعتزلة زعموا أنَّ المعنى بكونه مُتكلِّمًا أنَّه خلق الكلام في جسم.

إن قيل: إذا كان القرآن عندهم حادثًا؛ لم يكن قائمًا به تعالى لتعاليه عن قيام الحوادث بذاته، فلا يكون كلامًا له.

قلنا: إنَّهم يُجوِّزون قيام كلام الله بغيره، ويقولون: هو مُتكلِّم، بمعنى: أنَّه مُوجِد للكلام، لا أنَّه مَحلٌّ له؛ وهذا فاسد من وجوه:

الأوَّل:

أنَّه يُردُّ عليه أنَّ المُتكلِّم على قاعدة اللغة في المشتقَّات كالمُتحرِّك، والأسود مَن قام به الكلام لا مَن أوجده، ولا يُعرف في لغةٍ ولا عُرف ولا عقل قائلٌ مُتكلِّم إلَّا مَنْ يقوم به الكلام، كما لا يُعقل حيٌّ إلَّا مَنْ تقوم به الحياة، ولا عالم إلَّا مَنْ يقوم به العلم، ولا مُتحرِّك إلَّا مَنْ تقوم به الحركة.

فمَنْ قال: أنَّ المُتكلِّم هو الَّذي يكون كلامه منفصلًا عنه؛ قال ما لا يُعقل ولم يُفهم الرُّسل للنَّاس هذا، بل كلُّ مَن سمع ما بلَّغَته الرُّسل عن الله تعالى يعلم بالضَّرورة أنَّ الرُّسل لم تُردْ بكلام الله ما هو منفصل عنه، بل ما هو متَّصف به.

والثَّاني:

أنَّه يلزم على قولهم: أن يكون كلُّ كلام خلقَه الله في شيءٍ كلامًا لله تعالى؛ إذ لا معنى

لكون القرآن كلامَ الله إلَّا كونه خلقه، وقد خلق الله التَّسبيح في جبال داود ﷺ، وخلق التَّسليم على النَّبيِّ ﷺ في الحجر، والتَّسبيح في الحصى، والطَّعام للنَّبيِّ ﷺ، ويخلق النُّطق والشَّهادة في الجلود والأيدي والأرجل يوم القيامة، فيلزم أن يكون هذا كلُّه كلام الله، فإنَّه خلقه في غيره كما خلق الكلام في الشَّجرة.

بل يكون كلُّ كلام في الوجود كلامه حتَّى كلام إبليس وقول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقول نمرود: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وسائر الكفَّار، فإنَّه تعالى خالق أفعال العباد وأقوالهم، وهو المُنطق لكلِّ ناطق.

ملخَّص من «منهاج السُّنَّة»[1].

والثَّالث:

يلزمهم في قولهم: أنَّ الله خلق كلامًا في شجرةٍ كلَّم به موسى ﷺ، بأن يكون مَنْ سمع كلام الله من ملك أو نبيٍّ أفضل في سماع الكلام من موسى ﷺ.

الرَّابع:

يلزمهم أن تكون الشَّجرة هي المُتكلِّمة بما ذكر الله أنَّه كلَّم به موسى، وهو قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤].

كذا في «فتح الباري»، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣][2].

ووجهُ ذلك: أنَّ ما خلقه الله في غيره فإنَّما يعود حُكمه على ذلك المَحلِّ لا على غيره، فإذا خلق الله في بعض الأجسام حركةً أو طعمًا أو لونًا أو ريحًا؛ كان ذلك الجسم هو المُتحرِّك المُتلوِّن المَطعوم.

---

(١) «منهاج السنة»: ٢/ ٣٧٢.

(٢) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٥٤.

وإذا خلق في مَحلٍّ حياة وعلمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا كان ذلك المَحلُّ هو الحيُّ العالم القادر السَّميع البصير، فإذا خلق كلامًا في الشَّجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك المَحلُّ هو المُتكلِّم بذلك الكلام.

كذا في تفسير آية التَّكليم للحافظ ابن تيمية[١].

وبالجملة: قد أبعدوا حيث قالوا: هو المُتكلِّم بكلامٍ يقوم بغيره، وليس الجسم الَّذي قام به الكلام مُتكلِّمًا به، فأثبتوا الاسم والحكم بدون الصِّفة، ونفوا الاسم والحُكم عن موضع الصِّفة.

كذا في «مجموعة الفتاوى»[٢].

والخامس:

ما قال الإمام أحمد في جواب الجهمي حين قال: إنَّه يتكلَّم، ولكنَّ كلامه مخلوق، فقال: وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق، فقد شبَّهتم الله بخلقه حين زعمتُم أنَّ كلامه مخلوق.

كذا في «مجموع الفتاوى» للحافظ ابن تيمية[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى»: ١٢/ ٥١٢.

(٢) «مجموع الفتاوى»: ٦/ ٤٢٦. ط: المعرفة.

(٣) «مجموع الفتاوى»: ٨/ ٤١٩.

أدلّة المعتزلة والجواب عنها

اعلم أنَّ المعتزلة احتجُّوا على حدوث القرآن بوجوهٍ عقليَّة ونقليَّة، أمَّا الوجوه العقليَّة فأقواها، وهو:

الوجه الأوَّل:

أنَّه قد أجمع المسلمون قبل ظهور هذا الخلاف على أنَّ القرآن كلام الله سبحانه، واتَّفقوا على أنَّه سور وآيات وحروف وكلمات، وهي مسموعة على التَّحقيق وجميع ذلك يدلُّ على كونه مُحدَثًا مخلوقًا؛ لأنَّ السُّور مَعدودة محسوبة؛ لها أوَّل وآخر، وكلُّ ما دخله الحصر والعدد كان له أوَّل وآخر فهو مخلوق.

وبعبارة أخرى: أنَّ القرآن مُركَّب من حروف وكلمات مُترتِّبة ومتعاقبة، يمتنع اجتماعها في الوجود، فالمُتأخِّر عند وجود المُتقدِّم معدوم، والمُتقدِّم عند وجود المُتأخِّر مُنتفٍ.

وهذا دليلُ الحدوث؛ لأنَّ [القِدم يُنافي العدم][1] سابقًا ولاحقًا، وأيضًا المُتأخِّر مسبوق بعدمه المُقارن بوجود المُتقدِّم، فهو حادث قطعًا، والمُتقدِّم لا يتقدَّمه إلَّا بزمان قليل، فيكون حادثًا أيضًا، وكذا المُركَّب منها.

هذا خلاصة ما ذكره العلامة الزمخشري في مقدِّمة «الكشَّاف»، وأوضحه السيد الجرجاني في «حاشيته»[2].

---

(١) في الأصل: «لأن العدم يُنافي القدم»، والمثبت من المصدر، المطبوع والمخطوط أيضًا.

(٢) «الحاشية على الكشاف»: ص٨٨.

الجواب عنه:

قال الإمام أبو بكر الباقلاني في الجواب عن هذه الشُّبهة: «أنَّ ما ذكرتم من الحصر، والعدد، والتَّحديد، والحروف، والأصوات، فجميع ذلك راجعٌ إلى تلاوة المخلوقين دون كلام الله الَّذي هو صفة من صفات ذاته.

لأنَّ جميع ما ذكرتم يحتاج إلى مخارج من لسان وشفتين وحلق، والله ـ يتعالى ـ ويتنزَّه عن جميع ذلك.

بل نقول: إنَّ كلامه صفة له قديمة، لا يحتاج فيه إلى أداةٍ من صوت أو حرف أو مخرج، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وكذلك ما ذكرتم من الحصر والعدِّ والأوَّل والآخر، إنَّما ذلك راجع إلى تلاوة المخلوقين لكلامه، وكتابتهم لكلامه دون كلامه الَّذي هو صفة له، وقد بيَّن ذلك ﷺ بأظهر بيان لمَنْ كان له فهمٌ صحيح؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعلوم أنَّ الكاتب منَّا يكتب عدَّة مصاحف بمحبرة واحدة، ويتلو التَّالي منَّا عدَّة ختمات، فالمحصور والمعدود، والمعدود الَّذي يتَّصف بأوَّل وآخر صفاتنا من تلاوتنا لكلامه، وخطُّنا لكلامه، وحفظنا لكلامه.

فأمَّا صفته الَّتي هي كلامه على الحقيقة لا تتَّصف بالزَّوال والحصر والعدِّ، والأوَّل والآخر على ما أخبر به سبحانه على مقتضى التَّحقيق.

لأنَّ كلَّ ما اتَّصف بالبداية والفراغ، والحصر والعدِّ، فإنَّما هي صفة المخلوق لا صفة الخالق القديمة بقِدَمه، الموجودة بوجوده، الَّتي لا يجوز عليها أن تتقدَّم عليه ولا تتأخَّر عنه،

فاعلم هذه الجملة وتحقَّقها؛ تسلم من ضلالة الفريقين، وتخلص من جهل الطَّائفتين، والله أعلم». كذا في «الإنصاف»[١].

وبعبارةٍ أخرى:

قال السَّيِّد الجرجاني في الجواب عمَّا ذكره العلامة الزمخشري في مقدِّمة «الكشَّاف»: «أنَّ الاستدلال بهذه الصِّفات إنَّما هو على حدوث العبارات المنظومة ردًّا على الحنابلة (القائلين بأنَّ ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه عين كلام الله تعالى)[٢]، لا على القائلين بالكلام النَّفسي لاعترافهم بحدوث هذه العبارات، ويُسمُّونها كلامًا لفظيًّا، لكنَّهم يدَّعون أنَّ هناك كلامًا نفسيًّا قديمًا قائمًا به تعالى. ولا خفاء أنَّ الصِّفات الَّتي استدلَّ بها على الحدوث؛ مخصوصة بالقرآن اللفظي، ولا دلالة على انتفاء القرآن بمعنى الكلام النَّفسي».

انتهى كلام السَّيِّد السند[٣].

وحاصله: أنَّ القرآن كما يُطلق على الكلام النَّفسي القائم بذاته تعالى، يُطلق على المُنتظم من الحروف والكلمات، والسُّور والآيات المُنزَّل على الرَّسول ﷺ بلسان عربي مبين، المقروء والمحفوظ المسموع، لكونها دلالات القرآن، أي: الكلام النَّفسي القائم به تعالى وعبارات عنه، وأنَّها عينُه.

وإطلاق اسم المدلول على الدَّالِّ، وكذا إجراء صفات الدَّالِّ على المدلول شائع ذائع، فصفات الحدوث كلُّها راجعة إلى الدَّلالات والعبارات وإلى المدلول.

---

(١) «الإنصاف»: صـ٧٥.

(٢) العبارة بين القوسين مأخوذة من «نهاية الإقدام»: صـ: ١٧٧، للشهرستاني، حيث قال: «قالت السَّلف والحنابلة: قد تقرَّر الاتفاق على أنَّ ما بين الدَّفَّتين كلام الله، وأنَّ ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه عين كلام الله، فيجب أن يكون الكلمات والحروف هي بعينها كلام الله، ولمَّا تقرَّر الاتِّفاق على أنَّ كلام الله غير مخلوق فيجب أن تكون الكلمات أزليَّة غير مخلوقة»، اهـ. وقد تقدَّم الجواب عنه مفصَّلًا. (المؤلف).

(٣) «الحاشية على الكشاف»: صـ٨٩.

انظر «إشارات المرام من عبارات الإمام»[١].

والوجه الثَّاني:

أنَّ القرآن معجزة لرسول الله ﷺ وآية على صِدقه، والمعجزة لا تكون إلَّا فِعلًا خارقًا للعادة، واقعًا على حسب تحدِّي النَّبيِّ ﷺ، ويستحيل أن يكون القديم مُعجزًا ولو جاز تقدير كلام قديم أزليٍّ قائم بنفسه تعالى مُعجزًا؛ لجاز تقدير العلم القديم مُعجزًا.

كذا في «الإرشاد» لإمام الحرمين[٢].

والجواب عنه:

أنَّ القرآن معجزة من حيث إنَّه تنزيل ربِّ العالَمين، نزل به الرُّوح الأمين على قلب سيِّد الأوَّلين والآخرين، بلسان عربي مبين.

وإنَّما تحدَّى النَّبيُّ ﷺ العرب العرباء بهذا النَّظم العربي الَّذي نظمه الله تعالى، وأنزله علينا لنقرأه بألسنتنا ونكتبه في مصاحفنا، لا يَقدر أحدٌ أن يأتيَ بمثله. فإنَّ المعجزة لا تكون مقدورة للعبد.

فالقرآن معجزة باعتبار هذا النَّظم المُنزَّل المُعجِز، لا باعتبار الصِّفة القديمة القائمة بذاته تعالى، ويُسمَّى الكلُّ قرآنًا، لكن ما قام بألسنتنا وما كتبَتْه أقلامنا هو حادث، وهو بهذا الاعتبار مُعجزة.

فما قام بالحقِّ سبحانه هو قديم أزليٌّ صفة من صفاته، لا مُعجزة من معجزات نبيِّه ﷺ، وإنَّ النَّظم العربيَّ الَّذي نزل به جبريل على قلب النَّبيِّ ﷺ هو مَظهر ومرآة للمعنى القديم القائم بذاته سبحانه لا عين الصِّفة القديمة، فإنَّ العربيَّ والعبريَّ صفة المنظوم لا صفة كلام الله القديم بذاته تعالى.

---

(١) «إشارات المرام»: صـ١٤٨.

(٢) «الإرشاد»: صـ١١٠.

ويُطلق اسم الإنزال على كلام الله سبحانه بإنزال هذا المنظوم الدَّالِّ عليه، وزعمت الحنابلة أنَّ ما نقرؤه ونسمعه ونكتبه هو عين كلام الله القديم، ويُنكره أهلُ الحقِّ ويقولون: لا يتصوَّر العقل أن يكون ما قام بألسنتنا الحادثة وصار صفة لنا هو عين ما قام بالحقِّ سبحانه وعين صفته القديمة الأزليَّة؛ لأنَّ قيام القديم بالحادث مُحالٌ ببداهة العقل.

فظهر أنَّ ما يظهر على ألسنتنا هو مَظهر ومرآة لكلامه القديم لا مَحلًّا له ولا ظرفًا له؛ إذْ لا يُمكن حلول القديم في الحادث ولا يُمكن امتزاجه به، فثبت أنَّ الكلمات والحروف الَّتي نقرؤها بألسنتنا إنَّما هي مَظاهر ومرايا للحروف القدسيَّة الأزليَّة القائمة بذات الحقِّ سبحانه، والكلُّ يُسمَّى قرآنا حقيقة لا يجوز نفيُ القرآن عنهما.

لكن القرآن معجزة باعتبار ظهورها على ألسنتنا الحادثة، لا باعتبار قيامه بذات الحقِّ سبحانه، ألَا ترى أنَّ جبريل ﷺ كان يَظهر في صورة دحية، فيجوز أن يُقال: هذا جبريل حقيقة، وأنِّي رأيت جبريل حقًّا وحقيقة.

فكذلك إذا ظهر كلام الله في كسوة النَّظم العربي يجوز أن يُقال: قرأتُ كلام الله حقيقة، وسمعتُ كلام الله حقيقة بلا مَجاز، فالحدوث راجع إلى كسوة الكلام القديم ولباسه لا إلى اللابس، فإنَّ النَّظم العربي كسوة للكلام القديم ولباس له، لا عينه، فالمعجزة إنَّما هي اللباس والكسوة لا اللابس، فافهم ذلك واستقم.

والثَّالث:

أنَّ كلامه تعالى يشتمل على أمرٍ ونهي، واعتبار واستخبار، ونداء، وغير ذلك. فلو كان الأمر أزليًّا لزم الأمر بلا مأمور والنَّهي بلا منهيٍّ، والإخبار بلا سامع، والنِّداء والاستخبار بلا مُخاطَب، وكلُّ ذلك سفَهٌ وعبث، كيف يُتصوَّر ثبوته لله ﷻ؟!

والجواب:

أنَّ السَّفَهَ أو العبث إنَّما يلزم إذا خُوطب المعدوم وأُمر في حال عدمه، وأمَّا على

تقدير وجوده بأن يكون طلبًا للفعل ممَّن سيكون؛ فلا، كما في طلب الرَّجل تعلُّم ولده الَّذي أخبره صادق بأنَّه سيُولد، وكما في خطاب النَّبيِّ ﷺ بأوامره ونواهيه كلَّ مُكلَّف يُولد إلى يوم القيامة، وأيضًا الكلام وإن كان قديمًا لكنَّ تعلُّقه بالمُكلَّف حادث يحدث بحدوثه وينقطع بعدمه.

والرَّابع:

أنَّ الأمر لو كان أزليًّا لكان التَّكليف باقيًا أبدًا حتَّى في دار الجزاء؛ لأنَّ ما ثبت قدمه امتنع عدمه.

والخامس:

أنَّه لو كان الكلام أزليًّا لمَا اختصَّ مكالمة موسى عليه السلام بالطُّور، بل استمرَّ أزلًا وأبدًا، واللازم باطل إجماعًا فالملزوم مثله.

والجواب عن هذين الوجهين:

أنَّ الكلام وإن كان أزليًّا لكنَّ تعلقاته بالأشخاص والأفعال حادثةٌ بإرادة من الله تعالى واختيار منه، فيتعلَّق الأمر بصلاة زيد مثلًا بعد بلوغه، وينقطع عند موته، ويتعلَّق الكلام بموسى عليه السلام في الطُّور، فالمُختصُّ بالطُّور سماع الكلام وظهوره.

كذا في «شرح المقاصد»[1].

والسَّادس وهو قريب من الخامس:

أنَّ كلامه تعالى لو كان قديمًا لاستوى نسبتُه إلى جميع المُتعلَّقات؛ لأنَّه يكون جاريًا مجرى علمه في تعلُّقه بمتعلَّقاته لذاته، فكما أنَّ علمه يتعلَّق بجميع ما يصلح أن يُعلم، فكذلك كلام الله يتعلَّق بكلِّ ما يصحُّ تعلُّقه به.

---

(١) «شرح المقاصد»: ٤/ ١٦٢.

والجواب:

أنَّه لا يلزم من كون الصِّفة قديمةً عمومُ تعلُّقها كالإرادة القديمة، فإنَّها تتعلَّق ببعض دون بعض.

كذا في «نهاية العقول» للإمام الرازي[1]، و«شرح المواقف»[2].

وأمَّا الوجوه السَّمعية خمسة أيضًا

الأوَّل:

أنَّ القرآن ذِكْر لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] ونحو ذلك.

والذِّكْر حادث لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥]، فإنَّما يدلَّان على أنَّ الذِّكر مُحدَث، فيكون القرآن مُحدَثًا.

والجواب[3]:

أنَّ الإنزال حادث والمُنزَّل قديم، والذِّكر حادث والمذكور قديم، فحدوثه باعتبار تنزيله إلينا، لا باعتبار نفسه، كما أخرج البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب عن شيءٍ وعندكم كتاب الله أقرب الكتُب عهدًا بالله، تقرؤونه محضًا لم يشب»، وفي رواية عنه: «وكتابكم يحدث الأخبار بالله محضًا لم يشب»، والمراد: حديث العهد بالنُّزول من الله ﷻ.

وأخرج ابن أبي حاتم بسندٍ حسن عن كعب الأحبار: «عليكم بالقرآن؛ فإنَّه أحدث

---

(١) «نهاية العقول في دراية الأصول»: ٢/ ٣٢٥.

(٢) «شرح المواقف»: ٨/ ١١٠.

(٣) راجع «الإنصاف»: صـ٩٢. (المؤلف).

الكتب عهدًا بالرَّحمن». كما في «فتح الباري»[١].

جواب آخر:

وقال الإمام الأشعري ما حاصله: أنَّ المراد بالذِّكر وعظ الرَّسول ﷺ وتذكيره وتحذيره من المعاصي، وهو الَّذي كان يحدث ويتجدَّد لهم، وليس المُراد به القرآن حتَّى يُوجب كونه محدَثًا.

كذا في كتاب «الإبانة»[٢]، وليراجع «فتح الباري»، باب قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩][٣].

والثَّاني:

أنَّه تعالى أخبر كثيرًا بلفظ الماضي نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: ١]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النساء: ١٦٣]، و﴿أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ [يونس: ١٣]، فلو كان كلامه أزليًّا؛ لزم الكذب في إخباره؛ لأنَّ صدقه يقتضي سبق وقوع النِّسبة، ولا يُتصوَّر السَّبق على الأزل.

والجواب:

أنَّ كلامه تعالى في الأزل لا يتَّصف بالماضي والحال والاستقبال، وإنَّما يتَّصف بذلك فيما لا يزال بحسب التَّعلُّقات وحدوث الأزمنة والأوقات. كذا في «شرح المقاصد»[٤]، و«شرح التجريد».

وقال الإمام قدَّس اللهُ سرَّه: «كما أنَّ عِلم الله تعالى بأنَّ الشَّيء سيُوجد يكون علمًا بعد

---

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٩٩.

(٢) «الإبانة»: صـ١٠٢.

(٣) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٩٧.

(٤) «شرح المقاصد»: ٤/ ١٥٩.

دخوله في الوجود، من غير وقوع تغيُّر في العلم، كذلك خبرُ الله المُتعلِّق بأنَّه سيُرسل نوحًا هو بعينه يكون خبرًا بعد ذلك على أنَّه أرسله من غير تغيُّر». كذا في «نهاية العقول»[١].

والثَّالث:

أنَّ كلام الله تعالى يصحُّ عليه النَّسخ باتِّفاق المسلمين، والنَّسخ عبارة عن الرَّفع؛ والانتهاء عمَّا على القديم مُحالٌ لاستحالة العدم على القديم، فإذن كلام الله ليس بقديم، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ [النحل: ١٠١]، وما يُغيَّر ويُبدَّل فهو مخلوق لا محالة.

والجواب:

أنَّه ليس معنى النَّسخ رفعَ الكلام القديم، بل هو عبارة عن انقطاع تعلُّق كلام الله تعالى بالمُكلَّف القادر العاقل، كما أنَّ قادريَّة الله تعالى كانت متعلِّقة من الأزل إلى الأبد بإيجاد الحادث المُعيَّن، ثُمَّ إنَّه بعد إيجاده إيَّاه ينقطع تعلُّق قادريَّته، هكذا القول في الكلام.

كذا في «نهاية العقول»[٢].

وحاصله: أنَّ معنى نسخ القرآن رفع حُكمه وانقطاع تعلُّقه بالمُكلَّف لا رفع ذاته، فلا يلزم حدوث ذاته، ألَا ترى أنَّ خطاب الله إنَّما يتعلَّق بالقادر العاقل، فإذا طرأ العجز أو الجنون زال التَّعلُّق، فإذا عاد العقل والقدرة عاد التَّعلُّق.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً ﴾: إذا بدَّلْنا حُكمَ آية أو تلاوة آية دون المَتلوِّ القديم، فإنَّ كلامه القديم لا يُغيَّر ولا يُبدَّل، وإنَّما يُتصوَّر التَّبديل في أحكام كلامه أو تلاوة كلامه دون كلامه القديم الَّذي هو صفة من صفات ذاته.

---

(١) «نهاية العقول في دراية الأصول»: ٢/ ٣٢٤.

(٢) «نهاية العقول في دراية الأصول»: ٢/ ٣٢٥.

والرَّابع:

أنَّ القرآن شيءٌ، والأشياء كلُّها مخلوقة بنصِّ التَّنزيل العزيز الحكيم.

والجواب:

أنَّه إن أُريد به أنَّ القرآن شيءٌ بمعنى: موجود، إثباتًا للوجود ونفيًا للعدم؛ فنعم، هو شيء.

وإن أُريد أنَّ الشَّيء اسمٌ له، وأنَّه كالأشياء؛ فلا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، فدلَّ على نفسه أنَّه تعالى شيء لا كالأشياء، فإنَّه تعالى عدَّد أسماءه في كتابه ولم يتَّسم بالشَّيء، ولم يجعل الشَّيء اسمًا من أسمائه.

فكذلك القرآن شيء، لكنَّه ليس كالأشياء، وكون القرآن شيئًا موجودًا ثابتًا لا يدلُّ على أنَّه مخلوق مُحدَث، فإنَّه تعالى موجود ثابت دائم الوجود، ليس بمخلوق، والدَّليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فدلَّ على أنَّ كلامه ليس كالأشياء، وأنَّه غير الأشياء، وأنَّه خارج عن الأشياء، وأنَّه يكون الأشياء، وأيضًا يدلُّ قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] على أنَّ كلامه غير الأشياء المخلوقة وخارج عنها.

وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾ [الروم: ٤]، يعني: من قبل الخلق ومن بعد الخلق، ثمَّ جمع الأشياء المخلوقة في آياتٍ كثيرة أخبر عن خلقها، وأنَّه خلقها بقوله وكلامه، وأنَّ كلامه وقوله غيرها وخارج عنها، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ﴾ [الأنعام: ٧٣].

كذا في كتاب «الحيدة»(١).

---

(١) «الحيدة والاعتذار»: ص٣٥ ـ ٣٨.

جواب آخر:

وهو أنَّ الله تعالى علمًا، فنسأله هل هو داخل في الأشياء المخلوقة أم لا؟

فإن قال: عِلم الله داخل في الأشياء الخارقة؛ فقد شبَّه الله بخلقه الَّذين أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وأيضًا يلزم أن يدخل عليه الجهل قبل حدوث علمه، وهذه صفة المخلوقين، والله أعظم وأجلُّ من أن يُوصف بذلك.

وإن قال: عِلم الله خارج عن جملة الأشياء المخلوقة وغير داخل فيها.

فنقول: إنَّ كلامه أيضًا خارج عن جملة الأشياء المخلوقة غير داخل فيها، كما أخبر تعالى في كتابه أنَّ له نفسًا، حيث قال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]. و﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، لكنَّها غير داخلة في النُّفوس الَّتي تذوق الموت.

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، أفيقول أحد: أنَّ نفس ربِّ العالَمين داخلة في هذه النُّفوس الَّتي تذوق الموت؟

كذا في كتاب «الحيدة»[١].

والحاصل: أنَّ المُراد بقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] الخصوص دون العموم، ومثل هذا في القرآن كثير، مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، ولم يُؤتيا أرضًا ولا سماءً ولا شمسًا ولا قمرًا أو نحو ذلك. وإنَّما المُراد: أُوتينا من كلِّ شيء يليق لِمثلنا.

وكذلك قوله تعالى في قصَّة بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ومعلوم أنَّها لم تُؤتَ النُّبوَّة، ولا تسخير طير، إلى غير ذلك. إنَّما أراد به الخصوص دون العموم. كذا

---

(١) «الحيدة والاعتذار»: صـ٤٦ ـ ٥٤.

في «الإنصاف» للإمام الباقلاني(١).

جواب آخر:

قال العلامة القاري: «وأمَّا استدلالهم بقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]، والقرآن شيء فيكون داخلًا في عموم كلِّ شيء، فيكون مخلوقًا، فمِن أعجب العجب.

وذلك لأنَّ أفعال العباد كلَّها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنَّما يخلقها العباد جميعها، ولا يخلقها الله تعالى.

فأخرجوها من عموم كلِّ شيء، وأدخلوا كلام الله في عمومه، مع أنَّه صفة من صفات الله به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون كلُّ المخلوقات.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففرَّق بين الخلق والأمر وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة، كالعلم والقدرة وغيرهما، فذلك صريح الكفر، فإنَّ علمه شيء وقدرته شيء وحياته شيء، فيدخل ذلك في عموم كلٍّ، فيكون مخلوقًا بعد أن لم يكن، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا».

كذا في «شرح الفقه الأكبر»(٢).

والخامس:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣]، ومعنى جعلناه: خلقناه، لا فرق بينهما، وهُما سواء وواحد.

---

(١) «الإنصاف»: صـ٧٠.

(٢) «شرح الفقه الأكبر»: صـ٦٠.

والجواب:

أنَّ مَنْ جعل (خلق) و(جعل)؛ سواء وواحدًا؛ فقد أبعد وأمحل. وتقوَّل على لغة العرب، وتأوَّل كتاب الله على غير ما أنزل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، فهل يرضى هذا القائل أن يكون المعنى: (**خلقتُم الله عليكم كفيلًا**)، و(**لا تخلقوا الله عُرضة**)؟

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الرعد: ١٦]، فعلى قول هذا القائل يكون المعنى: يخلقون لله البنات، وخلقوا له شركاء، وهو معنًى باطل.

والوجه: أنَّ (جعل) في كتاب الله يحتمل عند العرب معنيين: معنى خلق، ومعنى صيَّر، يُراد به ما يُناسب المقام. كذا في كتاب «الحيدة»(١).

والحاصل: أنَّ الجعل في لغة العرب جاء لمعانٍ مُتعدِّدة: الأوَّل: صار.

والثَّاني: أوجد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

والثَّالث: أخرج شيئًا من شيء، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ [النحل: ٧٢].

والرَّابع: تصيير الشَّيء على حالةٍ مخصوصة، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

والخامس: الحُكم بالشَّيء على الشَّيء، فمثال ما كان منه حقًّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، ومثال ما كان باطلًا: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ

---

(١) «الحيدة والاعتذار»: صـ٦٤.

﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

كذا في «فتح الباري»[١]، وانظر كتاب «الإنصاف» للباقلاني[٢].

وهذا آخر الكلام في مسألة الكلام، وأسأل الله سبحانه أن يجعله سببًا للفوز والفلاح والسُّرور والنَّجاة، واستحقاق الدَّرجات برحمته، فإنَّه أرحم الرَّاحمين وأكرم الأكرمين وأجود الأجودين.

والحمد لله ربِّ العالَمين. وصلَّى الله تعالى على خير خلقه سيِّدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلينا معهم يا خير المسؤولين، ويا خير المُعطين.

قال العبد الضَّعيف:

وكان الفراغ منه يوم الأربعاء التَّاسع من شهر ربيع الثاني

من السَّنَة التَّاسعة والثَّمانين بعد الألف

وثلاثمائة من الهجرة النَّبويَّة على

صاحبها ألف ألف سلام

وألف ألف تحيَّة.

سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عمَّا يصفون،

وسلامٌ على المُرسَلين، والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

(١) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٩٤.

(٢) «الإنصاف»: صـ٧٢.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خاتمة في ذِكر مُلخَّص هذه الفتنة

كيف كان بدءُ فتنة القول بخلق القرآن

وقيام الإمام أحمد بن حنبل في ذلك مقام الصِّدِّيقين رحمه الله

كان أوَّل ظهور القول بخلق القرآن في أيَّام الرَّشيد، إلَّا أنَّ الرَّشيد لم يقل بذلك، وكان النَّاس بين أخذٍ وتركٍ.

فلمَّا ولي المأمون حمل النَّاس على ذلك، ودعا علماءَ الزَّمان إلى القول بخلق القرآن؛ لأنَّه كان قد استحوذ عليه جماعة من المُعتزلة، فأزاغوه عن طريق الحقِّ إلى الباطل، وزيَّنوا له القول بخلق القرآن ونفي صفات عن الله ﷻ، فوافقهم على القول بخلق القرآن، وأعلن برأيه؛ لأنَّه كان في بعض المسائل الخلافيَّة ميَّالًا إلى الاعتزال.

وكان ممَّا وافقهم عليه: القول بخلق القرآن، فأعلن برأيه في ذلك سنة ٢١٣هـ على زعم أنَّه إذا أعلن رأيه للعلماء فإنَّهم يستجيبون لرأيه، ولكن جاء الأمر على عكس ما ظنَّ وزعم، ورماه العلماء والفقهاء بالابتداع، واشتدَّ النِّزاع بين أهل الحقِّ وأهل الباطل، وجرت المباحثات والمناظرات.

ولم يستطع أهلُ الاعتزال أن يغلبوا على أهل السُّنَّة بالبُرهان والحجَّة، ورأى المأمون أنَّ سعيه قد أخفق، وأراد أن يُرغم العلماء بقوَّته وشوكته، كان القاضي أحمد بن أبي دُوَاد[1]

---

(١) لما شاخ ورُمي بالفالج، زاره تلميذ الإمام الشَّافعي الإمام عبد العزيز الكناني، صاحب كتاب «الحيدة» وقال: لم آتِك عائدًا، بل لأحمد الله على أن سجنك في جلدك. «سير أعلام النبلاء»: ١١/ ١٧٠.

معتزليًّا ممَّن نشأ في العلم وتضلَّع بعلم الكلام، وكان رجلًا فصيحًا، وكان معظَّمًا عند المأمون أمير المؤمنين يقبل شفاعاته، ويُصغي إلى كلامه، فدسَّ ابن أبي دواد له القول بخلق القرآن، وحسَّنه عنده وصيَّره يعتقده حقًّا بيِّنًا إلى أن أجمع رأيه في سَنة ثماني عشرة ومائتين (٢١٨هـ) على الدعوة إليه.

فكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، يأمره أن يمتحن القُضاة والمُحدِّثين بالقول بخلق القرآن، وأن يُرسل إليه جماعة منهم، وكتب إليه كتابًا طويلًا مضمونه الاحتجاج على أنَّ القرآن مُحدَث، كما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وكلُّ مُحدَث مخلوق.

ولمَّا ورد كتاب المأمون بغداد قُرِئ على الناس، وقد عيَّن المأمون جماعة من المُحدِّثين ليحضرهم إليه، وهم: محمد بن سعدٍ كاتب الواقِدي، وأبو مسلم [مُستمْلي يزيد بن هارون][1]، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة، وزُهير بن حرب، وإسماعيل بن [أبي][2] مسعود، وأحمد بن الدَّورَقي، فبعث بهم إلى المأمون إلى الرَّقَّة[3] فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه إلى ذلك، وأظهروا موافقته وهم كارهون، فردَّهم إلى بغداد، وأمرهم بإشهار أمرهم بين الفقهاء.

---

(١) في الأصل: «أبو مسلم المستملي، ويزيد بن هارون..» والصَّحيح ما أثبته كما في «البداية والنهاية»: ١١/ ٦٠، و«تاريخ الطبري»: ٨/ ٦٣٤، ومن أسباب ذلك أن يزيد بن هارون تُوفي سنة ٢٠٦هـ وهذه المحنة وقعت في ٢١٨هـ كما مرَّ. وجاء في ترجمة أبي مسلم في «تاريخ بغداد»: ١١/ ٥٣٧: «عبد الرحمن بن يونس بن هاشم، أبو مسلم الرومي، مولى أبي جعفر المنصور، وهو المستملي؛ كان يستملي على سفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون».

(٢) سقط من الأصل، والمثبَت من: «البداية والنهاية»: ١١/ ٦٠، و«كتاب المحنة» رواية أبي علي الشيباني: صـ٨٣.

(٣) مدينة مشهورة على الفرات، معدودة في بلاد الجزيرة لأنَّها من جانب الفرات الشرقي. «معجم البلدان»: ٣/ ٥٩.

ففعل ذلك إسحاق، وأحضر خلقًا من مشايخ الحديث، والفقهاء، وأئمَّة المساجد وغيرهم، فدعاهم إلى ذلك عن أمر المأمون، وذكر لهم موافقة أولئك المُحدِّثين له على ذلك، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم، ووقعت بين النَّاس فتنة عظيمة... فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

۞ ۞ ۞

كتابٌ آخر من المأمون إلى إسحاق

ثمَّ كتب المأمون إلى إسحاق أيضًا بكتاب ثانٍ يستدلُّ به على القول بخلق القرآن، بشُبه من الدَّلائل، لا تحقيق تحتها، ولا حاصل لها، وأورد عليه من القرآن آيات هي حجَّة عليه، أورد ابن جرير ذلك كلَّه(١)، وأمر نائبًا أن يقرأ ذلك على الناس، وأن يدعوهم إليه وإلى القول بخلق القرآن، وأمر نائبه أن يمتحنهم.

ثمَّ وردت من المأمون عدَّة كتب إلى عامله يأمره فيها بامتحان أهل الحديث في مسألة خلق القرآن، وفي بعضها يقول له: فمَن لم يُجب أنَّه مخلوق؛ فامنعْه من الفتوى والرِّواية.

وفي بعضها يأمر عامله بقتل مَنْ لم يقل بخلق القرآن، وفي بعضها يقول: فمَن أجاب منهم شهِّر أمره في الناس، ومَنْ لم يجب منهم فابعثه إلى عسكر أمير المؤمنين مُقيَّدًا مُتحفَّظًا به، حتَّى يصل إلى أمير المؤمنين فيرى فيه رأيه، ومِن رأيه أن يُضرب عنق مَن لم يقل بقوله.

فعند ذلك عقد النَّائب ببغداد مجلسًا آخر، وأحضر أولئك، وفيهم إبراهيم بن المهدي، وكان صاحبًا لبِشر بن الوليد الكندي، وقد نصَّ المأمون على قتلهما إن لم يُجيبا على الفور، فلمَّا امتحنهم إسحاق أجابوا كلُّهم مُكرَهين متأوِّلين قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] الآية.

إلَّا أربعة، وهم: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، والحسن بن حماد سجادة، وعبيد الله بن عمر القواريري، فقيَّدهم وأرصدهم ليبعث بهم إلى المأمون، ثمَّ استدعى بهم في اليوم الثَّاني فامتحنهم، فأجاب سجادة إلى القول بذلك، ثمَّ امتحنهم في اليوم الثَّالث

---

(١) «تاريخ الطبري»: ٨/ ٦٣٥.

فأجاب القواريري إلى ذلك؛ فأطلق قيده.

وأخَّر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجُنْدَيسَابُوري لأنَّهما أصرَّا على الامتناع من القول بذلك، فأكَّد قيودهما وجمعهما في الحديد، وبعث بهما إلى الخليفة وهو بطرسوس، وكتاب كتابًا بإرسالهما إليه، فسارا مُقيَّدين في محارة على جمل مُتعادلين ﵄، وجعل الإمام أحمد يدعو الله ﷻ أن لا يجمع بينهما وبين المأمون، وأن لا يرياه وأن لا يراهما.

ثمَّ جاء كتاب المأمون إلى نائبه أنَّه قد بلغني أنَّ القوم إنَّما أجابوا مُكرَهين متأوِّلين قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ الآية، وقد أخطؤوا في تأويلهم.

فأرسلهم كلَّهم إلى أمير المؤمنين فاستدعاهم إسحاق وألزمهم بالسَّير إلى طَرَسُوس، فساروا إليها، فلمَّا كانوا ببعض الطَّريق بلغهم موت المأمون فرُدُّوا إلى الرَّقَّة، ثمَّ أذِن لهم بالرُّجوع إلى بغداد، وكان أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح قد سبقا النَّاس، ولكن لم يجتمعا به، بل أهلكه اللهُ قبل وصولهما إليها، واستجاب سبحانه دعاء عبده ووليِّه الإمام أحمد بن حنبل، فلم يريا المأمون ولا رآهما، بل رُدُّوا إلى بغداد.

كذا في «البداية والنهاية»[1].

قال الإمام البيهقي[2]: لم يكن في الخلفاء قبل المأمون من بني أمية وبني العباس خليفة إلَّا على مذهب السَّلف ومنهاجهم، فلمَّا أُوتي هو الخلافة اجتمع به جماعة من المعتزلة، فحملوه على القول بخلق القرآن وزيَّنوا له.

واتَّفق خروجه إلى طَرَسوس لغزو الروم، فكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم

---

(١) «البداية والنهاية»: ١١/ ٥٩ ـ ٦٢.

(٢) لعل ذلك في كتابه «مناقب الإمام أحمد» في مجلَّد واحد، ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: ١١/ ٢٥٦، ونقل قطعة كبيرة منه ابن كثير في «البداية»: ١١/ ١٦٠، وكذلك ذكره بكر أبو زيد في «المدخل المفصل»: صـ٤٢٨، وصـ٥١٨، وفؤاد سزكين في «تاريخ التراث العربي»: ٣/ ٢١٧، ولعل الكتاب في عداد المفقود.

بن مصعب يأمره أن يدعوَ النَّاس إلى القول بخلق القرآن، واتَّفق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهور، من سنة ثماني عشرة ومائتين.

فلمَّا وصل الكتاب ـ كما ذكرنا ـ استدعى جماعة من أئمَّة الحديث فدعاهم إلى ذلك، فامتنعوا، فتهدَّدهم بالضَّرب وقطع الأرزاق، فأجاب أكثرهم مُكرَهين، واستمرَّ على الامتناع من ذلك الإمام أحمد بن حنبل، ومحمَّد بن نوح الجنديسابوري، فحُملا على بعير وسُيِّرا إلى الخليفة عن أمره بذلك، وهما مُقيَّدان متعادلان في محملٍ واحدٍ على بعيرٍ واحدٍ.

فلمَّا كان ببلاد الرَّحبة[1]، جاءهما رجل من الأعراب من عبَّادهم، يُقال له: جابر بن عامر، فسلَّم على الإمام أحمد وقال له: يا هذا إنَّك وافدُ النَّاس، فلا تكن شُؤمًا عليهم، وإنَّك رأس النَّاس اليوم، فإيَّاك أن تُجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحبُّ الله تعالى فاصبر على ما أنت فيه، فإنَّه ما بينك وبين الجنَّة إلَّا أن تقتل، وإنَّك إن لم تقتل؛ تمت، وإن عشت؛ عشت حميدًا.

فجعل ـ رحمه الله ـ يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله، ثمَّ قال لي: يا أبا جعفر أعدْ عليَّ ما قلت، فأعدتُ عليه، وهو يقول: ما شاء الله، ما شاء الله. «تاريخ ابن عساكر»[2].

قال أحمد: وكان كلامه ممَّا قوَّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الَّذي يدعونني إليه.

فلمَّا اقتربا من جيش الخليفة، ونزلوا دونه بمرحلة، جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول: يعزُّ عليَّ يا أبا عبد الله أنَّ المأمون قد سلَّ سيفًا لم يسله قبل ذلك، وإنَّه يُقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تُجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنَّك بذلك السَّيف.

---

(١) وهي رحبة مالك بن طوق، تقع بين الرَّقَّة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل من قرقيسيا. «معجم البلدان»: ٣/ ٣٤.

(٢) «تاريخ ابن عساكر»: ٥/ ٣١٢.

قال: فجثى الإمام أحمد على ركبتيه، ورمق بطرفه إلى السَّماء، وقال: سيِّدي! غرَّ حلمُك هذا الفاجر حتَّى تجرَّأ على أوليائك بالضَّرب والقتل، اللهمَّ فإن يكن القرآنُ كلامك غيرَ مخلوق فاكفنا مؤنته.

قال: فجاءهم الصَّريخ بموت المأمون في الثُّلث الأخير من الليل، قال أحمد: ففرحنا، ثمَّ جاء الخبر بأنَّ المعتصم قد وليَ الخلافة، وقد انضمَّ إليه أحمد بن أبي دواد، وأنَّ الأمر شديد. فردُّونا إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى، ونالني منهم أذًى كثير.

وكان في رجليه القيود، ومات صاحبُه محمد بن نوح في الطَّريق، وصلَّى عليه أحمد، فلمَّا رجع أحمد إلى بغداد دخلها في رمضان، وأُودع في السِّجن نحوًا من ثمانية وعشرين شهرًا، ثمَّ أُخرج إلى الضَّرب بين يدي المعتصم، كما سيأتي ذكره.

❁ ❁ ❁

ذِكر المحنة في أيَّام المعتصم

ثـمَّ لمَّـا مـات المأمـون؛ تولَّى أخـوه المُعتصِـم الخلافة بعده، وسـار علـى طريقة أخيه، فإنَّ المأمون في مرضه قبل وفاته كان أنفذ وصيَّةً إلى أخيه المعتصم بالسَّير على طريقته في مسألة خلق القرآن، والمعتصم وإن لم يكن على جانب عظيم من العلم كما كان المأمون، لكن لأجل رغبته في تنفيذ وصيَّة أخيه سار على طريقته.

فأحيا الفتنة، وأقام سوق المحنة، وكتب إلى البلاد بامتحان النَّاس في مسألة خلق القرآن، وأمر المُعلِّمين أن يُعلِّموا الصِّبيان أنَّ القرآن مخلوق، وقتل في ذلك خلقًا من العلماء، وأهان كثيرًا من أهل الحديث، لا سيَّما الإمام أحمد بن حنبل الَّذي أصرَّ على امتناعه من القول بخلق القرآن، واستمرَّت المحنة إلى أن مات المعتصم سنة ٢٢٧هـ.

۞ ۞ ۞

ذِكر ضرب الإمام أحمد رحمه الله

بين يدي المعتصم عليه من الله ما يستحقُّه

لمَّا مات المأمون وجاء الخبر بأنَّ المعتصم قد ولي الخلافة، وقد انضمَّ إليه أحمد بن دواد؛ رُدَّ أحمد بن حنبل مع رُفقائه إلى بغداد في سفينة، وكان في رجليه القيود، ومات صاحبه محمد بن نوح، وصلَّى عليه أحمد، فلمَّا رجع أحمد إلى بغداد دخلها في رمضان.

فأُودع في السِّجن نحوًا من ثمانية وعشرين شهرًا، وقيل: نيفًا وثلاثين شهرًا، ثمَّ أُخرج على الضَّرب بين يدي المعتصم، وقد كان أحمد يُصلِّي في السِّجن والقيود في رجليه، ولمَّا أحضره المعتصم من السِّجن زاد في قيوده.

قال أحمد: فلم أستطع أن أمشيَ بها فربطتها في التِّكَّة وحملتُها بيدي، ثمَّ جاءوني بدابَّة فحُمِلتُ عليها فكِدتُ أن أسقطَ على وجهي من ثِقل القُيود، وليس معي أحدٌ يُمسكني، فسلَّم الله حتَّى جئنا دار المعتصم، فأُدخِلتُ في بيت وأُغلِق عليَّ، وليس عندي سراجٌ، فأردتُ الوضوء فمدَدتُ يدي فإذا إناءٌ فيه ماء فتوضَّأت منه، ثمَّ قُمتُ ولا أعرف القِبلة، فلمَّا أصبحتُ إذا أنا على القِبلة ـ ولله الحمد ـ، ثمَّ دُعيت فأُدخلت على المعتصم، فلمَّا نظر إليَّ وعنده ابن أبي دواد قال: أليس قد زعمتم أنَّه حدثُ السِّنِّ وهذا شيخٌ مكتهل؟

فلمَّا دنوتُ منه، وسلَّمتُ قال لي: ادْنُه، فلم يزل يُدنيني حتَّى قربت منه، ثمَّ قال: اجلس! فجلستُ وقد أثقلني الحديد، فمكثتُ ساعة ثمَّ قلتُ: يا أمير المؤمنين إلامَ دعا إليه ابن عمِّك رسول الله ﷺ؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله. قلتُ: إنِّي أشهد أن لا إله إلَّا الله. قال: ثمَّ ذكرتُ له حديث ابن عباس في وفد عبد القيس(١)، ثمَّ قلت: فهذا الَّذي

---

(١) حديث: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، الإيمان بالله هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلاَّ =

دعا إليه رسول الله ﷺ.

قال: ثمَّ تكلَّم ابن أبي دواد بكلام لم أفهمْه، وذلك أنّي لم أتفقَّه كلامه، ثمَّ قال المعتصم: لولا أنّك كنت في يد مَن كان قبلي لم أتعرَّض إليك.

ثمَّ قال: يا عبد الرحمن ألم آمرْك أن ترفع المحنة؟ قال أحمد: فقلتُ: الله أكبر، هذا فرجٌ للمسلمين، ثمَّ قال: ناظِرْه يا عبد الرحمن، كلِّمه.

فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟ فلم أجبْه، فقال المعتصم: أجبْه. فقلتُ: ما تقول في العِلم؟ فسكت، فقلتُ: القرآن من عِلم الله، ومَن زعم أنَّ علم الله مخلوق؛ فقد كفر بالله، فسكت.

فقالوا فيما بينهم: يا أمير المؤمنين كفَّرك وكفَّرنا، فلم يلتفتْ إلى ذلك، فقال عبد الرحمن: كان اللهُ ولا قرآن، فقلتُ: كان الله ولا عِلم؟ فسكت، فجعلوا يتكلَّمون من هاهنا وهاهنا، فقلتُ: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سُنَّة رسوله حتى أقول به.

فقال: ابن أبي دواد: وأنت لا تقول إلَّا بهذا وهذا؟ فقلتُ: وهل يقوم الإسلام إلَّا بهما. وجرت مناظرات طويلة، واحتجُّوا عليه بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وبقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وأجاب بما حاصله: أنّه عامٌّ مخصوص بقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

فقال ابن أبي دواد: هو والله يا أمير المؤمنين ضالٌّ مُضِلٌّ مبتدع، وهنا قُضاتك والفقهاء فسلْهم، فقال لهم: ما تقولون؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دواد، ثمَّ أحضروه في اليوم الثَّاني وناظروه أيضًا ثمَّ في اليوم الثَّالث، وفي ذلك كلِّه يعلو صوته عليهم وتغلب حجَّتُه حججهم.

= الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تُعطوا من المغانم الخمس. وأنهاكم عن أربع ما انتبذ في الدباء والنقير والحنتم والمزفت» أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: وفد عبد القيس: ٤٣٦٨.

قال: فإذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابنُ أبي دواد، وكان من أجهلهم بالعلم والكلام، وقد تنوَّعت بهم المسائل في المجادلة، ولا علم لهم بالنَّقل، فجعلوا يُنكرون الآثار ويردُّون الاحتجاج بها.

وسمعتُ منهم مقالات لم أكن أظنُّ أنَّ أحدًا يقولها، وقد تكلَّم معي ابن غوث[1] بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه، فقلتُ: لا أدري ما تقول إلَّا أنِّي أعلم أنَّ الله أحدٌ صمدٌ، ليس كمثله شيء، فسكت عني.

وقد أوردتُ لهم حديث الرُّؤية في الدار الآخرة، فحاولوا أن يُضعِّفوا إسناده، ويُلفِّقوا عن بعض المُحدِّثين كلامًا يتسلَّقون به إلى الطَّعن فيه، وهيهات، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾؟

وفي غُضون ذلك كلِّه يتلطَّف به الخليفة ويقول: يا أحمد أجبني إلى هذا حتَّى أجعلك من خاصَّتي وممَّن يطأ بساطي. فأقول: يا أمير المؤمنين، يأتوني بآيةٍ من كتاب الله أو سُنَّة عن رسول الله ﷺ حتَّى أجيبهم إليها.

واحتجَّ أحمد عليهم حين أنكروا الآثار بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وبقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وبقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ١٤]، وبقوله: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، ونحو ذلك من الآيات.

فلمَّا لم يقم لهم معه حجَّة، عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة، فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا كافرٌ ضالٌّ مُضِلٌّ. وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تُخلِّي سبيله ويغلب خليفتين، فعند ذلك حَمِي واشتدَّ غضبُه، وكان أليَنهم عريكة،

---

(١) في هامش الأصل: لعله ابن غياث وهو المريسي. (المؤلف).

قلت: لعله برغوث كما في «كتاب المحنة»: صـ١٠٥، و«البداية والنهاية»: ١١/ ١٧٣، وهو محمد بن عيسى الجهمي، رأس البدعة، أحد مَن كان يُناظر الإمام أحمد وقت المحنة، توفي سنة ٢٤٠هـ.

وهو يظنُّ أنَّهم على شيء. قال أحمد فعند ذلك قال لي: لعنَك الله، طمعتُ فيك أن تُجيبني فلم تُجبني، ثمَّ قال: خذوه واخلعوه واسحبوه.

قال أحمد: فأُخِذتُ وسُحِبت وخُلِعت، وجِيء بالعُقابين[1] والسِّياط وأنا أنظر. وكان معي شعراتٌ من شعر النَّبيِّ ﷺ مَصرورة في ثوبي، فجرَّدوني منه وصِرتُ بين العُقابين، فقلت: يا أمير المؤمنين، الله الله، إنَّ رسول الله ﷺ قال: **«لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلَّا الله إلَّا بإحدى ثلاث»**[2]، **«أُمرت أن أقاتل النَّاس حتَّى يقولوا لا إله إلاَّ الله، فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم»**[3]، فبِمَ تستحلُّ دمي ولم آتِ شيئًا من هذا؟

يا أمير المؤمنين، اذكر وقوفك بين الله كوقوفي بين يديك، فكأنَّه أمسك. ثمَّ لم يزالوا يقولون له: يا أمير المؤمنين، إنَّه ضالٌّ مُضِلٌّ كافرٌ، فأمر بي فقمتُ بين العُقابين وجِيء بكرسي فأُقمتُ عليه، وأمرني بعضهم أن آخذ بيدي بأيِّ الخشبتين فلم أفهم، فتخلَّعت يداي، وجِيء بالضَّرَّابين ومعهم السِّياط، فجعل أحدُهم يضربني سوطين ويقول له ـ يعني المعتصم ـ: شُدَّ قطع الله يديك، ويجيء الآخر فيضربني سوطين ثمَّ الآخر كذلك، فضربوني أسواطًا فأُغمِي عليَّ وذهب عقلي مرارًا.

فإذا سكن الضَّرب يعود عليَّ عقلي، وقام المعتصم إليَّ يدعوني إلى قولهم فلم أجبه، وجعلوا يقولون: ويحك! الخليفة على رأسك، فلم أقبل؛ وأعادوا الضَّرب ثمَّ عاد إليَّ فلم أجبه، فأعادوا الضَّرب ثمَّ جاء إليَّ الثَّالثة، فدعاني فلم أعقل ما قال من شدَّة الضَّرب، ثمَّ أعادوا الضَّرب فذهب عقلي فلم أحسَّ بالضَّرب، وأرعبه ذلك من أمري وأمر بي فأُطلِقت.

---

(١) العُقابان: خشبتان يشبح الرجل بينهما الجلد. «لسان العرب»: ١/ ٦٢١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدِّيات، باب: قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ﴾ [المائدة: ٤٥]: ٦٨٧٨، ومسلم في كتاب: القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم: ١٦٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥]: ٢٥، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال النَّاس حتى يقولوا: لا إله إلَّا الله: ٢١.

ولم أشعر إلَّا وأنا في حجرةٍ من بيت، وقد أُطلِقت الأقياد من رجلي، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين.

ثمَّ أمر الخليفة بإطلاقه إلى أهله، وكان جملة ما ضُرب نيفًا وثلاثين سوطًا، وقيل ثمانين سوطًا، لكن كان ضربًا مُبرِّحًا شديدًا جدًّا. وقد كان الإمام أحمد رجلًا طوالًا رقيقًا، أسمر اللون كثير التَّواضُع ﷺ.

ولمَّا حُمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم، أتوه بسَويق ليُفطر من الضَّعف، فامتنع من ذلك وأتمَّ صومه، وحين حضرت صلاة الظُّهر صلَّى معهم، فقال له ابن سَماعة القاضي: وصلَّيتَ في دمك؟ فقال له أحمد: قد صلَّى عمر وجرحُه يَثْعَب دمًا، فسكت.

ويُروى أنَّه لمَّا أُقيم ليُضرب انقطعت تِكَّة سراويله، فخشي أن يسقط سراويله فتُكشف عورتُه، فحرَّك شفتيه فدعا الله فعاد سراويله كما كان، ويُروى أنَّه قال: يا غيَّاث المُستغيثين، يا إله العالَمين، إن كنت تعلم أنِّي قائم لك بحقٍّ فلا تهتك لي عورتي.

كذا في «البداية والنهاية»[1].

ورُوي أنَّه لمَّا ضُرب سوطًا قال: بسم الله، فلمَّا ضُرب الثَّاني قال: لا حول ولا قوة إلَّا بالله، فلمَّا ضُرب الثَّالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلمَّا ضُرب الرَّابع قال: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، فضربه تسعة وعشرين سوطًا.

وكانت تِكَّة أحمد حاشية ثوب فانقطعت، فنزل السَّراويل إلى عانته، فرَمى بطرفه إلى السَّماء وحرَّك شفتيه، فما كان أسرع من ثبوت السَّراويل على حاله لم تتزحزح.

قال الرَّاوي: فدخلتُ على أحمد بعد سبعة أيَّام، فقلتُ: يا أبا عبد الله رأيتُك وقد انحلَّ سراويلك، فرفعتَ طرفك نحو السَّماء فثبت، ما الَّذي قلت؟ قال: قلتُ: اللهمَّ إنِّي أسألك باسمك الَّذي ملأت به العرشَ؛ إن كنت تعلم أنِّي على الصَّواب فلا تهتك لي سترًا.

---

(١) «البداية والنهاية»: ١١/ ١٧١ ـ ١٧٥.

وفي رواية: لمَّا أقبل الدَّم من أكتافه انقطع خيطُ السراويل ونزل، فرفع طرفه إلى السَّماء فعاد من لحظته، فسُئل أحمد فقال: قلت: إلهي وسيِّدي، وقفتني هذا الموقف فلا تهتكني على رؤوس الخلائق.

ورُوي أنَّه كان كلَّما ضُرب سوطًا أبرأ ذمَّة المعتصم، فسُئل؛ فقال: كرهتُ أن آتيَ يوم القيامة، فيُقال: هذا غريم ابن عمِّ النَّبيِّ ﷺ، أو رجل من أهل بيت النَّبيِّ ﷺ.

كذا في «الطبقات، طبقات الشافعية الكبرى»[1].

ولمَّا رجع إلى منزله جاءه الجرائحي، فقطع لحمًا ميتًا من جسده، وجعل يُداويه والنَّائب في كلِّ وقت يسأل عنه، وذلك أنَّ المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندمًا كثيرًا، وجعل يسأل النَّائب عنه والنَّائب يستعلم خبره، فلمَّا عُوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك.

ولمَّا شفاه الله بالعافية بقيَ مدَّة وإبهاماه يُؤذيهما البردُ، وجعل كلَّ مَن آذاه في حِلٍّ إلَّا أهل البدعة، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ [النور: ٢٢] الآية، ويقول: ماذا ينفعك أن يُعذِّب أخوك المسلم بسببك؟ وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، ويُنادي المُنادي يوم القيامة: «لِيَقُم مَنْ أجرُه على الله فلا يقوم إلَّا مَنْ عفا»[2].

وكان الَّذين ثبتوا على الفتنة فلم يُجيبوا بالكُلِّيَّة هم خمسة:

(١) أحمد بن حنبل، وهو رئيسهم.

(٢) ومحمَّد بن نوح بن ميمون الجنديسابوري، ومات في الطَّريق.

(٣) ونُعيم بن حماد الخُزاعي، وقد مات في السِّجن.

(٤) وأبو يعقوب البُوَيْطي، وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن. وكان مثقلًا بالحديد.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٢/ ٥١.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»: ٦٥٣، والخرائطي في «مكارم الأخلاق»: ٣٧٩.

(٥) وأحمد بن نصر الخزاعي، وقد ذكرنا كيفيَّة مقتله.

كذا في «البداية والنهاية»[١].

وكان الإمام أحمد عالِمًا بما ورد عليه من الابتلاء، فقد رَوى البيهقي عن الرَّبيع قال: «بعثني الشَّافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل، فأتيتُه وقد انفتل من صلاة الفجر، فدفعت إليه الكتاب، فقال: أقرأته؟

فقلت: لا، فأخذه فقرأه، فدمعت عيناه، فقلتُ: يا أبا عبد الله ما فيه؟ فقال: يذكر أنَّه رأى رسول الله ﷺ في المنام، فقال: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، واقرأ عليه مني السَّلام، وقل له: إنَّك ستُمتَحَن وتُدعى على القول بخلق القرآن؛ فلا تُجبْهم، يرفع الله لك علمًا إلى يوم القيامة.

قال ربيع: فقلتُ: حلاوة البشارة، فخلع قميصه الَّذي على جلده، فأعطانيه، فلمَّا رجعتُ إلى الشَّافعي أخبرته، فقال: إنِّي لستُ أفجعك فيه، ولكن بُلَّه بالماء وأعطنيه، حتَّى أتبرَّك به»[٢].

ذِكر المحنة في أيَّام الواثق

لمَّا مات المعتصم سنة ٢٢٧هـ تولَّى بعده ابنُه محمد الواثق الخلافة، فأحيا الفتنة، وأقام سوق المحنة، وفي سنة ٢٣١هـ أصدر أمره إلى أمير البصرة بامتحان العلماء بخلق القرآن، وأظهر الغِلظة لمَن قال بخلاف رأيه، وشدَّد المحنة حتَّى قتل في ذلك بعض أهل العلم.

رجوع الواثق عن المحنة والشِّدَّة

لمَّا تولَّى الواثق الخلافة، سار على طريقة أبيه المعتصم في الشِّدَّة والغِلظة على علماء

---

(١) «البداية والنهاية»: ١١/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) «البداية والنهاية»: ١١/ ١٧٠.

الزَّمان في مسألة خلق القرآن، وساعده على ذلك وزيرُه أحمد بن أبي دواد، وكان من رؤوس الاعتزال، حتَّى إنَّ أحمد هذا يقول: مَن قال من الأسارى: القرآن مخلوق خَلِّصوه وأعطوه دينارين، ومَن امتنع دَعوه في الأسر.

قال الخطيب: «كان أحمد ابن أبي دواد قد استولى على الواثق وحمَله على التَّشدُّد في المحنة، ودعا النَّاس إلى القول بخلق القرآن»[1].

واستمرَّ ذلك حتَّى ملَّ الواثق المحنة، وسئمتها نفسُه، فرجع عنها في آخر عمره.

هذا أبو عبد الرَّحمن بن محمد الأذرمي، شيخ أبي داود والنسائي، يُحمَل مُكبَّلًا بالحديد من بلاده إلى الواثق، فسأله ابنُ أبي دواد في مجلس الواثق عن قوله في القرآن، فقال له الشَّيخ: هذا الَّذي تقوله يا ابن أبي دواد من خلق القرآن؛ شيءٌ علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﵃ أو جهلوه؟ فقال: بل علموه، قال: فهل دعوا النَّاس إليه كما دعوتهم أنت أو سكتوا؟ فقال: بل سكتوا، قال: فهلا وسعك ما وسعهم من السُّكوت!؟

فبُهتوا، وضحك الواثق، وقام قابضًا على فمِه وهو يقول: هل وسِعك ما وسعهم! ويُكرِّرها. ثمَّ أمر أن يُعطى الرجل ثلاثمائة دينار، ويُردَّ إلى بلده، ولم يَمتحن أحدًا بعدها، وسخط على ابن أبي دواد من يومئذ.

حكاية أخرى

١ ـ قال الإمام الشَّاطبي: «حُكي أنَّه أُقدم على الواثق شيخٌ من أهل الفقه والحديث، من أذَنة[2]، من الثَّغر الشَّامي مُقيَّدًا طوالاً، حَسن الشَّيبة، فسلَّم غير هائبٍ، ودعا فأوجز. وقال

---

(١) «تاريخ بغداد»: ١٦/ ٢٥.

(٢) أذَنة: وتسمى أيضًا (أضنة) بلدة كانت من الثغور الشامية قرب المصِّيصة، تقع على نهر سيحان في منطقة كليكيا، وهي اليوم من مدن التركية، خرج منه جماعة من أهل العلم، وسكنه آخرون. «معجم البلدان»: ١/ ١٣٣، و«تعريف بالأماكن الواردة في البداية»: ١/ ٢٤.

الرَّاوي: فرأيتُ الحياء منه في حماليق عيني[1] الواثق، والرَّحمة عليه، فقال: يا شيخ أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دواد عمَّا يسألك عنه.

فقال: يا أمر المؤمنين، أحمد يصغُر ويضعُف ويَقِلُّ عند المناظرة، فرأيتُ الواثق وقد صار مكان الرَّحمة غضَبًا عليه، فقال: أبو عبد الله يصغُر ويضعُف ويَقِلُّ عند مناظرتك؟! فقال: هوِّن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه؟ فقال له الواثق: قد أذِنتُ لك، فأقبل الشَّيخ على أحمد، فقال: يا أحمد إلامَ دعوتَ النَّاس؟ فقال أحمد: إلى القول بخلق القرآن، فقال له الشَّيخ: مقالتُك هذه الَّتي دعوتَ النَّاس إليها من القول بخلق القرآن أداخلةٌ في الدِّين، فلا يكون الدِّين تامًّا إلَّا بالقول بها؟

قال: نعم، قال الشَّيخ: فرسول الله ﷺ دعا النَّاس إليها أم تركهم؟ قال: لا، قال له: يَعلمها أم لم يعلمها؟ قال: علمها، قال: فلِمَ دعوتَ النَّاس على ما لم يدعُهم رسول الله ﷺ إليه وتركهم منه، فأمسك، فقال الشَّيخ: يا أمير المؤمنين، هذه واحدة.

٢ ـ ثمَّ قال له: أخبرني يا أحمد! قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية، فقلتَ أنت: الدِّين لا يكون تامًّا إلَّا بمَقالتك بخلق القرآن، فالله ﷻ صدَق في تمامه وكماله أم أنت في نقصانك؟ فأمسك. فقال الشَّيخ: يا أمير المؤمنين، وهذه ثانية.

٣ ـ ثمَّ قال بعد ساعة: أخبرني يا أحمد! قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، فمَقالتك هذه الَّتي دعوتَ النَّاس إليها فيما بلَّغه رسول الله ﷺ إلى الأمَّة أم لا؟ فأمسك، فقال الشَّيخ: يا أمير المؤمنين، وهذه ثالثة.

٤ ـ ثمَّ قال بعد ساعة: فأخبرني يا أحمد! لمَّا علم رسول الله ﷺ مَقالتك هذه الَّتي

---

(١) حماليق العين: جمع حملاق العين، وهو ممَّا يُسوِّده الكحل من باطن أجفان العين، وقيل: هو ما غطَّته الأجفان من بياض المُقلة، وحَمْلَقَ الرجل: فتح عينه ونظر نظرًا شديدًا. «مختار الصحاح»: صـ١٦٣.

دعوتَ النَّاس إليها، اتَّسع له عن أن أمسك عنهم أم لا؟ قال أحمد: بل اتَّسع له ذلك، فقال الشَّيخ: وكذلك لأبي بكر، وكذلك لعمر، وكذلك لعثمان، وكذلك لعليٍّ ﷺ، قال: نعم.

فصرف وجهه إلى الواثق وقال: يا أمير المؤمنين، إذا لم يتَّسع لنا ما اتَّسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه، فلا وسَّع الله علينا، قال الواثق: نعم، لا وسَّع الله علينا إذا لم يتَّسع لنا ما اتَّسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه[1].

ثمَّ قال الواثق: اقطعوا قيوده، فلمَّا فُكَّت؛ جاذَب عليها، فقال الواثق: دعوه، ثمَّ قال: يا شيخ، لم جاذبتَ عليها؟ قال: لأنِّي عقدتُ في نِيَّتي أن أُجاذب عليها، فإذا أخذتُها؛ أوصيتُ أن تُجعل بين يدِي وكفني، ثمَّ أقول: يا رب، سلْ عبدك: لِمَ قيَّدني ظلمًا وارتاع [فيَّ][2] أهلي؟ فبكى الواثق والشَّيخ وكلُّ مَن حضر.

ثمَّ قال له الواثق: اجعلني في حِلٍّ، فقال: يا أمير المؤمنين، ما خرجتُ من منزلي حتَّى جعلتك في حِلٍّ؛ إعْظامًا لرسول الله ﷺ ولقرابتك منه.

فتهلَّل وجه الواثق وسُرَّ، ثمَّ قال له: أقِمْ عندي، آنسْ بك، فقال له: مكاني في ذلك الثَّغر أنفع، وأنا شيخ كبير ولي حاجة.

قال: سلْ ما بدا لك، قال: يأذن أمير المؤمنين في رجوعي على الموضع الَّذي أخرجني منه هذا الظَّالم ـ أي: ابن دواد ـ، قال: قد أذِنتُ لك، وأمر له بجائزة، فلم يقبلها.

قال الرَّاوي: فرجعتُ من ذلك الوقت عن تلك المَقالة، وأحسب أيضًا أنَّ الواثق رجع عنها».

كذا في كتاب «الاعتصام» للإمام الشاطبي[3].

❁ ❁ ❁

---

(١) في الأصل: «فلا وسع الله علينا»، مكرر.

(٢) في الأصل: «بي»، والصحيح ما أثبته من المصدر.

(٣) «الاعتصام»: ٢/ ٥٩.

أمرُ المتوكِّل برفع المحنة

ثمَّ لمَّا وُلي المتوكِّل على الله بن المعتصم الخلافة، بعد أخيه الواثق، سنة اثنتين وثلاثين ومائتين (٢٣٢) هـ رفع المحنة وقمع البدعة ومال إلى السُّنَّة، وأكرم الإمام أحمد رحمه الله وأعطاه عطايا فلم يقبلها، واستبشر النَّاس بولايته.

فإنَّه كان محبًّا للسُّنَّة وأهلها، ورفع المحنة عن النَّاس يكتب إلى الآفاق: لا يتكلَّم أحد في القول بخلق القرآن، واستقدم المُحدِّثين إلى سامراء وأجزل عطاياهم وأكرمهم، وأمرهم بأن يُحدِّثوا بأحاديث الصِّفات، فتوفَّر دعاء الخلق للمتوكِّل، وبالغوا في الثَّناء عليه، حتى قيل: إنَّ الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق في قتل أهل الرِّدَّة، وعمر بن عبد العزيز في ردِّ المَظالم، والمتوكِّل في إحياء السُّنَّة وإماتة التَّجهُّم.

ثمَّ إنَّ رجلًا من المُبتدعة يُقال له: ابن الثلخي[1] وشَى إلى الخليفة وشيًا، فقال: إنَّ

---

(١) الكلمة ليست واضحة في الأصل، أهو البلخي أم الثلجي، وفي «كتاب المحنة»: صـ١٥٢، هو: الثلجي. وهو أبو عبد الله محمد بن شجاع، المعروف بابن الثلجي، فقيه العراق وشيخ الحنفية، صاحب تعبُّد وتهجُّد وتلاوة، كان يقف في مسألة القرآن، تُوفي ساجدًا في صلاة العصر، وخُتم له بخير - إن شاء الله - وأناب عند الموت. انظر: «سير أعلام النبلاء»: و«تاريخ الإسلام»: ٦/ ٤٠٥، و«العبر في خبر من غبر»: ١/ ٣٨٢، و«سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٣٧٩. وقال محقِّق «سير أعلام النبلاء»: «يستبعد أن يكون هو الذي دسَّ على الإمام أحمد، فإنَّه موصوف بالورع والعبادة، فلعله غيره». وقال شيخ الإسلام الكوثري: «نعم، ابن شجاع له شذوذ في مسألة القرآن كابن المديني وابن علية. وليس هو بمنفرد في هذا الشذوذ، وللنظر متسع في المسألة بالمعنى الذي أرادوه، ومَن راجع كتاب «الردُّ على الجهمية» لعثمان الدارمي يتبيَّن له ما إذا كانوا ينقمون منه ممَّا يعد المخطئ في غالبه أبناء أخوات خالاتهم، سامحهم الله تعالى وإيانا بمنِّه وكرمه». «تبيين كذب المفتري» صـ٢٧٤.

رجلًا من العلويين قد آوى إلى منزل أحمد بن حنبل، وهو يُبايع له النَّاس في الباطن.

فأمر الخليفة نائبَ بغداد أن يكبس منزل الإمام أحمد من الليل، فلم يشعروا إلَّا والمشاعل قد أحاطت بالدَّار من كلِّ جانب حتَّى من فوق الأسطحة، فوجدوا الإمام أحمد جالسًا في داره مع عياله، فسألوه عمَّا ذُكر عنه، فقال: ليس عندي من هذا علمٌ، وليس من هذا شيء، ولا هذا من نِيَّتي، وإنِّي لأرى طاعة أمير المؤمنين في السِّرِّ والعلانية، وفي عُسري ويُسري، ومَنشطي ومَكرهي، وأَثرةٍ عليَّ، وإنِّي لأدعو الله له بالتَّسديد والتَّوفيق في الليل والنَّهار في كلام كثير. ففتَّشوا منزله، حتى مكان الكتب، وبيوت النِّساء، والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئًا.

فلمَّا بلغ المتوكِّل ذلك، وعلم براءته ممَّا نُسب إليه، علم أنَّهم يكذبون عليه كثيرًا، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقَوصَرة، وهو أحد الحجَبة، بعشرة آلاف درهم من الخليفة، وقال: هو يقرأ عليك السَّلام ويقول لك: استنفق هذه، فامتنع من قبولها.

فقال: يا أبا عبد الله إنِّي أخشى من ردِّك إيَّاها أن يقع وحشةٌ بينك وبينه، والمصلحة لك قبولها، فوضعها عنده ثمَّ ذهب، فلمَّا كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله وبَني عمِّه وعياله، وقال: لم أنمْ هذه الليلة من هذا المال.

فجلسوا معه، وكتبوا أسماء جماعة من المُحتاجين من أهل الحديث، وغيرهم من أهل بغداد والبصرة، ثمَّ أصبح ففرَّق في النَّاس ما بين الخمسين إلى المئة والمائتين، ولم يُبقِ منها درهمًا، وأعطى منها لأبي كريب، وأبي سعيد الأشج، وتصدَّق بالكيس الَّذي كانت فيه، ولم يُعطِ منها لأهله شيئًا، وهم في غاية الفقر والجهد، وجاء بنوا ابنه فقال: أعطني درهمًا.

فنظر أحمد إلى ابنه صالح، فتناول صالح قطعة فأعطاها الصَّبيَّ، فسكت أحمد.

وبلغ الخليفة أنَّه قد تصدَّق بالجائزة كلِّها حتَّى بكيسها، فقال عليُّ بن الجهم: يا أمير المؤمنين، إنَّه قد قبلها منك وتصدَّق بها عنك، وماذا يصنع أحمد بالمال؟ إنَّما يكفيه رغيفٌ. فقال: صدَقت.

فلمَّا مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمَّد، ولم يكن بينهما إلَّا القرب، وتولَّى نيابة بغداد عبد الله بن إسحاق، كتب المتوكِّل إليه أن يَحمل إليه الإمام أحمد، فقال لأحمد في ذلك. فقال: إنِّي شيخٌ كبيرٌ وضعيفٌ، فردَّ الجواب على الخليفة بذلك، فأرسل يعزم عليه لتأتينِّي، وكتب إلى أحمد يقول له: إنِّي أحبُّ أن آنسَ بقربك، وبالنَّظر إليك، ويحصل لي بركة دعائك.

فسار إليه الإمام أحمد وهو عليلٌ في بَنيه وبعض أهله، فلمَّا قارب العسكر تلقَّاه وصيف الخادم في موكبٍ عظيمٍ، فسلَّم وصيف على الإمام أحمد، فردَّ السَّلام، ثمَّ قال له وصيفٌ: قد أمكنك اللهُ من عدوِّك ابن أبي دواد. فلم يردَّ عليه جوابًا، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيف، فلمَّا وصلوا إلى العسكر بسر مَن رأى، أُنزل أحمد في دار إيتاخ، فلمَّا علم بذلك ارتحل منها، وأمر أن يُستكرى له دار [غيرها][1].

وكان رؤوس الأمراء في كلِّ يوم يحضرون عنده، ويُبلغونه عن الخليفة السَّلام، ولا يدخلون عليه حتَّى يخلعوا ما عليهم من الزِّينة والسِّلاح، وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها من الآلات الَّتي تليق بتلك الدَّار العظيمة.

وأراد منه الخليفة أن يُقيم هناك ليُحدِّث النَّاس عوضًا عمَّا فاتهم منه في أيَّام المحنة، وما بعدها من السِّنين المُتطاولة، فاعتذر إليهم بأنَّه عليلٌ وأسنانه تتحرَّك وهو ضعيف. وكان الخليفة يبعث إليه في كلِّ يوم مائدة فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثلج، ممَّا يُقاوم مئة وعشرين درهمًا في كلِّ يوم، والخليفة يحسب أنَّه يأكل من ذلك، ولم يكن أحمد يطعم شيئًا من ذلك بالكلِّيَّة، بل كان صائمًا يطوي، فمَكث ثمانية أيَّام لم يستطعم بطعام، ومع ذلك هو عليلٌ. ثمَّ أقسم عليه ولدُه حتَّى شرب قليلًا من السَّويق بعد ثمانية أيَّام.

وجاء عبيد الله بن يحيى بن خاقان بمالٍ جزيل من الخليفة؛ جائزةً له، فامتنع من قبوله، فألحَّ عليه الأمير فلم يقبل، فأخذها الأمير ففرَّقها على بَنيه وأهله، وقال: إنَّه لا

---

(١) في الأصل: «عندها»، والمثبت من المصدر.

يُمكن ردُّها على الخليفة.

وكتب الخليفة لأهله وأولاده في كلِّ شهر بأربعة آلاف درهم، فمانَع أبو عبد الله الخليفة، فقال الخليفة: لا بدَّ من ذلك، وما هذا إلَّا لولدك. فأمسك أبو عبد الله عن ممانعته، ثمَّ أخذ يلوم أهله، وعمَّه، وبني عمِّه، وقال لهم: إنَّما بقي لنا أيَّام قلائل، وكأنَّنا وقد نزل بنا الموت؛ فإمَّا إلى جنَّة، وإمَّا إلى نار، فنخرج من الدُّنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء، في كلام طويل يَعِظهم به.

فاحتجُّوا عليه بالحديث الصَّحيح: «**ما جاءك من هذا المال، وأنت غير سائل، ولا مُستشرف، فخُذه**»[1]، وبأنَّ ابن عمر وابن عباس قبِلا جوائز السُّلطان. فقال: ما هذا وذاك سواء، ولو أعلم أنَّ هذا المال أُخذ من حقِّه، وليس فيه ظلم ولا جور لم أبالِ.

ولمَّا استمرَّ ضعف أبي عبد الله، جعل المتوكِّل يبعث إليه بابن ماسَوَيه المُتطبِّب لينظر في مرضه، فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ أحمد بن حنبل ليس به علَّة في بدنه، وإنَّما علَّته من قلَّة الطَّعام، وكثرة الصِّيام والعبادة، فسكت المتوكِّل.

ثمَّ سألت أمُّ الخليفة منه أن ترى الإمام أحمد، فبعث المتوكِّل إليه يسأله أن يجتمع بابنه المعتز ويدعو له، ويكون في حجره فتمنَّع من ذلك، ثمَّ أجاب إليه رجاء أن يعجِّل برجوعه إلى أهله ببغداد، وبعث الخليفة إليه بخِلعة سَنيَّة، ومركوبٌ من مراكيبه، فامتنع من ركوبه؛ لأنَّه عليه مِيثَرة[2] نُمُور، فجِيء ببغلٍ لبعض التُّجَّار فركبه، وجاء إلى مجلس المعتزِّ. وقد جلس الخليفة وأمُّه في ناحية في ذلك المجلس، من وراء ستر رقيق.

فلمَّا جاء أحمد قال: السَّلام عليكم. وجلس ولم يُسلِّم عليه بالإمْرَة، فقالت أمُّ الخليفة: الله الله يا بُنيَّ في هذا الرجل! تردُّه إلى أهله، فإنَّ هذا ليس ممَّن يُريد ما أنتم فيه،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب: رزق الحكام والعاملين عليها: ٧١٦٣، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: إباحة الأخذ لمَن أعطي من غير مسألة ولا إشراف: ١٠٤٥، وفي «مسند أحمد»: ١٠٠.

(٢) الميثرة: هنة كهيئة المرفقة تتخذ للسرج كالصفة. «تاج العروس»: ١٤/ ٣٤٧.

وحين رأى المتوكِّل أحمد قال لأمِّه: يا أمَّه، قد تأنَّسَتِ الدَّار.

وجاء الخادم ومعه خِلعة سَنيَّة مُبطَّنة، وثوب وقلنسوة وطَيلَسان، فألبسها أحمد بيده، وأحمد لا يتحرَّك بالكُلِّيَّة. قال الإمام أحمد: لمَّا جلستُ إلى المعتزِّ قال مُؤدِّبه: أصلح الله الأمير، هذا الَّذي أمر الخليفة أن يكون مُؤدِّبك. فقال: إن علَّمني شيئًا تعلَّمتُه. قال أحمد: فعجِبتُ من ذكائه في صغره؛ لأنَّه كان صغيرًا جدًّا. ثمَّ خرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله، ويستعيذ بالله من مَقته، وغضبه.

ثمَّ بعد أيَّام أذِن له الخليفة بالانصراف، وهيَّأ له حرَّاقة، فلم يقبل أن ينحدر فيها، بل ركب في زورقٍ، فدخل بغداد مُختفيًا، وأمر أن تُباع تلك الخِلعة، وأن يُتصدَّق بثمنها على الفقراء والمساكين.

وجعل أيَّامًا يتألَّم من اجتماعه بهم ويقول: سلِمتُ منهم طول عمري، ثمَّ ابتُليت بهم في آخره، وكان قد جاع عندهم جوعًا عظيمًا كثيرًا، حتى كاد يهلك من الجوع.

وقد قال بعض الأمراء للمتوكِّل: إنَّ أحمد لا يأكل لك طعامًا، ولا يشرب لك شرابًا، ولا يجلس على فرشك، ويُحرِّم ما تشربه. فقال لهم: والله لو نُشر المعتصم، وكلَّمني في أحمد ما قبلتُ منه.

وجعلتْ رُسل الخليفة تفدُ إليه في كلِّ يوم؛ تستعلم أخباره وكيف حاله. وجعل يَستفتيه في أموال ابن أبي دواد فلا يُجيب بشيء، ثمَّ إنَّ المتوكِّل أخرج ابن أبي دواد من سر مَن رأى إلى بغداد؛ بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه، وأخذ أمواله كلَّها.

قال عبد الله بن أحمد: وحين رجع أبي من سامرًّا إلى بغداد، وجدنا عينيه قد دخلتا في موقيه، وما رجعتْ إليه نفسُه إلَّا بعد ستة أشهر، وامتنع أن يدخل بيت قرابته أو يدخل بيتًا هم فيه، أو ينتفع بشيء ممَّا هم فيه؛ لأجل قبولهم أموال السُّلطان.

وكان مسير أحمد إلى المتوكِّل في سنة سبع وثلاثين ومائتين، ثمَّ مكث إلى سنة وفاته،

وكلَّ يوم إلَّا ويسأل عنه المتوكِّل، ويُوفد إليه في أمور يُشاوره فيها، ويستشيره في أشياء تقع له.

ولمَّا قدِم المتوكِّل بغداد بعث إليه ابن خاقان، ومعه ألف دينار، ليُفرِّقها على مَن يرى فامتنع من قبولها وتفرقتها، وقال: إنَّ أمير المؤمنين قد أعفاني ممَّا أكره فردَّها.

وكتب رجلٌ رُقعة إلى المتوكِّل يقول فيها: يا أمير المؤمنين، إنَّ أحمد بن حنبل يشتمُ آباءك ويرميهم بالزَّندقة. فكتب فيها المتوكِّل: أمَّا المأمون، فإنَّه خلط، فسلَّط النَّاس على نفسه، وأمَّا أبي المعتصم فإنَّه كان رجلَ حرب، ولم يكن له بصرٌ بالكلام.

وأمَّا أخي الواثق فإنَّه استحقَّ ما قيل فيه، ثمَّ أمر أن يُضرب هذا الرجل الَّذي رفع إليه الرُّقعة مائتي سوط، فأخذه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط، فقال له الخليفة: لم ضربته خمسمائة سوط؟ فقال: مائتين لطاعتك، ومائتين لطاعة الله، ومائة لكونه قذف هذا الشَّيخ الرَّجل الصَّالح أحمد بن حنبل.

وقد كتب الخليفة إلى الإمام أحمد يسأله عن القول في القرآن؛ سؤال استرشاد واستفادة؛ لا سؤال تعنُّت ولا امتحان ولا عناد، فكتب إليه أحمد ﵀ رسالة حسنة، فيها آثارٌ عن الصَّحابة وغيرهم، وأحاديث مرفوعة، وقد أوردها ابنُه صالح في المحنة الَّتي ساقها، وهي مرويَّة عنه، وقد نقلها غيرُ واحدٍ من الحفَّاظ.

كذا في «البداية والنهاية»[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) «البداية والنهاية»: ١١/ ١٧٩ ـ ١٨٣.

وفاة الإمام أحمد بن حنبل

وبالجملة هذه الاستقامة في مثل هذه الفتنة العظيمة من كرامات الإمام ﷺ.

وكان وُلد في شهر ربيع الأوَّل سنة أربع وستين ومائة.

ومرض تسعة أيَّام، وتُوفي ﷺ سنة إحدى وأربعين ومائتين على الصَّحيح، ليلة الجمعة، وصلَّى عليه بعد العصر ثاني عشر ربيع الآخر، أو لثلاث عشرة بقين منه، وقيل غير ذلك.

وقبره ظاهر ببغداد يُزار ويُتبرَّك به.

قال أبو زرعة: بلغني أنَّ المتوكِّل أمر أن يُمسح الموضع الَّذي وقف النَّاس فيه للصَّلاة على الإمام أحمد، فبلغ مقام ألفي ألف وخمسمائة ألف، وأسلم يوم وفاته عشرون ألفًا، وكُشف قبره بعد موته بمائتين وثلاثين سنة، بموت بعض الأشراف ودفنه بجانبه فوُجد كفنُه صحيحًا، وجثته لم يتغيَّر. كذا في «شرح الأذكار» لابن علان المكي[1].

رحمة الله عليه على مرِّ الليالي والأيَّام.

سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عمَّا يصفون، وسلامٌ على المُرسَلين

والحمدُ لله ربِّ العالَمين فاطر السَّماوات والأرض

أنت وليِّي في الدُّنيا والآخرة توفَّني

مُسلمًا وألحقني بالصَّالحين

آمين يا رب العالَمين.

---

(١) «الفتوحات الربانية على الأذكار النووية»: ١/ ٩٨.



تائية القضاء والقدر

مع شرحها الموسوم بسلك الدرر

تأليف

شيخ التفسير والحديث الشيخ

محمد إدريس الكاندهلوي

١٣١٧ - ١٣٩٤هـ

اعتنى به

محمد عمار سليم المدني



مقدمة
تائية القضاء والقدر

الحمد لله العليِّ الأعلى، الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الحمدُ في الآخرة والأولى، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله، بلَّغ الرِّسالة فما ضلَّ وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلَّا وحي يُوحَى، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومَن سار على نهجهم، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد:

إنَّ الإيمان بالقدر هو التَّصديق الجازم بأنَّ كلَّ ما يقع في هذا الكون من الخير والشَّرِّ فهو بقضاء الله وقدَره، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقِّب لحُكمه، وهو الحكيم العليم، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

وكذلك ذكر الله ﷻ القدَر في مواضع عديدة من كتابه الكريم، وأخبر أنَّ كلَّ شيء مخلوق بقدَر الله العظيم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد جعل النَّبيُّ ﷺ الإيمان بالقضاء والقدَر من أركان الإيمان، ففي حديث جبريل الطَّويل لمَّا سأله عن الإيمان قال: «أن تُؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسله، واليوم الآخر، والقدَر؛ خيره وشرِّه».

وكذلك وصيَّة عبادة بن الصَّامت ﷺ لمَّا قاله له ابنه: «يا أبتاه! أوصني واجتهد لي،

فقال: أجلسوني، قال: يا بني، إنَّك لن تطعم طعم الإيمان، ولن تبلغ حقَّ حقيقة العلم بالله ﷻ، حتَّى تُؤمن بالقدَر خيره وشرِّه. قال: يا أبتاه، فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشرُّه؟

قال: تعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وما أصابك لم يكن ليُخطئك، يا بني! إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **إنَّ أوَّل ما خلق الله القلم، ثمَّ قال: اكتب، فجرى في تلك السَّاعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**، يا بني! إن متَّ ولستَ على ذلك دخلتَ النار».

فهذا هو الرُّكن السَّادس من أركان الإيمان، وأساسٌ من أُسُس الإسلام.

ولا شكَّ أنَّ موضوع القضاء والقدَر قد تمَّ التَّساؤل والخوض فيه من قِبَل أهل البدع والضَّلال بعقولهم القاصرة، وعلى رأسهم معبد الجهني، فأوَّل مَن تكلَّم بنفي القدَر كما قال الأوزاعي: «أوَّل مَن نطق في القدَر رجلٌ من أهل العراق، يُقال له: سوسن، كان نصرانيًّا فأسلم، ثمَّ تنصَّر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد»(١).

فمعبد الجهني هو مَن أتى بنفي القدَر في الإسلام كما دلَّ ذلك حديث جبريل ﵇ في صحيح مسلم وغيره، وأخذه عن معبدٍ غيلانُ الدمشقي، وظهر بعدهما رؤوسُ القدرية والاعتزال الذين نشروا هذه العقيدة الباطلة، وضلَّ بسببها فرقٌ شتَّى.

فجاء أئمَّة السَّلف وتصدَّوا لتلك البدعة، وبيَّنوا باطلها، وقاموا بالرَّدِّ عليهم، وأبطلوا بدعتها، وفنَّدوا زيفها، وزيَّفوا خرافاتها.

ومن أولئك الأجلَّاء شيخ شيوخنا العلَّامة الشَّيخ محمد إدريس الكاندهلوي ﵀، تعرَّض لهذه المسألة بالجواب عن القصيدة المعروفة التي شاعت في الشَّام، وأُلقيت للطَّعن في مسألة القدر.

واختلف المُؤرِّخون في نسبة هذه القصيدة إلى عدَّة أقوال:

---

(١) «تاريخ الإسلام»: ٢/ ١٠٠٦.

فمنهم مَن قال: أنَّ صاحبها السَّكاكيني الشِّيعي، المتوفَّى ٧٢١هـ وهذا رأي الإمام ابن كثير ﷺ[١]، ورجَّحه الحافظ ابن حجر العسقلاني ﷺ[٢]، والشوكاني ﷺ[٣].

وقيل: إنَّ صاحبها ابن البقي المصري، المتوفَّى ٧٠١هـ ذكره تاج الدِّين السبكي ﷺ بصيغة التَّمريض[٤].

وجزم السبكي قبل ذلك أنَّه أظهره بعض المعتزلة، وكتم اسمه، وجعله على لسان بعض أهل الذِّمَّة[٥].

وما يظهر ممَّا كتبه العلَّامة محمَّد إدريس الكاندهلوي ﷺ أنَّه جمع بين القول الثَّاني والثَّالث، حيث قال: «إنَّ بعض المَلاحدة في زمن الشَّيخ تقي الدِّين ابن دقيق العيد القشيري أظهر السُّؤال في مسألة القضاء والقدَر، وكتم اسمه، وجعله على لسان بعض أهل الذِّمَّة... ولمَّا شاع هذَا النَّظم؛ قُتل هذا الزِّنديق بفتوى الشَّيخ تقي الدِّين ابن العيد القشيري»؛ وذلك لأنَّ ابن البقي قد ثبت عليه أقوال تدلُّ على الزَّندقة، وقُتل بحكم القاضي في ولاية الإمام ابن دقيق العيد القشيري.

فلمَّا انتشرت هذه القصيدة، انبرى عدد من علماء الإسلام للرَّدِّ عليها نظمًا ونثرًا، فمنهم الشَّيخ علاء الدِّين الباجي ﷺ، المتوفَّى ٧١٤هـ ومطلع القصيدة:

أيَـــا عالمًـــا أبـــدى دلائـل حيـرة ... يـــروم اهتـــداءً مـن أُهـول فضيلـة

لقـــد ســرَّني أن كنـتَ للحـقِّ طالبًـا ... عسـى نفحـةٌ للحقِّ مـن سـحب رحمـة

وكذلك الحافظ ابن تيمية ﷺ، المتوفَّى ٧٢٨هـ في ١٢٥ بيتًا، ومطلع قصيدته:

---

(١) «البداية والنهاية»: ١٦/ ٣٢١.

(٢) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»: ١/ ١٨٢.

(٣) «البدر الطالع»: ٢/ ١٥٢.

(٤) «طبقات الشَّافعية الكبرى»: ١٠/ ٣٥٣.

(٥) «طبقات الشَّافعية الكبرى»: ١٠/ ٣٥٢.

سؤالك يا هذا سؤال مُعانِدٍ يُخاصم ربَّ العرش باري البريَّة
وهذا سؤالٌ خاصَمَ الملأ العلي قديمًا به إبليس أصل البَليَّة

وكذلك الشَّيخ علاء الدِّين القونوي رحمه الله، المتوفَّى ٧٢٩هـ، ومطلع قصيدته:

حمدتُ إلهي قبل كلِّ مَقالة وصلَّيتُ تعظيمًا لخير البريَّة
وحاولتُ إيداع النَّصيحة منصفًا لمَن طلب الإيضاحَ في حلِّ شبهةِ

وكذلك الأديب ناصر الدِّين شافع بن عبد الظاهر رحمه الله، المتوفَّى ٧٣٠هـ، ومطلع قصيدته:

سألتَ ولم تُعربْ وكم من مباحثٍ جرَت من أُهيل العلم في ذي الحقيقة
وما أنت يا ذِمِّيُّ مبتكرٌ كما توهَّمتَه من دون ماضي البريَّة

وكذلك الشَّيخ شمس الدِّين ابن اللَّبَّان رحمه الله، المتوفَّى ٧٤٩هـ، ومطلع قصيدته:

ألا بعدَ حمْد الله باري البريَّة على ما هدانا من كتابٍ وسُنَّة
بأفضل مبعوثٍ إلى خير أمَّة عليه من الرَّحمن أزكى تحيَّة

وكذلك الشَّيخ ابن لبِّ الأندلسي رحمه الله، المتوفَّى ٧٨٢هـ، ومطلع قصيدته:

قضى الرَّبُّ كفر الكافرين ولم يكن ليرضاه تكليفًا لدى كلِّ ملَّة
نهى خلقه عمَّا أراد وُقُوعَه وإنفاذه والملك أبلغ حجَّةِ

وكذلك الشَّيخ نجم الدِّين الطوسي رحمه الله[1]، في ١٠٥ بيتًا، ومطلع قصيدته:

ألا أصْغِ يا ذِمِّيُّ إن كنتَ سامعًا جوابَ سؤالٍ رُمْتَه بالأدلَّة

---

(١) لم أقف على ترجمته.

ودبِّـــر بعقـــل مُـدركٍ سـرَّ مـا بـدا بإنشـــاء ربِّ الكـــون في كلِّ حالـةِ

ونهاية هذه السِّلسلة المباركة شيخ شيوخنا العلَّامة محمَّد إدريس الكاندهلوي ﷀ، جزاهم الله على جهودهم خير الجزاء.

أمَّا النُّسخة التي اعتمدتُ عليها في خدمة هذا الكتاب هي ما نشرتها إدارة مجلَّة الصِّدِّيق الغرَّاء العربيَّة الصَّادرة من ملتان، باكستان، في سنة ١٣٧٣هـ في ٣٠ صحيفة.

وألحقتُ بعد صُور هذه النُّسخة؛ بحثًا مختصرًا ومفيدًا بقلم المؤلِّف، في القضاء والقدَر من كتابه «عقائد إسلام»، نقلته من الأردية إلى العربية لتعمَّ الفائدة.

هـذا، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

كتبه

خادم العلم والعلماء

محمد عمار سليم المدني

٥ صفر ١٤٤٤هـ



صور النسخة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وبارك وسلم الى يوم الدين. وعلينا معهم يا ارحم الراحمين ويا اكرم الاكرمين:

اما بعد فيقول العبد الضعيف المتبرئ من حوله وقوته المفتقر الى رحمة ربه وغفرانه العائذ برضاه ومعافاته من سخطه وعقوبته محمد ادريس الكاندهلوي اسعده الله تعالى بالتقوى والمغفرة واجاره من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ان بعض الملاحدة في زمن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد القشيري في القرن السابع من قرون الهجرة النبوية على صاحبها الف الف صلاة والف الف تحية اظهر السوال في مسئلة القضاء والقدر وكتم اسمه وجعله على لسان بعض اهل الذمة وقال :-

أيا علماءَ الدين ذِمّيُّ دِينِكم ... تحيّرَ دُلّوهُ بأوضحِ حُجّةِ
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ... ولم يرضَهُ مِنّي فما وجهُ حيلتي
دعاني وسدَّ البابَ عنّي فهل إلى ... دخولي سبيلٌ بيّنوا لي قضيّتي
قضى بضلالي ثم قال ارضَ بالقضا ... فما أنا راضٍ بالذي فيه شقوتي
فإن كنتُ بالمقضي يا قومِ راضيا ... فربّي لا يرضى بشؤمِ بليّتي
وهل لي رضًا ما ليس يرضاه سيّدي ... وقد حرتُ دُلّوني على كشفِ حيرتي
اذا شاء ربي الكفرَ مِنّي مشيئةً ... فها انا راضٍ باتباعِ المشيئةِ

وهل لي اختيارٌ ان اخالفَ حكمَه
فبالله فاشفوا بالبراهين غُلّتي

ولما شاع هذا النظم قتل هذا الزنديق بفتوى الشيخ تقي الدين بن السبكي [redacted]

٣٩

وفضلك أرجى لي وعفوك أوسع (١٨٧) فيكفيني الإيمان مثقال ذرة

ويا رب ثبتني على الحق والهدى (١٨٨) أموت على الإسلام موت الشهادة

ووالله خير الموت موت شهادة (١٨٩) وأطيب دفن المرء دفن بطيبة

فيا ليت حظي أن أموت بطيبة (١٩٠) ويحفر قبري في قبور الصحابة

وفي القبر أنس وحشتي عند غربتي (١٩١) وأمطر عليه من شآبيب رحمة

ومن علي يوم تبلى السرائر (١٩٢) بستر خطيئاتي ومحو جريمتي

وأسعدني بالحسنى وزد من زيادة (١٩٣) وأنعم علي بالرضا وبنظرة

وبلغ تحياتي لروح نبينا (١٩٤) مكمل قصر الوحي آخر لبنة

وأزواجه والآل والصحب كلهم
(١٩٥)
إلى أبد الآباد في كل لحظة

القضاء والقدر

مقتبس من «عقائد الإسلام»

القضاء والقدَر حقٌّ، والإيمان به واجبٌ. والإيمان بالقضاء والقدر يعني: الإذعان والاعتقاد بكلِّ ما قدَّره الله وكتبَه قبل خلق هذا الكون، من الخير والشَّرِّ، والإيمان والكفر، والهداية والضَّلالة، والطَّاعة والمعصية. فإنَّ كلَّ ما يجري في العالَم في أيِّ وقتٍ هو بإرادته ومَشيئته، وكان سبحانه مُحيطًا بعلمِه الكامل التَّامِّ قبل حدوثه.

القدَر هو التَّقدير بأن يعلم ويُقدِّر كلَّ ما سيحدث، فمثلًا لو أراد أحدٌ بناء مكانٍ ما، فإنَّه يرسم الخُطَّة أوَّلًا ليبنيه وفق تلك الخُطَّة.

كذلك لمَّا أراد الله ﷻ خلق هذا الكون؛ رسم خُطَّته في عِلمه الأزليِّ، وقدَّر كلَّ شيء من البداية إلى النِّهاية. فاسم هذه الخُطَّة الَّتي لا يعلمها إلا الله ﷻ هو القدَر، ومعناه في اللغة أيضًا التَّقدير. بمعنى: أنَّ الله ﷻ قدَّر في عِلمه الأزليِّ أنَّ هذا الشَّيء سيكون بهذه الصورة، في وقت كذا، وفي مكان كذا. وأنَّ هذا الإنسان يُؤمن بعد الولادة في وقت كذا، وهذا الإنسان سيكفر في وقت كذا، وغيرها من الأمور كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

فالقدَر هو ما قدَّره اللهُ في عِلمه الأزليِّ قبل خلق الكون، وأمَّا القضاء فهو ما خلقه الله وفق تلك الخُطَّة والتَّقدير من الكون وما فيه. ومعنى القضاء في اللغة (الخَلْق) كما قال الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢].

وقد أجمع أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ القضاء والقدَر حقٌّ، ولا تخرج ذرَّةٌ من قدَره، ولا يُمكن لأحدٍ أن يُغيِّر أو يُؤخِّر أو يُقدِّم في قضائه أو قدَره، ولا يُؤاخذه أحدٌ وهو يُؤاخذ

العباد على أفعالهم، ويجزي على الإطاعة، ويُعاقب بالمَعصية. فقدَر الله حقٌّ ولا مَجال فيه للخطأ.

فكما أنَّ الإنسان يرسم الخُطَّة قبل بناء المنزل حسب علمه وإرادته كذلك رسم الله تعالى خُطَّة هذا العالَم قبل خلقه في علمه الأزليّ، ولكنَّ الفرق بين خُطَّة الله وخُطَّة الإنسان أنَّ الإنسان قد لا يقدر على بناء المنزل حسب خُطَّته؛ لوقوع خطإٍ فيها، أمَّا الله ﷻ فهو قادر على كلِّ ما يُريد، لا يمنعه أحدٌ عن إرادته، ولا يُمكن وقوع الخطأ في عِلمه ولا في قدَره، ولا يزال مُطابقًا للواقع، وأيضًا فإنَّ علم الإنسان ناقصٌ، وقد يُدرك كثيرًا من الأشياء التي فاتته بعد رسم الخُطَّة، بينما علم الله تعالى مُحيطٌ بكلِّ شيء، فلا يقع الاختلاف بين علمه وخُطَّته.

قدَر الله حقٌّ والإيمان به واجب، لكن لا يصحُّ أن يُجعَل القدَر حجَّة للمعاصي والذُّنوب، فمثلًا السارق أو الزاني إذا اعتذر واحتجَّ بأنَّ ذلك مكتوبٌ في تقديره، فلا يُعذَر ولا يعصمه هذا العذر الباطل من مُؤاخذة الله. ولا شكَّ أنَّ الله قدَّر كلَّ شيء لكنَّ الإنسان لا يعلم ما كُتب في تقديره، وهو عندما يسرق أو يزني فهو يُنفِّذ شهوات النَّفس ويُطيعها، وهو مُختار في كسبه ليس بمجبورٍ، واعتذاره هذا بأنَّ المعصية مكتوبة عليه مجرَّد حيلة باطلة فقط.

فالقول بأنَّ الإنسان مجبورٌ ولا يُمكن مخالفة التَّقدير مكرٌ ومُخادعة من نفسه؛ لأنَّ الإنسان مُختار في كسبه، يعمل بإرادته واختياره، وإن كانت إرادته مخلوقة من قِبَل الله. أمَّا كون مُخالفة التَّقدير مُحالًا، فلا يلزم منه أن يكون الإنسان مجبورًا مَحضًا، بل الوجه أنَّ علم الله ﷻ وخبره لا يحتمل الخطأ؛ لذلك مُخالفته مُحالٌ مُمتنع.

القدَر خبرٌ وحكاية لله تعالى، والعلم تابع للمعلوم، والحكاية تكون مُطابقة للمَحكيِّ عنه والواقع، وليس بالعكس، لذلك فإنَّ علم الله تعالى لا يُسبِّب الجبر. كما أنَّ الله ﷻ عالِم بأفعال العبد، كذلك هو سبحانه عالِم بأفعاله أيضًا، لكنَّه لا يلزم من هذا أنَّ الله تعالى مَجبور في فعله، فكذلك الإنسان ليس بمَجبور من أجل علم الله السَّابق وقدَره. فلا يحسب أحد أنَّ

الإنسان مجبور، ولو كان الأمر كذلك لَمَا بنَى الحُكَّام السُّجون للمجرمين، ولَما عُوقب مذنِب بذنبه.

أعطى الله الإنسان القُدرة والاختيار اللَّتَين يُؤدِّي بهما أمور الدِّين والدُّنيا، لكنَّ اختياره ليس مُستقِلًّا، فكما أنَّه موجود لأنَّ الله منحه نعمة الوجود، وكذلك هو بصير وسميع لأنَّ الله منحه نعمتي البصر والسَّمع، كذلك هو قادر ومُختار. فكما أنَّ بصره وسمعه ليسا اختياريين ولكنَّ نظَره كان اختيارًا، واستماعه أيضًا كان اختيارًا، وكذلك قُدرته ليست اختيارًا، ولكنَّ فِعله اختيارٌ؛ لذلك يقول أهلُ الحقِّ: أنَّ الإنسان ليس بمُختارٍ في صفة الاختيار، لكنَّه مُختار في أفعاله وأعماله.

نعم، إنَّ الله تعالى خالِق أفعال العبد وحركاته وسكناته، لكن لا يلزم من هذا أنَّ هذه الأفعال خرجت من قُدرة العبد؛ لأنَّ الله تعالى خلق القُدرة والمَقدور، وخلق الاختيار وصاحب الاختيار، فالقُدرة صفة للعبد ومخلوقة الله، والعبد وصفته كلاهما مخلوقان لله تعالى وتحت قُدرته، وعندما يعمل العبد بقُدرته الَّتي هي صفته فعملُه اختياري عند جميع العقلاء، فالحاصل أنَّ تعلُّق المَشيئة والإرادة لله ﷻ بذات العبد أو صفته أو عمله لا يجعل العبد مَجبورًا.

كذا قُدرة الله ومَشيئته تتعلَّق بصفة الوجود للإنسان، لكنَّه سبحانه لم يجعله مَعدومًا، فكيف يجعله مجبورًا لمَّا تتعلَّق قُدرة الله ومَشيئته بقُدرته واختياره؟ فالإنسان مَخلوق، ومن المستحيل أن يخرج المَخلوق من قُدرة الخالق ومَشيئته. والَّذين يعتقدون أنَّ العبد مُستقِلٌّ في فِعله، وخالقٌ لأفعاله، ولا تعلُّق فيه لقُدرة الله ومَشيئته، فهم على خطإٍ؛ لأنَّ هذا معناه أنَّ المخلوق خارجٌ عن قُدرة الله ومَشيئته في أفعال وإعماله، وقد اتَّفقت الأمَّة على أنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

تقول المعتزلة: أنَّ أفعال الإنسان من خلقه، وليس لقُدرة الله وإرادته فيها أيُّ تأثير. لا حول ولا قوة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

المُلحدون والصَّابئون يقولون: إنَّ الأحكام الشَّرعيَّة مُعارضة للقضاء والقدَر، ويجعلون القدَر حُجَّة للتَّخلِّي عن الأحكام الشَّرعيَّة، ويُنشئون الشُّكوك والشُّبهات في قلوب المسلمين، لذلك كتبت بعض السُّطور لطالب الحقِّ.

لم يخلق الله تعالى الأشياء في هذا الكون في صورةٍ واحدة بل خلقَها في صور مختلفة وأشكال متنوِّعة، وجعل في كلِّ شيءٍ من الأشياء موهبة منفردة، فمثلًا انظر إلى شجرةٍ يكون فيها كثيرٌ من العيدان، يُحرَق بعضٌ منها، ويُصنَع من بعضها الأثاثُ، وبعضها يُستخدم في السَّقف، وهكذا الحديد يخرج من معدنٍ واحد، فيُصنع من بعضه مرآةُ الملك، ويُستخدم بعضُه في نعل الفرَس. وقع هذا التفاوُت بإرادة الله ومَشيئته. وقد اتَّفق جميع العقلاء على أنَّ مواهب المخلوقات وصفاتهم وكيفيَّاتهم ليست سواءً. فلماذا وقع هذا التَّفاوُت؟ فهذه العُقدة لم تُحلَّ بعدُ.

يقول المسلمون: إنَّه من حِكم الله العليم الحكيم.

وأمَّا الصَّابئون فهم يقولون: أنَّ هذا مُقتضى حركات المادَّة (وهذا دعواهم فقط، ولا دليل عليه).

فكما أنَّ الله تعالى خلق الأشجار والأحجار في الصُّور المختلفة وأودعها مواهب مختلفة جيِّدة ورديئة، كذلك خلق العباد في صورٍ مختلفة في الذَّكاء والغباء وغيره من الصِّفات والقُدرات، فمثلًا خلق في البعض القُدرة على قبول الحقِّ، وفي البعض على قبول الشَّرِّ، وبناء على ذلك سيكون البعض في الجنَّة والبعض وقودًا لجهنَّم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولا يستطيع أحدٌ أن يسأله عن خلق الأشياء بهذا التَّفاوُت، قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

شبهة وإزالتها:

الشبهة: وهي أنَّ أفعال العباد وأقوالهم بالقُدرات والمواهب، وهي أزليَّةٌ خارجةٌ عن قُدرة العباد، وألزمهم على الطاعة كما ألزمهم على الكفر، فهم مَجبورون غير مُختارين.

الجواب: خلق الله المخلوقات على قسمين: أحدها: ما هو خالٍ عن صفة العلم والإرادة كالشَّجر والحجَر، وهو غير مكلَّف لا يُجزى ولا يُؤاخذ. وثانيها: ما أودع الله فيهم صفة العلم والإرادة كالجنِّ والإنس، أعطاهم الله علمًا وفهمًا وقُدرة واختيارًا، وأعطاهم الجوارح والأعضاء يعملون بها باختيارهم، وينسبونها إلى أنفسهم، فيقولون مثلًا: إنَّا فعلنا هذا بأنفسنا، ويعترفون أنَّ هذه الأفعال تصدر عنَّهم بإرادتهم واختيارهم، ويقبلون ما يُرتَّب عليها من الجزاء والعقاب في الدُّنيا، ولمَّا يُذكَر عندهم جزاء الآخرة وعقابها فيقولون: إنَّا مجبورون، ولا يعلمون أنَّ صفة العلم والإرادة الَّتي خلقها الله فيهم ليُكلِّفهم بالأحكام الشَّرعيَّة ويُخاطبهم، ويُرتِّب الجزاء على إطاعتهم ومعصيتهم، وكما أنَّ الملوك في الدُّنيا لا يُعطون الجائزة على القابليَّة المَحضة، كذلك لا يجزي اللهُ ولا يُؤاخذ على القُدرة المحضة لمَّا لم يظهر عملُ الخير أو الشَّرِّ.

إنَّ مجرَّد الشَّجاعة لا يُكافأ عليها إلَّا إذا ظهرت الشَّجاعة في مكانٍ، فكذلك لا يُجزى ولا يُعاقب على مُجرَّد القُدرة إلَّا إذا ظهرت الطَّاعة أو المَعصية.



تائية القضاء والقدر

مع شرحها الموسوم بسلك الدرر



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونُؤمن به ونتوكَّل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهده اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، وأنَّ سيِّدنا ومولانا محمَّدًا عبدُه ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه، وبارَك وسلَّم إلى يوم الدِّين، وعلينا معهم يا أرحم الرَّاحمين، ويا أكرم الأكرمين.

أمَّا بعد:

فيقول العبد الضَّعيف المُتبرِّئ من حوله وقوَّته، المُفتقِر إلى رحمة ربِّه ومغفرته، العائذ برضاه ومعافاته من سخطه وعقوبته، محمَّد إدريس الكاندهلوي، أسعدَه الله تعالى بالتقوى والمغفرة، وأجارَه من خزيِ الدُّنيا وعذاب الآخرة.

إنَّ بعض المَلاحدة في زمن الشَّيخ تقي الدِّين ابن دقيق العيد القشيري ﷺ في القرن السَّابع من قرون الهجرة النَّبويَّة - على صاحبها ألف ألف صلاة وألف ألف تحيَّة - أظهر السُّؤال في مسألة القضاء والقدر، وكتم اسمه وجعله على لسان بعض أهل الذِّمَّة، وقال:

أَيَـا عُلَمَـاءَ الدِّيـنِ ذِمِّيُّ دِينِكُـمْ ... تَحَيَّـرَ دُلُّـوهُ بِأَوْضَـحِ حُجَّـةِ

إِذَا مَـا قَضَـى رَبِّـي بِكُفْـرِي بِزَعْمِكُـمْ ... وَلَـمْ يَرضَـهُ مِنِّـي فَمَـا وَجْـهُ حِيلَتِـي؟

دَعَانِـي وَسَـدَّ الْبَـابَ عَنِّـي فَهَـلْ إِلَـى ... دُخُولِـي سَـبِيلٌ بَيِّنُـوا لِـي قَضِيَّتِـي

قَضَى بِضَلَالِي ثُمَّ قَالَ ارْضَ بِالقَضَا ... فَهَا[1] أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي فِيهِ شِقْوَتِي

فَإِنْ كُنْتُ بِالْمَقْضِيِّ يَا قَوْمُ رَاضِيًا ... فَرَبِّي لَا يَرْضَى بِشُؤْمِ بَلِيَّتِي

وَهَلْ لِي رِضًا مَا لَيْسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي ... وَقَدْ حِرْتُ دُلُّونِي عَلَى كَشْفِ حَيْرَتِي

إِذَا شَاءَ رَبِّي الْكُفْرَ مِنِّي مَشِيئَةً ... فَهَا أَنَا رَاضٍ بِاتِّبَاعِ الْمَشِيئَةِ

وَهَلْ لِي اخْتِيَارٌ أَنْ أُخَالِفَ حُكْمَهُ ... فَبِاللهِ فَاشْفُوا بِالْبَرَاهِينِ غُلَّتِي

ولمَّا شاع هذَا النَّظم؛ قُتل هذا الزِّنديق بفتوى الشَّيخ تقيِّ الدِّين ابن العيد القشيري ﷺ.

ولمَّا كان مقصد هذَا السَّائل الطَّعن على الشَّريعة المُطهَّرة؛ انتُدب لجوابه أكابر علماء الشَّام ومصر، فكتبوا في جوابه قصائد بديعة نجومًا لأهل الهداية، ورجومًا لشياطين الغواية، أوردها العلَّامة السُّبكي بتمامها في الجزء السَّادس من الطَّبقات الشَّافعية الكبرى، وأودعتُ نخبةً منها في شرحي على «مشكاة المصابيح»، الموسوم بـ«التَّعليق الصَّبيح»، الَّذي حصلت له سعادة الطَّبع في دمشق الشَّام، مهاجر سيِّدنا إبراهيم ﷺ، تحت أنظار العلماء الكرام، حرسهم الله تعالى بعينه الَّتي لا تنام.

فبينا أنا يومًا كنتُ جالسًا في خلوتي إذ تذكَّرتُ تلك القصائد الغرَّ لعلماء الشَّام ومصر، فهاج قلبي أن أقول كما قالوا، وإن لم يكن كما قالوا، وأن أصول على ذلك الزِّنديق كما صالوا، وإن لم تكن صولتي وجولتي مثل ما صالوا وجالوا، وأنَّى يُدرك الظَّالع شأو الضَّليع، وأنَّى يستطيع العاجز أن يمشي مشي المستطيع.

فشرعتُ في إنشاء قصيدةٍ في ذلك بحول الله وقوَّته وتيسيره ومعونته[2]، وهي وإن كانت

---

(١) وردت في بعض المصادر: «فهل أنا..» وفي بعض: «فما أنا...».

(٢) وكان ذلك في سنة ست وخمسين بعد ألف وثلاثمائة من الهجرة النَّبويَّة، على صاحبها ألف ألف =

على وزنها لكن ليست على وزانها، وأين الثَّرى من الثُّريَّا؟ وأين الحضيض من الذُّروة العُليا، وأين الصَّعاليك من الملوك؟ وأين الحصاة من التِّبر المَسبوك؟ وأين الأعجميُّ من العربيِّ؟ وأين من الصَّافنات الجياد... الفرس الخشبيُّ.

ووضعتُ عليها لطلبة العلم شرحًا وجيزًا كافلًا لحلِّ مشكلاتها، وفتح مُغلقاتها، وسمَّيتُه بـ«سلك الدُّرر في شرح تائيَّة القضاء والقدر».

أسألُ الله ﷻ أن يتقبَّلها ويجعلها خالصة لوجهه الجليل، ووسيلة للنَّجاة من عذابه الوبيل، وذريعة لكرامة عبده الذَّليل كلِّ الذَّليل، وهو العزيز المُطلق؛ يُعزُّ مَن يشاء، وهو حسبنا الله ونعم الوكيل، ربَّنا تقبَّل منا إنَّك أنت السَّميع العليم، وتُب علينا إنَّك أنت التَّوَّاب الرَّحيم، فاطر السَّماوات والأرض، أنت وليِّي في الدُّنيا والآخرة، توفَّني مسلمًا وألحقني بالصَّالحين، وصَلِّ وسَلِّم وبارك وأنعم وتلطَّف وتكرَّم وتعطَّف وترحَّم[1] على سيِّدنا ومولانا محمَّدٍ، نبيِّك الأكرم ورسولك الأعظم، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذُرِّيَّاته أجمعين، وعلينا معهم يا أرحم الرَّاحمين.

❀ ❀ ❀

= صلاةٍ وألف ألف تحيَّة. (المؤلف).

(١) فهذه ثمانية أفعال تنازعت فيَّ على سيِّدنا محمَّد ﷺ، وعند الفراء يجوز إعمال الكلِّ في وقتٍ واحدٍ إذا لم تكن مختلفة في الاقتضاء، وهو المُختار عندي. ومَن لم يكن عنده كسوة ـ ونفي الكسوة لا يدلُّ على نفي الخرقة ـ وكساء من العلم، أو كان الزَّمان زمان الشِّتاء؛ فلا بدَّ أن يَميل إلى الفرَّاء. (المؤلف).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) أُسَبِّحُ للهِ العَظِيمِ بِحَمْدِهِ وأَشْكُرُهُ فِي كُلِّ سِرٍّ وجَهرَة

(٢) وأُهدِي[1] سَلامِي كَالعَبِيرِ المُفَتَّت لِمَن خَصَّهُ المولَى بِخَتمِ النُّبوَّة

(٣) مَعَ الآلِ والصَّحب الكِرامِ جَمِيعهم وسَائر أهل الله أهلِ البَصِيرة[2]

بَيَان حقيقة العالَم المكانيِّ ومادَّته وصورته

(٤) أَلَا كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ وَوُجُودُه مُعَارٌ لَه مِن حَضرَة الأحَدِيَّة

(٥) ومَا هذِه الأكوَانُ إلَّا مَظَاهِرٌ لأسمَائِهِ الحُسنَى لَدَى أَهل خُبرة

(٦) وإنَّ وُجُودَ المُمكِنَاتِ بِأَسرِهَا كَمِثْلِ العُكُوسِ فِي المَرَايَا الصَّقِيلة

في هذه الأبيات إشارة إلى ما حقَّقه العارف الرَّبَّاني الشَّيخ أحمد الفاروقي السَّرهندي الشَّهير بـ(مُجدِّد الألف الثَّاني) قدَّس الله سرَّه، من أن العالَم عُكوس الأسماء الحُسنى، والصِّفات الإلهيَّة انطبعتْ في مرايا الإعدام المُقابلة لتلك الأسماء والصِّفات، ولكلِّ صفةٍ عدمٌ يُقابلها، فللعلم عدمٌ يُقابله وهو: الجهل. وللقدرة عدمٌ يُقابلها وهو: العجز، وتلك العدمات لها تَميُّزٌ في علم الحقِّ، فصارت بذلك التَّميُّز مرايا الأسماء والصِّفات، ومجالي أنوارها.

---

(١) هذا البيت جاء في الهامش:

وأحسن تسليم وأزكى تحيَّة لأفضل مبعوثٍ إلى خير أمَّة

(٢) السَّريرة. (المؤلف).

ومن المعلوم: أنَّ ظهور الشَّيء على الوجه الأتمّ؛ إنَّما يُتصوَّر في مقابله الحقيقي، والأشياء إنَّما تتبيَّن بضِدِّها، فبالضَّرورة يحصل ظهور الوجود على الوجه الأتمّ في مرآة العدم الصِّرْف، الَّذي هو مقابلٌ للوجود الصِّرْف.

والوجود الصِّرْف هو حقيقة واجب الوجود، وإنَّه عَين كلِّ خيرٍ وكمالٍ، وإن العدم الصِّرف هو عينُ كلِّ شرٍّ ونقصٍ.

فحقائق المُمكنات هي عُكوس الأسماء والصِّفات المُنطبعة في مرايا الإعدام المُقابلة لها، فالإعدام بمنزلة المادَّة لتلك الماهيَّات، وعُكوس الأسماء والصِّفات بمنزلة الصُّور الحالَّة في المادَّة، ومَن أراد بسطًا فليُراجع «مكتوبات الشَّيخ المُجدِّد»، و«التَّفهيمات الإلهيَّة» للشَّاه وليِّ الله الدَّهلوي.

وإلى هذا المعنى أشار العارف الجامي بقوله:

كلُّ مـا في الكـون وهـمٌ أو خيالٌ … أو عُكـوسٌ في المَرايـا أو ظِـلال[1]

(٧) ومَـا عَالَـمُ الإمكَانِ إلَّا وإنَّـهُ … كَظِـلِّ جِـدَارٍ أو سَـرَابٍ بقِيعَـة

(٨) ومَـا الكَـونُ إلَّا لُمْعَـةٌ مِـنْ ضِيَائِـهِ … ومِـن ضَوئِـهِ كُلُّ العَوَالِـمِ ضَـاءَت

(٩) ومَـا الكَـوْنُ إلَّا قَبسَـةٌ مِـنْ جَمَالِـهِ … وَمِـن نُـورِهِ كُلُّ البَرَايَـا اسـتَنَارَت

(١٠) ومَـا ذَرَّةٌ فِي الكَـونِ إلَّا وَنُورُهَـا … لَمُقتَبَـسٌ مِـنْ نُـورِه كالأَشِـعَّة

(١١) إِذِ الكَـونُ فِي نَفْسِ الحَقِيقَـة ظُلمَـةٌ … كَأَرضٍ إذَا مَـا الشَّـمْسُ عَنْهَـا تَوَلَّـت

(١٢) تَجَلَّتْ صِفَاتُ اللهِ فِي الخَلْقِ مِثل مَا … تَجَلَّـتْ مَعَـانٍ فِي كَلَامٍ وَكِلمَـة

---

(١) في «ديوانه: فاتحة الشباب»: ١/ ٥٥٠.

الكِلْمة: بكسر الكاف وسكون اللام، لغة فيها[(١)].

وهذا توضيح لِما سبق من أنَّ العالَم مرايا للكمالات الصِّفاتيَّة ومُجالي للظُّهور الأسمائيَّة بمثال غريب وتمثيل بديع.

ذكره المُجدِّد السِّرهِندي في «مكتوباته»: «وهو أنَّ عالمًا ذا فنون؛ أراد أن يُخرج كمالاته المُتنوِّعة إلى عُرضَة[(٢)] الظُّهور وأن يُورد خفاياها المُستحسَنة في معرض الإيضاح لأهل الشُّعور، فأوجد الحروف والأصوات ـ يعني بالتَّكلُّم ـ وأظهر كمالاته المَخْفيَّة في مرايا تلك الحروف والأصوات.

ففي هذه الصُّورة لا يُقال: أنَّ هذه الحروف والأصوات، التي كانت مُجالي ومرايا لتلك الكمالات، وأنَّها عينُ تلك الكمالات، أو مُحيطةٌ بتلك الكمالات بالذَّات، أو قريبةٌ منها، كذلك بالذَّات أو لها مَعيَّة بها كذلك، بل بينهما نسبة الدَّالِّيَّة والمَدلُوليَّة فقط، وليس لتلك الحروف والأصوات نصيبٌ ووظيفةٌ سوى الدَّلالة على تلك الكمالات.

فكذلك فيما نحن فيه لا شيء سوى علاقة الدَّالِّيَّة والمَدلُوليَّة والظَّاهريَّة والمظهريَّة أيضًا، فإنَّ العالَم عَلَمٌ لصانعه تعالى وتقدَّس، ومظهرٌ لظهور كمالاته الأسمائيَّة والصِّفاتيَّة».

كذا في المكتوب الحادي والثَّلاثين من السِّفْر الأوَّل من «المكتوبات»[(٣)].

تنبيه: إنَّ المُراد بمَظهريَّة العالَم ومِرآتيَّته للأسماء والصِّفات كونُه مَظهرًا ومِرآةً لصُور

---

(١) في «اللسان»: «والكِلْمة: لغة تميمية، والكَلِمة: اللفظة، حجازية. تميم تقول: هي كِلْمة، بكسر الكاف، وحكى الفرَّاء فيها ثلاث لغات: كَلِمة وكِلْمة وكَلْمة. والكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلَّفة من جماعة حروف ذات معنى، وتقع على قصيدة بكمالها وخُطبة بأسرها». «لسان العرب»: ١٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤.

(٢) في الأصل: «عرصة»، وورد في بعض النُّسخ: «عرضة»، وهو يُوافق ما في الأصل بالفارسية والأردية المترجمة.

(٣) «المكتوبات الربانية»: ١/ ٩٦.

الأسماء والصِّفات، لا لأعيان الأسماء والصِّفات، فإنَّ الاسم كالمُسمَّى، لا يكون مُحاطًا بالمِرآة أصلًا، والصِّفة كالموصوف لا تكون مُقيَّدة بظهر قطعًا.

وجـلَّ اسـمُه سـبحانه مِثـل ذاتِـه كَـذا وصفـهُ مـن أن يُحاطَـا بِمَظهـرِ

مكتوب نمرة (٢٨٧)[١].

وقال العلَّامة الألوسي في «الأجوبة العراقيَّة عن الأسئلة الإيرانيَّة»: «ينبغي أن يُعلم أنَّ كون الشَّيء مُجلًّى لشيءٍ ليس كونه مَحلًّا له، فإنَّ الظَّاهر في المرآة خارج عنها بذاته قطعًا، بخلاف الحالِّ في مَحلٍّ، فإنَّه حاصل فيه.

فالظُّهور غير الحلول، فإنَّ الظُّهور في المظاهر للواسع القدُّوس يُجامع التَّنزيه، بخلاف الحُلول؛ ولذا قال ﷻ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨]، بعد قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٨].

وقصارى ما يلزم تجلِّي القديم في صورة حادثة، ولا مَحذور في ذلك؛ لأنَّ القديم باقٍ في حال تَجلِّيه على الإطلاق الحقيقي الذَّاتي، فالتَّجلِّي في المُقيَّدات لا يُنافي التَّنزيه، ويكفي لإثبات هذا التَّجلِّي ما جاء في الحديث الصَّحيح من تجلِّيه تعالى في الصُّور يوم القيامة، وإجراء المُتشابهات على ظواهرها مع التَّنزيه بـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، مذهب غير واحد من السَّلَف». انتهى[٢].

وقال الله ﷻ في التَّوراة: [سبحان الَّذي ظهر في طور سيناء، وأشرق على ساعير، واستعلن من جبال فاران][٣].

---

(١) «المكتوبات الربانية»: ٢/ ١٦٧.

(٢) مخطوط: «الأجوبة العراقيَّة على الأسئلة الإيرانيَّة»: مكتبة حسن حسني لوحة رقم: (٦/ ب) و(٧/ ب). ومكتبة دار الكتب القومية: (١٠/ ب)، و(١١/ أ).

(٣) الإصحاح الثالث والثلاثون من العهد القديم، بِسفر التَّثنية (تثنية الاشتراع): ٣٣/ ٢. وساعير: اسم لجبال فلسطين. وهو من حدود الرُّوم، وهو قرية من الناصرة بين طبرية وعكَّا. وذكره في التَّوراة: (جاء =

وقال تعالى في القرآن المجيد: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨].

(١٣) بِمِرآةِ لا شَيءٍ تَجَلَّى وُجُودُه   فَجَاءَ وُجُودٌ حَادِثٌ للخَلِيقَة

أي: لَمَّا انعكس وجودُ الواجب ـ جلَّ مَجدُه ـ في مرآة العدم المَحض حدَث وجودٌ حادثٌ في المُمكنات، وصحَّ أن يُقال لها: كائنات، فضوء الوجود الإلهيّ الأزليّ وعكسُه في مرآة العدم هو حقيقة الوجود الحادث، فافهم ذلك واستقم.

رُوي: أن سيِّدنا يوسف الصِّدِّيق ﷺ لمَّا صار عزيز مصر زاره بعضُ أصدقائه، فقال له: بماذا جِئتني يا أخي من الهديَّة؟ فقال: نظرتُ فلم أرَ فوق حُسنك وجمالك شيئًا، فجئتُك بمرآةٍ تُشاهد فيها حُسنك وجمالك. أهـ.

فكذلك مرآة العدم يُشاهد فيها جمال الوجود الواجب القديم، ومرآة العجز يُشاهد فيها جمال القدرة الأزليَّة وحُسنها، ومرآة الجهل يُشاهد فيها جمال العلم الأزليّ القديم وحُسنه.

فعكس الاقتدار الإلهيّ في مرآة العجز هو الاختيار الحادث في العبد، وهذا هو حقيقة الكسب الذي قال به الأشعري رحمه الله(١).

= من سينا)، يريد مناجاته لموسى على طور سينا، (وأشرق من ساعير): إشارة إلى ظهور عيسى بن مريم ﷺ، من الناصرة، (واستعلن من جبال فاران): وهي جبال الحجاز، يريد النَّبيَّ ﷺ. «معجم البلدان»: ٣/ ١٧١. وفاران: كلمة عبرانية معربة: وهي من أسماء مكة، ذكرها في التَّوراة، قيل: هو اسم لجبال مكَّة. «معجم البلدان»: ٤/ ٢٢٥.

(١) قال في «مقالات الإسلاميين»: ٢/ ٣٩٣: «معنى الكسب أن يكون الفعل بقُدرة مُحدَثة، فكلُّ مَن وقع منه الفعل بقُدرة قديمة فهو فاعلٌ خالقٌ، ومَن وقع منه بقُدرة مُحدَثة؛ فهو مكتسبٌ، وهذا قول أهل الحقِّ»، وقال في موضع آخر: «والحقُّ عندي أنَّ معنى الاكتساب هو أن يقع الشَّيء بقُدرة مُحدَثة، فيكون كسبًا لمَن وقع بقُدرته» صـ٣٩٥.

وإليه الإشارة في البيت الآتي:

(١٤) بِمِرآةِ عَجْزٍ قَدْ تَجَلَّى اقتِدَارُه فَجَاءَ اختِيَارٌ حَادِثُ الجوهَرِيَّة

وإن شئتَ فقل:

(١٥) بِمِرآةِ عَجْزِ العَبْدِ لاحَ اقتِدَارُه فَصَيَّرَه ذَا القُدْرَةِ المُضْمَحِلَّة

قال الشَّيخ الأكبر ـ قدَّس الله روحه ـ في الباب الثَّاني والتِّسعين ومائتين من «الفتوحات»: «نور الشَّمس إذا تجلَّى في البدر يُعطي من الحكم ما لا يُعطاه من الحكم بغير البدر، لا شكَّ في ذلك، وكذلك الاقتدار الإلهيّ، إذا تجلَّى في العبيد فظهرت الأفعال عن الخلق، فهو وإن كان بالاقتدار الإلهيّ، ولكن يختلف الحكم؛ لأنَّه بوساطة هذا المُجلَّى الَّذي كان مثل المرآة لتجلِّيه.

ولاختلاف الأثر تغيَّر الحكم النُّوريُّ في الأشياء، فكان ما يُعطيه النُّور بوساطة البدر خلاف ما يُعطيه بنفسه بلا واسطة، كذلك يختلف الحكم في أفعال العباد.

وكما تعلم عقلًا أنَّ القمر في نفسه ليس فيه من نور الشَّمس شيءٌ، وأنَّ الشَّمس ما انتقلت إليه بذاتها، وإنَّما كان لها مُجلًّى، وأنَّ الصِّفة لا تُفارق موصوفها؛ والاسم مُسمَّاه، كذلك العبد ليس فيه من خالقه شيءٌ، ولا حلَّ فيه، وإنَّما هو مُجلًّى له خاصَّة ومَظهرٌ له.

وكما يُنسب نور الشَّمس إلى البدر، كذلك يُنسب الاقتدار الإلهيُّ إلى الخلق حِسًّا، والحال الحال، وإذا كان الأمر بين الشَّمس والبدر بهذه المثابة مع الخفاء، فما ظنُّك بالأمر الإلهيّ في هذه المسألة مع الخلق أخفى وأخفى؟». «فتوحات»[1].

(١٦) فَمَا العَدَمُ الذَّاتِيُّ إِلَّا أَثِيرُهَا وَصُورَتُهَا عَكْسُ الصِّفَاتِ القَدِيمَة

أي: العدم الأصليُّ بمنزلة الهيولي والمادة للكائنات، وعُكوس الصِّفات القديمة بمنزلة الصُّور لها، فهي مُركَّبة منهما، كما صرَّح به في البيت الآتي، والأثر: المَادَّة.

(١٧) فَذَاكَ هُيُولاهَا وهَاتيك صُورةٌ تَرَكَّبَ مِن هَذَيْنِ كُلُّ هَوِيَّة

---

(١) «الفتوحات المكية»: ٤/ ٤٣١.

ذِكر المَذاهِب فِي مَسْألة خَلْق أَعمَالِ العِبَادِ

اعلم أنَّ مسألة القضاء والقدر قد كثُرت فيها الحيرة والضَّلال، فمنهم مَن أفرط ومنهم مَن فرَّط:

فالقدريَّة (أي: المعتزلة) فرَّطوا حيث قالوا: بأنَّ العبد مُوجد وخالق لفعله الاختياري، وأنَّ الله تعالى قد فوَّض الأمر إليه، فيفعل ما يشاء.

والجبريَّة أفرطوا حيث قالوا: لا كسب للعبد ولا اختيار، وأنَّه مجبور على الفعل ومقسور على العمل، كالرِّيشة المُعلَّقة في الهواء.

وقد ضلَّ الفريقان؛ القدريَّة بإضافة صفة الله تعالى إلى العبد، وهي خلق الأفعال.

والمُجبِّرة: بإضافة أفعاله القبيحة إلى الله تعالى ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وتوسَّط أهل السُّنَّة والجماعة ـ كثَّر الله سوادَهم ـ حيث قالوا: إنَّ العبد كاسب ومُكتسب، لا خالق ومُخترع، فتُضاف الأفعال إلى العباد من جهة الكسب والاكتساب، وإلى الله ﷻ من جهة الاختراع والإيجاد، وخير الأمور أوسطها.

قال الإمام أبو حنيفة وأصحابه ﷺ: الخلق فِعل الله، وهو إحداث الاستطاعة في العبد، واستعمال الاستطاعة فِعل العبد حقيقةً لا مجازًا، فسلِموا من القدر والجبر. كما في «شرح الفقه الأكبر» للإمام أبي منصور الماتريدي[1].

واستعمال هذه الاستطاعة وصرفها إلى الطاعة والمعصية هو الكسب المُعبَّر عنه بالعزم، ويُقال له: القصد والاختيار الجزئي.

---

(١) «شرح الفقه الأكبر للماتريدي»: ص١٩. وفي نسبته إليه كلامٌ.

وهذه الاستطاعة الَّتي أحدثها الله تعالى في العبد تُؤثِّر في فِعله وعمله، لكن بإذنه تعالى وإقداره وتمكينه، فالفِعل بمجموع القُدرتين بمعنى أنَّ قدرة العبد مُؤثِّرة في الفِعل بإعانة القُدرة القديمة، فلا يلزم توارُد المُؤثِّرين المُستقلَّيْن على أثر واحد.

وهذا مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني ومَن تبعه من الأشاعرة، واستقرَّ عليه رأيُ إمام الحرمين في «الرِّسالة النِّظاميَّة»[1]، حيث صرَّح فيها في مواضع بأنَّ تأثير قدرة العبد في فِعله بإذن الله تعالى إنَّما هو بالاختيار، ثم قال: «هذا، والله، هو الحقُّ الَّذي لا غطاء دونه»[2].

وذهب جمهور الماتريدية على أنَّ أصل الفِعل بقدرة الله تعالى، والاتِّصاف بكونه طاعةً أو معصيةً بقدرة العبد، فأصل الفِعل بخلقه تعالى، وكونه طاعةً ومعصيةً بفعل العبد؛ لأنَّه حصل بصرف الاستطاعة إليه، واستعمالها فيه.

ولذا يَستحقُّ الثَّواب أو العقاب عليه، ولا يبعد أن يكون ما قاله السَّادة الماتريدية أحبَّ عند الرَّبِّ؛ لأنَّه أقرب إلى الأدب.

❁ ❁ ❁

---

(١) يقول شيخ الإسلام الكوثري: «والأستاذ راغب باشا المُحقِّق المشهور أنجز التَّحقيق في «اللمعة» إلى أنَّ قول إمام الحرمين في «النِّظاميَّة» هو الَّذي استقرَّ عليه رأيُه لتأخُّر تأليفها عن تأليف الإرشاد، وأنَّه تحقيق مذهب الأشعري الموافق لِمَا في مُؤلَّفاته الأخيرة».

(٢) «العقيدة النظامية»: صـ٤٩.

إبطال مذهب القدريَّة

(١٨) هُـوَ اللهُ رَبُّ الكَـونِ لا ربَّ غَيـره   هُـوَ الخَالِـقُ البَـارِئ بِمَحْـضِ المَشِـيئَةِ
(١٩) وَخَالِـقُ صَانِـعٍ وخَالِـقُ صُنعِـه   وَفِيـــهِ حَدِيـــثٌ مُسْـنَدٌ عَـنْ حُذَيفَـة

أخرج البخاري في كتاب «أفعال العِباد»[1] بإسناده عن حذيفة قال: «قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ الله يصنع كلَّ صانع وصنعتَه»، قال البخاري: وتلا بعضُهم عند ذلك: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]». كما في «شفاء العليل»[2].

وقال الحافظ العسقلاني: «هو حديث صحيح»، راجع «فتح الباري»، باب قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]، باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦][3].

(٢٠) لَـهُ المَثَـلُ الأَعْلَـى لَـهُ الخَلْـقُ كُلُّـه   تعالـى عَـنِ الإِشْـرَاكِ فِـي الخَالِقِيَّـة
(٢١) مَلِيـكٌ تعالـى شَـأْنُهُ جَـلَّ مَجْـدُه   تَفَـرَّدَ بِالتَّأْثِيـــرِ وَالفَاعِلِيَّـــة
(٢٢) مَلِيـكٌ يُعِـزُّ مَـنْ يَشَـا وَيُذِلُّـه   لِيُعْـرَفَ شَـأْنُ الحَضـرَةِ المَلِكِيَّـة
(٢٣) وَيَرْفَـعُ أَقْوامًـا وَيَخْفِـضُ مَعشَـرًا   يُمِيـــتُ ويُحْيِـــي هَكَـذَا كُلَّ لَمحَـة

---

(١) «خلق أفعال العباد»: صـ٧١ـ.
(٢) «شفاء العليل»: ١/ ٣٥٩.
(٣) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٩٨ و٥٣٠.

(٢٤) هُوَ الفَاعِلُ المُختَارُ فِي مَلَكُوتِه سَمَا عَنْ سُؤَالِ العِلَّةِ المُوجِبِيَّة

(٢٥) هُوَ المَالِكُ الخَلَّاقُ يَفْعَلُ مَا يَشَا تعالى عَنِ التَّسآلِ عَنْ سَبَبِيَّة

(٢٦) وَلا يُسْأَلُ المَوْلَى بَلِ العَبْدُ يُسْأَل تَفَرَّدَ بِالتَّكْوِينِ وَالمَالِكِيَّة

❁ ❁ ❁

بيان أنَّ الخير والشرَّ كلَّه بقضاء الله تعالى وقدره وأنَّ خلق المتقابلات والمتضادَّات أدلُّ على القُدرة

(٢٧) هُوَ الخَالِقُ الأَزْوَاج كالأَرْضِ والسَّمَا وشَـمْسِ الضُّحَـى واللَّيْلَـة المُدْلَهِمَّـة

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ [يس: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

(٢٨) وَسُـمٍّ وَتِرْيَـاقٍ دَوَاءٍ وَعِلَّـةٍ وَكُفْـرٍ وَإِيمَـانٍ وَنُـورٍ وَظُلْمَـة

(٢٩) لِيُعلَـمَ أنَّ اللهَ جَـلَّ جَلَالُـه عَلِيـمٌ قَدِيـرٌ كَامِـلٌ فِـي الإِرَادَة

أي: ليُعلم أنَّ الله ﷻ هو القادر الَّذي لا يُعجزه شيء، فإنَّ خلق المُتضادَّات والمتقابلات (كالليل والنَّهار، والشَّقاوة والسَّعادة، والهدى والضَّلالة) أدلُّ على القدرة. وبسط ابن القيم الدمشقي الَّذي إذا قال لم يترك مقالًا لقائل في «شفاء العليل»[١].

(٣٠) وِيُـعْـلِـمَ أَنَّ الخَيْـرَ وَالشَّـرَّ كُلَّه بِتَقْدِيرِهِ المَحْجُوبِ عَـنْ كُـلِّ مُقْلَة

(٣١) وَلا تُـعْرَفُ الأَشْـيَـاءُ إِلَّا بِـضِـدِّهَـا يَـلُـوحُ بِقُبْـحِ الضِّـدِ حُسْنُ الحَقِيقَة

أي: يظهر بقبح الضِّدِّ حُسنُ الحقيقة المقابلة له، كما قال الشَّاعر[٢]:

فَالوَجْـهُ مِـثْـلُ الـشَّـمْـسِ مُـبْـيَـض وَالشَـعْـرُ مِـثْـلُ اللَّيْـلِ مُـسْـوَدُّ

ضِـدَّانِ لمَّـا اسْـتُـجْـمِـعَـا حَـسُـنَـا وَالضِّـدُّ يُـظْـهِـرُ حُـسْـنَـهُ الضِّـدُّ

---

(١) «شفاء العليل»: ٢/ ١٩٧ ـ ٢٠٢.

(٢) والأبيات هذه من قصيدة طويلة معروفة بالقصيدة اليتيمة، صاحبها مجهول.

(٣٢) وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَيْلٌ لمَا عُرِفَ الضُّحَى بِهِ قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَ شَمْسٍ مُضِيئَة[١]

(٣٣) وَلَوْلَمْ يَكُنْ كُفْرٌ لمَا عُرِفَ الهُدَى وَلَوْلا العَمَى مَا لاحَ فَضْلُ البَصِيرَة

(٣٤) وَلَوْلا أَبُو جَهْلٍ لمَا عَرَفَ الوَرَى أَبَا بَكْرِ الصِّدِّيقَ أَسْعَدَ أُمَّة

(٣٥) وَلا يُعْرَفُ الإحْصَانُ إلا بِزِنْيَة وَلا يُعْرَفُ الإسْعَادُ[٢] إلا بِشِقْوَة

(٣٦) وَلا تُعْرَفُ الأنْوَارُ إلا بِظُلْمَة وَلا تُعْرَفُ الأمْلاكُ إلا بِجِنَّة

(٣٧) وَلَيْلَةُ قَدْرٍ قَدْ تَبَيَّنَ فَضْلُهَا بِلَيْلَةِ أَمْرَاضِ الوَبَاءِ الوَخِيمَة

(٣٨) وَلَوْلا أَرَادَ اللهُ فَهْمَ ضَلالَة لمَا خَلَقَ الشَّيْطَانَ مَنْبَعَ[٣] ضِلَّة

(٣٩) رَوَاهُ الإمَامُ البَيْهَقِيُّ وَصَحَّحَا وَفِي ذَاكَ دَمْغُ الفِرْقَةِ القَدَرِيَّة

أخرج البيهقي في كتاب «الأسماء والصِّفات» عن عمر بن ذر، قال: «دخلنا على عمر ابن عبد العزيز، فقال: لو أراد الله ألَّا يُعصى لما خلق إبليس.

وحدَّثني مقاتل بن حيان عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جدِّه، قال: أن النَّبيَّ ﷺ قال لأبي بكر: «يا أبا بكر لو أراد الله ألَّا يُعصى ما خلق إبليس» اهـ[٤].

(٤٠) فمَا شاءَ ربُّ الكون كانَ بكافِه[٥] ومَا لم يَشَأْه لم يَكُنْ دُون ريبَةِ

المراد بالكاف: كاف ﴿كُن﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

(٤١) مُحالٌ مُحالٌ أَن يَقول مُوحِّدٌ كمَا قالَ أربابُ اعْتِزَالٍ وَبِدعةِ

---

(١) الظَّهيرة. (المؤلف).

(٢) التَّنعيم. (المؤلف).

(٣) أي: الغواية ـ أصل البليَّة. (المؤلف).

(٤) «الأسماء والصفات»: صـ١٧٠.

(٥) بأمره. (المؤلف).

(٤٢) ومَا شِئتُه كانَ ومَا شَاءَ لَم يَكنْ　　　مَقالةُ أصْحابِ الْعُقولِ السَّخيفةِ[١]

معنى البيتين: أنَّ الأمَّة سلفها وخلفها قد أطبقت على قول: (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن).

والمعتزليُّ يقول: (ما شِئتُ ـ بضمير المتكلِّم ـ كان، وما شاء الله لم يكن)، فمستحيل أن يصدر مثلُ هذا القول عن المُوحِّد الَّذي يعتقد أنَّه لا يجري شيءٌ في ملكه وملكُوته طرفة عين، ولا فلتة خاطر، ولا لفتة ناظر إلَّا بقضائه، وقدره، ومَشيئته، وإرادته، ولله درُّ القائل مخاطبًا للمُعتزلي:

وأثبتَّ المَشيئةَ للبَرايا　　　ولم تُثبت لربِّك ما يشاء

وأنكرتَ القضاءَ له انفرادًا　　　فقُلتَ لعبده أيضًا قضاءُ

وأوجبتَ الصَّلاحَ عليه حُكمًا　　　يُخالفه العبيدُ إذا أشاءوا

فمَن يُقضى عليه إن عصَوْه　　　أمقهورٌ إلهُك أم مُساءُ؟

والقصيدة بتمامها مذكورة في «طبقات الشَّافعية الكبرى»[٢].

(٤٣) وهلْ كائنٌ في ملكِه غيرُ ما يَشا　　　وَلِلحِلمِ يُعصَى لا بِقَهرٍ وَغَلْبة

في هذه الأبيات إشارةٌ إلى ما حُكي أنَّ القاضي عبد الجبَّار الهمداني، أحد شيوخ المعتزلة، دخل على الصَّاحب بن عبَّاد، وعنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني أحد أئمَّة أهل السُّنَّة، فلمَّا رأى الأستاذ قال: سبحان مَن تنزَّه عن الفحشاء (أي: عن خلق الشُّرور والمعاصي على زعمهم)، فقال الأستاذ: سبحان مَن لا يقع في ملكه إلَّا ما يشاء، فقال القاضي: أيشاء ربُّنا أن يُعصَى؟ قال الأستاذ: أيُعصى ربُّنا قهرًا؟

---

(١) السَّقيمة، العقيمة. (المؤلف).

(٢) «طبقات الشَّافعية الكبرى»: ٣/ ٤٣٦.

فقال القاضي: أرأيتَ إن منعني الهُدى، وقضى عليَّ بالرَّدى، أأحسَن إليَّ أم أساء؟ فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فيختصُّ برحمته مَن يشاء؛ فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله ليس عن هذا جواب.

كما في «الإتحاف»[1]، و«شرح العقيدة السَّفارينية»[2].

وأصل هذا الجواب عن عبد الله بن عبَّاس ﷺ، كما ذكر الحافظ ابن القيم الدمشقي في كتاب «الهجرتين» (المطبوع على هامش «إغاثة اللهفان») حيث قال: «قال عطاء بن أبي رباح: كنتُ عند ابن عبَّاس، فجاء رجل فقال: يا ابن عبَّاس، أرأيتَ مَن صدَّني عن الهُدى، وأوردني دارَ الضَّلالة والرَّدَى، ألَا تراه قد ظلمني؟ فقال: إن كان الهُدى شيئًا كان لك عنده فمنَعَكَه؛ فقد ظلمَك، وإن كان الهُدى هو له يُؤتيه مَن يشاء؛ فلا يظلمك، قُم، لا تُجالسني»[3] اهـ.

(٤٤) هوَ اللهُ يَقضي مَا يَشاءُ بملكِه ويَختصُّ مِنهُم مَنْ يَشاءُ برَحْمةِ

(٤٥) هوَ اللهُ يَهدي مَنْ يَشاءُ لِنُوره ويَصْرِفُه عَمَّنْ يَشاءُ لِحِكْمةِ

(٤٦) يُعذِّب مِنهم مَنْ يَشاءُ ويَغفِر فقَبْضةُ نِيرَانٍ وَقَبْضةُ جَنَّةِ

في المِصراع الأوَّل اقتباسٌ من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٤٠].

وفي المِصراع الثَّاني إشارةٌ إلى ما رواه عمر بن الخطاب ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «إنَّ الله خلق آدم، ثمَّ مَسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذُرِّيَّة، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنَّة، وبعمل أهل

---

(١) «الإتحاف»: ٢/ ٢٧٩.

(٢) «شرح العقيدة السفارينية»: صـ٣٣١.

(٣) «طريق الهجرتين»: صـ١٧٤.

الجنَّة يعملون»... الحديث. رواه مالك[١]، والترمذي[٢]، وأبو داود[٣].

وأخرج أبو نعيم في «الحلية»[٤] ترجمة الزهري من طريق ابن أخي الزهري عن عمِّه قال: «كان عمر بن الخطاب يأمر برواية قصيدة لبيد الَّتي يقول فيها:

إنَّ تقوى ربِّنا خيرُ نفل ... وبإذن الله ريثي وعجل

أحمدُ الله فلا نِدَّ له ... بيدَيْه الخيرُ ما شاء نحل

مَن هداه سُبل الخيرِ اهتدَى ... ناعمَ البالِ ومَن شاءَ أضَل»

«فتح الباري»، في باب المَشيئة والإرادة[٥].

(٤٧) فذَا مَظهرٌ للُّطفِ مُجْلَى جَمالُه ... وَذَلِكَ مُجلًّى لِلْجَلَالِ ونقمةِ

راجع «مدارج السَّالكين»[٦]، و«شفاء العليل»[٧].

---

(١) «موطأ مالك» برواية الليثي: ٢٦١٧.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف: ٣٠٧٥.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: السُّنَّة، باب: في القدر: ٤٧٠٣.

(٤) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»: ٣/ ٣٦٩.

(٥) «فتح الباري»: ١٣/ ٤٤٩.

(٦) «مدارج السالكين»: ٢/ ١٩٠.

(٧) «شفاء العليل»: ٢/ ١٩٧.

بيان الحكمة في خلق الشُّرور، وأسبابها

(٤٨) ولوْ لَمْ تكُنْ أسبابُ شَرٍّ لَعُطِّلَتْ وَمَاتَـتْ كَثِيرٌ مِـنْ خِـلالٍ حَميـدةِ

أي: ولولا خلْقُ الله ﷻ الشَّرَّ وأسبابه كالشَّيطان، والنَّفس الأمَّارة، والكفر، والشِّرك، والظُّلم، والعدوان، وغير ذلك، لَما حصلت عبوديَّة الصَّبر، والحِلم، والعفو، والصَّفح، وكظم الغيظ، واحتمال المَكاره، ومُجاهدة النَّفس والشَّيطان، ومخالفتهما، والاستعاذة من شرِّهما، وغير ذلك مِمَّا لا يتمُّ وجودُه إلَّا بوجود الشَّيء وأسبابه، فلو لم يُقدِّر الله ﷻ الشُّرور وأسبابها؛ لتعطَّلت هذه العبوديَّات كلُّها.

(٤٩) كصَبرٍ وحِلْـم واحتمـالِ مَـكاره وتخليـصِ مَظلـومٍ وتَنفيسِ كُربة

(٥٠) ولوْ لَم يَكنْ فِسقٌ لَما وُجِد التُّقى ولا سَـعِدَتْ نَفْـسٌ بِحُسْـنِ الإنابـةِ

(٥١) ولـوْ لَـمْ يكـنْ فقرٌ وضُرٌّ وَحَاجـة لَمـا رُئِـيَ الإِنْسـانُ يَأتِـي بِسـجْدة

(٥٢) ولـوْ لـمْ يكـنْ إثـمٌ وذنْـبٌ وخطْئـةٌ لَمـا اسْـتَغْفَرَ الْمَولَـى أُهيْـلُ خَطِيئـة

أي: ولو لم تكن الذُّنوب والآثام، لبطلت عبوديَّة التَّوبة والاستغفار منها.

(٥٣) ولـمْ يَسْـتعِذْ بِـالله أَهْـلُ تَذَكُّـرٍ مِـنَ النَّفـسِ وَالشَّـيْطانِ صاحِـبِ نزْغـة

أي: ولـولا النَّفـس والشَّيطان لمـا حصلـت عبوديَّـة الاستعاذة بـالله تعالـى مـن عـدوِّه، وسؤاله أن يُجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

(٥٤) ولـوْ لَـم تكـنْ نَفْـسٌ عـدوَّةَ دِينِنَـا لَمَـا كـانَ مِنَّـا مَـنْ يَفُـوزُ بِتوْبـة

(٥٥) ولـوْلا الشَّـقا وَالأَشْـقِيَا لَتَعَطَّلَـتْ فَريضَـةُ غَـزْوِ الْكَافريـنَ بِمَـرَّة

أي: ولولا وجود الكفر والكفَّار لما حصلت عبوديَّة الجهاد، ولما نال أهلُه درجة الشَّهادة، ولما ظهر مَن يُقدِّم مَحبَّة خالقه وفاطره على نفسه وخاطره.

(٥٦) مُـوالاةُ أهْـلِ اللهِ بُغْـضُ عُداتِـه ... لَمِـنْ أفضَـلِ الطَّاعـاتِ أَعْظَـم قُربـة

(٥٧) كذلـكَ بذلـكَ النَّفس لله خالصًـا ... مَقـامٌ رَفيـعٌ مِـنْ مَقامـاتِ زُلفـة

(٥٨) فلوْ لمْ يكُنْ إبليسُ والنَّفْس والهوى ... لَمـا حصلَـتْ هَـذِي المَعالِـي بجُملـة

❁ ❁ ❁

بيان أنَّ إسعاد بعضٍ وإشقاء بعضٍ ليس بظُلم، بل هو من مقتضيات الحِكمة

(٥٩) وهَل يُنْسَبَنْ ظُلْمٌ إِلَى الْمَلْكِ عِنْدما　　يُكَـرِّم بَعْضًـا مِنْهُـمُ بِالْـوزارة

(٦٠) ويجعلُ مِنْهُمْ مَنْ يُكَنِّسُ قَصْره　　لِمـا أَنَّ هَـذَا مِـنْ ضَـرُورَاتِ سُـلطة

أي: لا يُنسَب الظُّلم إلى المَلك المَجازيِّ، حيث يجعل بعضَ مَن تحت تصرُّفه وزيرًا قريبًا، وبعضهم كنَّاسًا بعيدًا؛ لأنَّ كلًّا منهما من ضرورات المملكة، ومُقتضيات السَّلطنة، والحكومة والسُّلطة بالضَّمِّ: الملك والسَّلطنة.

(٦١) فما ظنُّكُمْ بـاللهِ أَحْكَمِ حاكِمٍ　　مَلِيـكِ السَّـمَاوَاتِ الْعُلَـى وَالْبَسِـيطَة

أي: فكيف يَنسبون الظُّلم إلى الله ﷻ في تخصيص بعضٍ من عباده بالسَّعادة، وبعض منهم بالشَّقاوة، فإنَّ هذا التَّفريق والتَّميز من لوازم الإيجاد والتَّكوين، ومقتضيات الحِكمة الرَّبَّانيَّة.

۞ ۞ ۞

مُساءلة الإمام أبي حنيفة الإمامَ جعفر الصَّادق ﵁

(٦٢) مَعَاذَ الإلهِ أنْ يُفوِّضَ أمْرَه إلَى العَبدِ تَفويضًا بِلا مثنويَّة

في هذه الأبيات الخمسة إشارةٌ إلى ما رُوي عن الإمام أبي حنيفة ﵁ أنَّه سأل الإمام جعفر بن محمد الصَّادق ﵁، فقال: يا ابن رسول الله ﷺ، هل فوَّض الله تعالى الأمر إلى العباد؟ فقال: اللهُ تعالى أجلُّ مِن أن يُفوِّض الرُّبوبيَّة إلى العباد؟

فقال له: هل يُجبرهم على ذلك؟ فقال: الله تعالى أعدلُ من أن يُجبرهم على ذلك، ثُمَّ يُعذِّبهم، فقال: وكيف ذلك؟ فقال: [بين بين][1]، لا جبر ولا تفويض ولا إكراه ولا تسليط. اهـ[2].

(٦٣) وحاشَا إلَهَ الكَونِ يُكْرِهُ عبْدَه[3] عَلَى الفِسْقِ وَالعِصْيَانِ أقبَح خَلَّة

(٦٤) ويُجْبِرُهمْ قَسْرًا عَلَيْهِ وَبَعْده يُذِيقُهُمُ سُوءًا بِغَيْرِ جَرِيمة

(٦٥) فلَا العَبْدُ مَقْهورٌ[4] وَلاَ بِمُفَوَّضٍ ولا مُستَقِلٌّ فِي اختيارِ المَشيئة

(٦٦) بَلِ الأمْرُ بَيْنَ الجبرِ وَالقَدْرِ فاعْلَمَنْ هُوَ الكَسْبُ[5] حَقًّا فِي لِسانِ الشَّريعة

أي: هذا الأمر المتوسِّط بين الجبر والتَّفويض، وبين العجز والقُدرة، وبين الاختيار

---

(١) في الأصل: «بين البين»، والمثبت من المصادر، وفي بعض: «الأمر بين بين»

(٢) «مختصر التحفة الاثني عشرية»: صـ٩٤، و«السُّيوف المُشرقة ومختصر الصَّواقع»: صـ٤٠٠.

(٣) فلا العبد مجبور، ولا هو قادر. (المؤلف).

(٤) مجبور مقسور. (المؤلف).

(٥) وذلك كسب الأشعري تثبت فذلك كسب في لسان الشريعة. (المؤلف).

والاضطرار، هو المُعبَّر عنه في لسان الشَّريعة بالكسب، الَّذي قال به الإمام الأشعري ﷺ.

(٦٧) وأمَّا اختِيارٌ[١] مُستقلٌّ فَإنَّه ... يَلِيقُ بِشَأنِ الحَضْرَةِ الصَّمَدِيَّة

قال الشَّيخ في الباب الثَّاني والسَّبعين (٧٢) من «الفتوحات»[٢]: «اتَّفق النُّظَّار كلُّهم على أنَّ خلق القدرة المُقارنة للفعل من العبد لله وحده، وأنَّها ليست من كسب العبد، ولا من خلقه، فكلُّ إنسان معه اختيار، لا أنَّ له من نفسه اختيارًا استقلالًا». انتهى، كما في «اليواقيت والجواهر»[٣].

فكلُّ إنسان مُختار في أفعاله، وحركاته، وسكناته، ومجبور في عين اختياره؛ لأنَّ اختياره ليس من عنده، ولا يلزم من هذا أن لا يكون مختارًا في أفعاله.

فإنَّ المختار لغةً وعُرفًا: مَن يكون مُتَّصِفًا بصفة الاختيار، كما أنَّ الموجود مَن يكون مُتَّصِفًا بصفة الوجود، وإن لم يكن وجودُه من عند نفسه، ولا خالقًا ومُوجِدًا لوجوده.

ألا ترى أنَّ الحقَّ ﷻ قدير، بمعنى: أنَّه مُتَّصِف بالقدرة الأزليَّة السَّرمديَّة، لا أنَّه خالق لقدرته ومُوجِد لها، فالعبد مُختار مُتَّصِف بصفة الاختيار، لكنَّ اختياره وقدرته ومكنته كلَّه بتخييره تعالى وأقداره وتمكينه، كما أنَّ وجوده بإيجاده وتكوينه، ولا يُمكن أن يكون وجود الصِّفة أزيدَ من وجود الموصوف. فافهم ذلك، واستقم، فإنَّه لطيف دقيق.

وإلى هذا المعنى أُشير في البيت الآتي:

(٦٨) وإنَّ اختِيَارَ العَبْدِ مِثْلُ وُجودِه ... مُعَارٌ لَه كَالحُلَّةِ المُسْتعارة

---

(١) الشطر الأوَّل لشيخنا الأكبر مولانا الشَّاه السَّيِّد محمَّد أنور، قدَّس الله سرَّه، وأصل البيت هكذا:

وأم اختيار مستقلٌّ فإنَّه ... مُحال فلا يسألك عنه سؤل

(٢) «الفتوحات المكية»: ٢/ ٤٦٠.

(٣) «اليواقيت والجواهر»: صـ١٩٨.

فيه إشارةٌ إلى أنَّ الاختيار للإنسان بمنزلة حُلَّة فاخرة، ألبسها الرَّحمن عبده، وإنَّه بدون هذه الحُلَّة عريان كالحيوان.

وخلاصة الكلام كما قاله العلَّامة الألوسي في «الأجوبة العراقيَّة عن الأسئلة الإيرانيَّة»: أنَّ الحقَّ المُؤيَّد بالكتاب والسُّنَّة هو التوسُّط بين الجبر والقدر كما أشار إليه أمير المؤمنين، باب مدينة العلم، عليٌّ كرَّم الله وجهه، للسَّائل عن القدر، أمَّا إذا أبيْتَ؛ فإنَّه أمرٌ بين أمرين، لا جبر ولا تفويض، فإنَّه إذا انتفى الجبر والتَّفويض كان الوسط أنَّ العبد له قدرة، ولكنَّه لم يُفوَّض إليه الأمر أن يفعل بها ما يَشاء وإن لم يُرِدْه الحقُّ، وأن يكفَّ نفسه عمَّا يشاء وإن شاء الحقُّ ﷻ فِعله، بل هو مُقيَّد بأن لا يفعل بها ما شاء إلَّا إذا شاء الله تعالى، بدليل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وغير ذلك من الآيات والأخبار؛ فلا يكون مُستقِلًّا مُفوَّضًا إليه الأمر في الفِعل والتَّرْك كما يزعمون، ولا مَنفيًّا عنه القدرة جملة واحدة.

(٦٩) وذلكَ تَفْصِيلٌ لِمَا قَالَ جَعْفَرٌ كَمَا هوَ يُرْوَى عَنْ إِمَامِ الأَئِمَّةِ

المراد بجعفر هو: الإمام جعفر الصَّادق ﵁، وبإمام الأئمَّة هو: الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ﵁.

إبطال مذهب الجبريَّة

(٧٠) تبـارَكَ رَبُّ الْعَـرْشِ جَـلَّ جَلَالُـه لَـه الْفَضْـلُ وَالنَّعْمَـاءُ فِـي كُلِّ حَالَـة

(٧١) لقَـدْ خَلَـقَ الإِنْسَـانَ مُظهِـر شَـأنِه وَمُطلِـع[1] أنْـوار الصِّفـاتِ الجليلـة[2]

(٧٢) علَى صُورة الرَّحمنِ سُبحانَ ربِّنا بأحْســنِ تَقْويــمِ وَأَجْمـلِ صُـورة

(٧٣) وأعْطـاهُ إدْراكًا وعَقْـلًا مُكمَّـلًا لِيَعْـرِفَ[3] أسْبابَ الْهُـدَى وَالضَّلالَـة

(٧٤) وأعْطـاهُ تمييـزًا وَحَـوْلًا وَقُـوَّةً لِجَلْــب انْتِفاعــاتٍ وَدَفْـعِ مَضَـرَّة

(٧٥) وأعْطـاهُ كسْبًا وَاخْتِيـارًا مُؤثِّـرًا لِيَعْلَــمَ أنِّـي قَـدْ فعَلـتُ بِخيرَتـي

فيه إشارةٌ إلى ما ذهب إليه الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وإمام الحرمين، من أنَّ القدرة الحادثة مُؤثِّرة في الفِعل بإذنه تعالى وتمكينه وإقداره، فلا يلزم اجتماع قُدرتين مُؤثِّرتين بالاستقلال في محلٍّ واحد، على خلاف ما ذهب إليه الإمام الأشعري من أنَّه لا تأثير للقدرة الحادثة.

قالوا: وهذا مائل إلى الجبر، ولذا يُسمَّى بالجبر المتوسِّط.

قلت: لعلَّ الإمام الأشعري ﷺ تحاشى عن إطلاق لفظ المُؤثِّر على اختيار العبد؛ لِما فيه من إيهام الاستقلال كما قال به أرباب الاعتزال؛ لأنَّه مالَ إلى الجبر، وعدَل عن أعدل الأمر.

---

(١) ومرآة. (المؤلف).

(٢) القديمة. (المؤلف).

(٣) ليعقل، ليدرك. (المؤلف).

بل اقتصر على ما جاء به الكتاب والسُّنَّة، ومضى عليه الصَّحابة والتَّابعون من إطلاق الكسب والاكتساب، وإثبات القدرة والمَشيئة للعبد، وغير ذلك من الألفاظ الَّتي ورد بها الشَّرع، وكيف وهو إمام أهل السُّنَّة والجماعة على الإطلاق، فاقتصر على السُّنَّة، واحترز عن بدعة الإطلاق، هذا ما خطر بالبال، والله أعلم بحقيقة الحال.

(٧٦) وَيَبْتَلِعَ الأَعْمَالَ مِنْ خَلْقِ قَصْدِهِ[1] ويُسْنِدَها لِلقُدْرة الْبَشرِيَّة

قولي: (يَبتلع وُيسند) معطوفًا على قولي: «يعلم»، وفي هذا البيت إلى الأبيات السِّتَّة إشارةٌ إلى بيان فائدة الكسب والاختيار على ما أفاده مُحدِّث الهند الشَّاه وليُّ الله الدَّهلوي في «حُجَّة الله البالغة» من أنَّ الله ﷻ خلق العبد وأعطاه كسبًا واختيارًا مُؤثِّرًا: «ليبتلع الأعمال من طريق بُلعوم اختياره، وحلقوم قصده وإرادته؛ فالبهائم تفعل أفعالًا بالاختيار، ولكن لا تدخل أفعالها في جَذر أنفسها، ولا تتلوَّن أنفسُها بأرواح تلك الأفعال، وإنَّما تلتصق بالقُوى القائمة بالروح الهوائي فقط؛ فيسهل عليها صدور أمثالها.

والإنسان يفعل أفعالًا، فتفنى الأفعال، وتُنزع منها أرواحُها؛ فتَبلعها النَّفس، فيظهر في النَّفس إمَّا نورٌ وإمَّا ظُلمة.

وقول الشَّرع: «شرط المُؤاخذة على الأفعال أن يفعلها بالاختيار، بمنزلة قول الطيب: شرط التَّضرُّر بالسُّمِّ، والانتفاع بالتِّرياق أن يدخلَا في البُلعوم، وينزلا في الجوف». اهـ[2].

(٧٧) وتَقْبَلَ نَفْس المَرْء لونَ فِعالِه وَتَنْصَبِغَنْ فِي صَبْغِها كُلَّ صِبغة

أي: ولتقبل نفسُ العبد لون أفعاله، وتنصبغ في صبغ أعماله كلَّ الانصباغ.

قال المُحدِّث الدَّهلوي: «إنَّما يُشترط وجود الاختيار وكسب العبد في الجزاء بالعرض، لا بالذَّات؛ وذلك لأنَّ النَّفس النَّاطقة لا تَقبل لون الأعمال الَّتي لا تستند إليها،

---

(١) كسبه. (المؤلف).

(٢) «حجَّة الله البالغة»: ١/ ١٠٠.

بل إلى غيرها من جهة الكسب، ولا الأعمال الَّتي لا تستند إلى اختيارها وقصدها، وليس في حكمة الله تعالى أن يُجازي العبد بما لم تَقبل نفسه النَّاطقة لونه.

فإذا كان الأمر على ذلك كفى هذا الاختيار، غير المُستقلّ في الشَّرطيَّة، إذا كان مُصحِّحًا لتخصيص هذا العبد بخلق الحالة المُتأخِّرة فيه دون غيره، وهذا تحقيقٌ شريف مفهوم من كلام الصَّحابة والتَّابعين، فاحفظه» اهـ. «حجَّة الله البالغة»[1].

(٧٨) ويَدْخُلَ مَا يَأْتِيهِ فِي جِذْرِ نفسِه   فَيَحْسُنُ تَرْتِيبِ الْجَزَا وَالْمَثُوبة

أي: وأعطاه كسبًا واختيارًا ليَدخلَ ما يفعله العبد في جذر نفسِه، فيَحسُن ترتيب الجزاء من الثَّواب والعقاب على ما دخل في جذر نفسِه وأصل طبيعته.

(٧٩) ومَا هذِه الأَعْمَالُ إلَّا مَطاعِمٌ   بُلعُومُها فِي الْعَبْدِ حَادِثُ قُدْرة

أي: أعمال العبد وأفعاله بمنزلة المآكل والمشارب، والقُدرة الحادثة بمنزلة البُلعوم والحُلقوم.

(٨٠) فمِنْ ذَلِكَ الْبُلْعُومِ يَبْلَعُ فِعْلَه   وَيُنْزِلُهُ فِي جَوْفِهِ بِسُهُولة

أي: من طريق بُلعوم القُدرة الحادثة يَبتلع العبدُ فِعله، ويُنزله في جذر نفسِه، وهو كِنايةٌ عن سُهولة صدور الأعمال منه.

(٨١) ولَوْلا ابتلاعُ النَّفْسِ رُوحَ فِعالها   لَما صَحَّ تَكْلِيفٌ لَها بِوَظِيفَة

(٨٢) وإكْرَامُه بِالْعِلمِ وَالفَهْمِ وَالْحِجي   ومَكَّنَهُ مِنْ كَسْبِ كُلِّ فضِيلة

(٨٣) وبِالْجُملَة الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلالُه   لَقَدْ كَمَّلَ الإنسانَ مِنْ كُلِّ وجْهَة

(٨٤) وكلَّفَهُ بِالشَّرْعِ مِن بَعْدِ هَذِه   لِئَلَّا يَكُونَ حُجَّةٌ لِلْبَرِيَّة

---

(١) «حجَّة الله البالغة»: ٢/ ٥٤٨.

(٨٥) فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤمِنْ ومَنْ شاءَ فَلْيَدَعْ أَعَدَّ لِأَهْلِ الظُّلْمِ دَارَ الْعُقوبةِ[١]

(٨٦) ذَرَا اللهُ مَخْلُوقًا لِيَرْزُقَ نارَه وَقَدْ وَعَدَ الرَّزَّاقُ[٢] كُلًّا بِطُعْمَةِ

(٨٧) وَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَجْزِي مُسِيئًا وَمُحْسِنًا لَضَاعَتْ أُمُورُ الْخَلْقِ أَيَّةَ ضَيْعَةِ

(٨٨) فإنْ لَمْ يكُنْ فيكَ اخْتِيارٌ وقُدْرةٌ عَلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ رَبِّ الْخَلِيقَة

(٨٩) فمِنْ أيْنَ هذَا الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ الَّتِي تُصَرِّفُهَا نَحْوَ الْأُمُورِ الدَّنِيئَةِ[٣]

فيه إشارةٌ إلى ما قاله الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان رحمه الله: «إنَّ الاستطاعة الَّتي يعمل بها العبد المَعصية هي بعينها تصلح لعمل الطَّاعة، وهو مُعاقَبٌ في صرف الاستطاعة الَّتي أحدثها الله تعالى فيه، وأمره بأن يستعملها في الطَّاعة؛ لا في المعصية، (في صرفها إلى المعصية)» اهـ. كذا في «شرح الفقه الأكبر» للإمام أبي منصور الماتريدي رحمه الله[٤].

فهذه الاستطاعة في العبد بخلق الله تعالى وإحداثه. وصرف هذه الاستطاعة الصَّالحة للطَّاعة والمعصية إلى جانب واحد هو فِعل العبد، المُسمَّى بالقصد والاختيار الجزئي، ويُعبَّر عنه بالكسب والعزم المُصمِّم أيضًا.

وهذا الصَّرف هو مَناط المَثوبة والعقوبة، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّ هذا الصَّرف والكسب ليس بخلق الله وإحداثه؛ لأنَّه أمرٌ عدميٌّ لا وجود له في الخارج، فلا يتعلَّق به الخلق والإيجاد كما في «التَّوضيح»[٥]، وغيره.

هكذا قالوا ويقولون، ولكنَّ في القلب منه شيئًا، يَضيق بذِكره أيضًا صدري، ولا ينطلق به لسانُ فمي ولا قلمي؛ لأنَّ هذا الصَّرف ليس بعدميٍّ صِرْف، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله،

---

(١) المذلَّة. (المؤلف).

(٢) الرَّحمن. (المؤلف).

(٣) الفظيعة. (المؤلف).

(٤) «شرح الفقه الأكبر»: صـ١٧.

(٥) «شرح التلويح على التوضيح»: صـ١/ ١٨٩، وكذلك في «إشارات المرام»: صـ٢٢٥.

والحول هو الصَّرْف.

(٩٠) وهلْ أنْتَ مَسْلُوبُ اخْتِيارٍ وَفِكْرَةٍ — كَمِثْلِ جَمَادٍ أَوْ كَمِثْلِ بَهِيمَة

(٩١) بَلَى أنْتَ جَبْرِيٌّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ — وإنَّكَ قَدْرِيٌّ لِكُلِّ رَذيلَة

(٩٢) بَطِيءٌ عَنِ الْجُلَّى سَرِيعٌ إِلَى الخَنَا — نَؤُومٌ عَنِ الطَّاعاتِ يَقْظَانُ غَيَّة

الشطر الأوَّل لطرفة بن العبد صاحب «المُعلَّقة»[1].

(٩٣) وإنَّكَ لا تَسْطيعُ تَحضُرُ مَسجدًا — وَتُسْرِعُ نَحْو[2] السِّينِمَا كَالنَّعامَة

(٩٤) وفِي طاعَةِ الرَّحْمَنِ إنَّكَ عَاجِزٌ — وفِي شَهَوَاتِ النَّفْس صَاحِبُ مُكْنَة

(٩٥) ظَهِيرٌ علَى الرَّحْمَنِ خصْمٌ لِرَبِّكَا — وَمِطْوَاعُ شَيْطَانٍ وَعَبْدٌ لِشَهْوَة

(٩٦) تَظْلِمُ مَوْلاكَا وَمِنْكَ الْجِنايَة — فَتَبًّا لِشَاكٍ ظَالِمٍ ذِي الْجِنايَة

(٩٧) فيَا وَيْلَ مَنْ لِلشَّرِّ وَالْكُفْرِ فارِغٌ — وَلِلْخَيْرِ والإيمَانِ مِضْيَاعُ فُرصَة

(٩٨) ويَا ويْلَ مَنْ يَشرِي نعيمًا مُؤبَّدًا — بِما هُو لا يسْوَى جَنَاحَ بَعُوضَة

(٩٩) ويَا ويْلَ أُذْنٍ تَسْمَعُ اللَّهْوَ وَالغِنَا — وَلكِنْ عَنِ الْقُرآنِ ذِي الذِّكْر صُمَّتِ

(١٠٠) ويَا ويْلَ مَنْ يَجْنِي وَيَنْسِبُ ذَنْبَه — إلَى ربِّه الأعلَى بمَحْضِ الوقَاحَة

(١٠١) ويُسخِطُ مَوْلاهُ ويُرْضِي عدُوَّه — ويَشرِي[3] فَرادِيسَ الْجِنانِ بِجِيفَة[4]

---

(١) «معلَّقة طرفة بن عبد»: بيت رقم ٩٦:

بَطيءٍ عَنِ الجُلَّى سَريعٍ إلى الخَنى — ذَلولٍ بِأَجماعِ الرِّجالِ مُلَهَّدِ

(٢) (المؤلف):

وتركضُ نحو السينما مثل بغلةٍ — وتُسرع نحو السينما دار لعنة

(٣) أي: يبيع. (المؤلف).

(٤) أي: الدُّنيا. (المؤلف).

في البيت كفٌّ[1]، وهو حذف نون مفاعيلن حتى يصير مفاعيل، فإن وزن الشطر الأوَّل فعول مفاعيل فعولن مفاعلن.

وهو جائزٌ كما قال الشاعر:

وكــلُّ وردَ خدَّيْــــهِ ورُمَّـانَ صـدرِه   بمَـــصٍّ على مص وعضٍّ على عضِّ[2]

لكن استقبحه بعض.

ولله درُّ بعض الشُّعراء حيث أشار إلى ذلك بقوله:

كففْـتُ عـن الوِصـال طويـلَ شـوْقي   إليـــكَ وأنـــتَ للـرُّوحِ الخَليـلُ

وكفُّـــك للطَّويـــل فدتـكَ نَفســي   قبيـــحٌ ليـــس يرضَـاه الخليـلُ[3]

أقول: قد وجد الكفُّ في كلام الجاهليين كما قال تأبَّط شرًّا:

إذا حـاص عينَيـه كَـرى النَّـوم لـم يـزَلْ   لـهُ كالِـيءٌ مـن قلـبِ شـيحانَ فاتِـك

ويجعـــل عينَيـــه ربيئـــةَ قلبِـــه   .... إلخ[4].

وإذا أردت الكفَّ عن الكفِّ فقل = (ويُسخط ربَّ العرشِ يُرضِي عدُوَّه).

(١٠٢) يَفِرُّ عنِ المَوْلَى ويجفُلُ مُسرِعًا   إلَـى شَـهَواتِ النَّفْـسِ نَفْـسٍ خَبِيثَـةٍ

(١٠٣) ويَجهدُ كُلَّ الجَهْدِ فِي أمْرِ رِزقِه   ويَتـــرُكُ أسـبَابَ الْهُـدَى مَـعَ يُسْـرَة

(١) والكفُّ في العروض: حذف السَّابع من الجزء نحو حذفك النون من مفاعيلن حتَّى يصير مفاعيل، ومن فاعلاتن حتَّى يصير فاعلات، وكذلك كلُّ ما حُذف سابعه على التَّشبيه بكفَّة القميص الَّتي تكون في طرف ذيله. والمكفوف في علل العروض مفاعيل كان أصله مفاعيلن.

(٢) «العقد الفريد»: ٦/ ٢٩٠.

(٣) «الإحاطة في أخبار غرناطة»: ١/ ١٠٠.

(٤) «ديوان الحماسة»: صـ١٩. وتكملة البيت: ويجعل عينيه ربيئة قلبه إلى سلة من حدِّ أخلق صائك.

(١٠٤) علَى أنَّ ربَّ العرْشِ بالرِّزْق كَافلٌ ... ولَـمْ يتكفَّـلْ للْعِبـادِ بِجنَّـة

هذا المعنى مأخوذٌ من كلام إسماعيل المقري الزبيدي، حيث يقول:

تقُـول مـع العِصيـان رَبِّـي غَافـر ... صَدقـتَ ولكـنْ غافـرٌ بالمَشِيئة

وربُّـك رازقٌ كمـا هـو غافـرٌ ... فلـم تصـدقْ فيهمـا بالسَّوِيَّة

فكيـف تُرَجِّـي العَفـو مـن غيـر توبـةٍ ... ولسـتَ بِراجـي الرِّزق إلَّا بحِيلـة

علـى أنَّـه بالـرِّزق كفَّـلَ نفْسَـه ... ولـم يتكفَّـلْ لِلأنـامِ بجَنَّـة

فلـم تـرضَ إلَّا السَّـعي فيمـا كُفِيتَـه ... وإهمـال مـا كُلِّفتَـه مـن وظيفَـة[1]

فنظير الأمر بالعمل مع تقدير السَّعادة والشَّقاء؛ الرِّزق المقسوم، مع الأمر بالكسب، والأجل المحتوم للعمر مع الأمر بالمعالجة الطِّبِّيَّة في الأمراض البَدَنيَّة، فكما لا يجوز ترك الظَّاهر بسبب الباطن في الرِّزق والمعالجة، كذلك لا يجوز ترك الأعمال الظَّاهرة بسبب القضاء الباطن.

(١٠٥) وقوْلُـكَ يَـا جَبْـرِيُّ إنِّـي أُسَـافِرُ ... غـدًا نَحْـوَ قُطْـرِ الشَّـامِ أَوْ نَحْـو كُوفَـة

(١٠٦) دليلٌ عَلَى إِبْطَال جبْرِكَ وَاضِح ... ففكِّـرْ بِـه إنْ كنْـتَ مِـنْ أهْـل فِكْـرَة

لأنَّ هذا القول دليلُ الاختيار.

(١٠٧) وهلْ مُمْكِنٌ عَقْلًا لِمَنْ هُو عاجِزٌ ... إرادةُ مَـا لا يَسْـتَطِيعُ بِمَـرَّة

(١٠٨) تـرَدَّدُ فِـي إتْيَـانِ شَـيْء[2] وَتَرْكِـه ... فذلِـكَ أَيْضًـا مِـنْ دَلَائِـلِ قُـدْرة

بحذف إحدى التَّاءين، أي: تتردَّد.

---

(١) «مجموعة القصائد الزهديَّات»: ١/ ٥١، مطلعه:

«إلـى كـم تمـادى في غـرورٍ وغفلـة ... وكـم هـكـذا نـوم إلـى غيـر يقـظـة»

(٢) فعل. (المؤلف).

(١٠٩) وتَفْعَـل[١] أَفْعَـالاً وَتَنْـدَمُ بَعْدَهـا فـإنْ كنْـتَ مَجبُـورًا فمَـا بَـالُ خجْلَـة

المعنى: أنَّك أيُّها الجبريُّ تفعل أفعالًا، ثمَّ تندم عليها حين ينكشف عليك قبحُها، فلو لم يكن فيك اختيارٌ فلِمَ هذه الخجالة والنَّدامة، فيا أيُّها الجبريُّ لا تهتدي أنت لاختيارك وقُدرتك إلَّا عند ندامتك وخجالتك.

(١١٠) فلوْلا اخْتِيَارُ الفِعْل لم يُلْفَ نَادِمٌ وَلَـمْ يخْجَـلْ جَـانٍ كَصَاحِـبِ رَعْشَـة

(١١١) ولـوْلا اخْتِيـارٌ فِي الْعِبَـادِ وَقُـدْرةٌ لَمَـا كانَ[٢] فِـي الدُّنيَـا عِتـابُ الأَحِبَّـة

(١١٢) ولا وُجِدَتْ فِيهَا نَصِيحَةُ نَاصِحِ ولا ضَـرْبُ أُسْـتاذٍ لتَأْديـبِ غِلْمَـة

المعنى: أيُّها الجبريُّ، إن لم يكن للعباد اختيارٌ وقُدرةٌ، فلأيِّ شيء يُعاتب الأحبَّة بعضُهم بعضًا؟ وينصح أحدٌ أحدًا؟ ولِمَ يزجر الأساتذةُ التَّلامِذة على أفعالهم السَّيِّئة؟

(١١٣) إذَامَاعصَوْتَ[٣] الكلْبَ فالكلبُ يَهجمُ عَلَيْـكَ وَلا يَنْحُـو لِنَحْـو الْعُصَيَّـة

(١١٤) فقـدْ عـرَف الحَيْـوانُ أنَّـكَ قـادِرٌ وَأنَّ عَصَـاكَ مَحْـضُ آلَـةِ ضَرْبَـة

(١١٥) فذَا الكَلْبُ أدْرَى مِنْكَ يَا ضَارِبًا لَهُ بِمَسْـألَةِ التَّكْلِيـف حَـقَّ الدِّرايَـةِ

أي: إذا ضربتَ الكلب بالعصا فالكلبُ يحمل عليك لا على عصاك، لِمَا أنَّه قد شمَّ منك رائحة الاختيار؛ فغضب عليك، وعاد صائلًا عليك بقصد الانتقام، ولم يرَ عصاك لائقًا له؛ فالعقل الحيوانيُّ علِم الاختيار، وميَّز العاجز من المُختار فيها، أيُّها الجبريُّ، استحِ واترك الإنكار، وتُب عن ادِّعاء الجبر والاضطرار.

(١١٦) إذَا مـا أتَتْك مَرْضَـةٌ تَنْهَـكُ الْقُوَى أنَبْـتَ إلَـى المَوْلَـى إنابـةَ مُخْبِـتِ

---

(١) وتَعمل أعمالاً. (المؤلف).

(٢) صحَّ. (المؤلف).

(٣) ضربت. (المؤلف).

(١١٧) وتَستغفِرُ اللهَ العَظِيمَ لِمَا مَضَى ... بِغايَةِ إخْلاصٍ وَصِدْقِ طَوِيَّة

(١١٨) وتعرِفُ قُبحَ الذَّنْبِ حقَّ التَّعرُّفِ ... وتُقْلِعُ عَمَّا فيهِ مِنْ غيْرِ مُهْلَة

(١١٩) فإنْ كُنْتَ مَقهُورًا[1] فمَا بالُ توبةٍ ... وَعَزْمٍ عَلَى تَرْكِ الْفِعَالِ الذَّمِيمَة[2]

(١٢٠) فعندَ حُلولِ السُّقْمِ يَنكَشِفُ الغَطَا ... وَيَسْتَيقظُ الإنْسَانُ مِن بعْدِ رَقْدَة

(١٢١) ويَصْحُو بِهِ السَّكرَانُ مِن خَمْرَةِ الهَوَى ... ويَنزاحُ عَنْه كُلُّ وَهْمٍ وشُبْهَة

(١٢٢) فقدْ أوضَح البُرْهانُ أنَّكَ قادِرٌ ... ولسْتَ بِمَسْلُوبِ اخْتِيَارِ كَمَيِّتِ

❁ ❁ ❁

---

(١) مغلوبًا. (المؤلف).

(٢) الذَّميمة. (المؤلف).

بيان تعلُّق العلم الأزليّ القديم بأفعال العبد وأعماله لا يُبطل قُدرته واختياره

(١٢٣) ولا جَبْرَ فِي العِلْمِ الإِلَهِيِّ بَتَّةً وهَـذَا لِأَنَّ الْعِلْـمَ مَحْـضُ الْحِكَايَـة

(١٢٤) ولوْ سَلَبَ الْعِلمُ القَدِيمُ اخْتِيَارَنا لَأَوْجَـبَ سَـلْبَ الْقُـدْرَةِ الأَزَلِيَّـة

أي: لو كان تعلُّق القضاء وعلمُه القديم بأفعالنا سالبًا لقُدرتنا، ومُبطلًا لاختيارنا لَلزم أن يكون مُبطلًا لاختياره تعالى أيضًا، فإنَّه تعالى كما هو عالِم بأفعالنا هو عالِم أيضًا بأفعاله، وما خلقَه وما سيخلقُه في المستقبل.

فدلَّ ذلك أنَّ تعلُّق العلم الأزليّ بشيء لا يُوجب كونه غير مُختارٍ على أنَّ العلم الأزلّي قد تعلَّق بأفعالنا على حسب ما يقع من اختياراتنا دون الجبر علينا، فكيف يستلزم الجبر؟

(١٢٥) فـإنَّ إلَـهَ الْكَـوْنِ يعْلَـمُ فِعْلَـه كمَـا يَعْلَـمُ الأَشْـيَاءَ مِـنْ قَبْـلِ نَشْـأَةِ

أي: أنَّه ﷻ يعلم أفعاله كما يعلم سائر الأشياء قبل وقوعها وظهورها على منصَّة الوجود.

(١٢٦) ولَـمْ يـكُ هَـذَا مُبْطِـلًا لِاخْتِيَـارِه فَقِسْـهُ عَلَـى هَـذا وَلا تَتَعَنَّـتِ

أي: لم يكن علم الله تعالى بأفعاله مُبطِلًا لاختياره القديم، وقُدرته الأزليَّة، ومَشيئته القديمة؛ فقِسْ على هذا علمه تعالى بأفعالنا، فإنَّه أيضًا لا يكون مُبطِلًا لاقتدارنا المُعار من حضرة قُدرته الأزليَّة، وسالبًا لاختيارنا المُفاض من جناب مَشيئته السَّرمديَّة.

قال أبو شكور السَّالمي في «التَّمهيد»: «سألني مجوسيٌّ بمرو، فقال: بأنَّ الكافر إذا مات كافرًا فالله تعالى هل يعلم أنَّه يموت كافرًا؟ قلت: نعم.

قال: إذا كان يعلم أنَّه يموت كافرًا، فهل يَقدر هذا الكافر على أن يُؤمن في هذه الحالة أم لا؟ فإن قلتَ: أنَّه يقدر؛ يكون علم الله تعالى خطأ، وهذا لا يجوز، وإن قلتَ: أنَّه لا يقدر، يكون جبرًا.

فقلت: إنَّ الله تعالى يعلم أنَّه يموت كافرًا، وعِلم الله تعالى لا يُوجب سلب القُدرة عنه، فالقُدرة موجودة، صالحة للإيمان، كما أنَّها صالحة للكفر، ولكن مع وجود القُدرة لا يُؤمن، وإنَّ الله ﷻ يعلم الأشياء كما هي وبمثل ما يكون، فإن سأل أحدٌ أنَّ الله تعالى يعلم لنفسه مثلًا، فإن كنت تقول: إنَّه لا يعلم، فقد وصفتَ الله تعالى بالجهل، ولو كنت تقول: بأنَّه يعلم، فقد وصفتَ الله تعالى بالمثل، فمِن حقِّك أن تقول: بأن الله تعالى يعلم أنَّه ليس له مِثل ولا شكل ولا ضِدٌّ ولا نِدٌّ» انتهى[1].

(١٢٧) وإنْ صحَّ مِنكَ العُذرُ في تَرْكِ طاعَة بتَقْدِيرِ رَبِّ الْكَوْنِ عدْل الحُكُومَة

(١٢٨) فلِمَ لا تَراهُ مِنْ رَقِيقِكَ حُجَّةً إذَا مَا بدَا مِنْهُ قُصورٌ بِخِدْمَة

(١٢٩) وتَعْذُرُهُ فِي عُذْرِهِ قَدْ جَرَى الْقَضا وتَرْفَعُ عَنْه كُلَّ يَوْمٍ وَعتْبَةِ

(١٣٠) ولكنَّه يَزدادُ جُرْمًا إذَا أتَى بعُذْرِ الْقَضَا عِنْدَ الْعُقُولِ السَّلِيمَة

(١٣١) كذَلِكَ قَالَ الْمُشرِكُونَ فَأُهْلِكُوا وَذَلِكَ عُذْرُ الأُمَّةِ الْوَثَنِيَّةِ[2]

كما حكى الله ﷻ عنهم، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال في سورة النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا

(١) «التمهيد»: صـ١٢٨.

(٢) الجاهلية. (المؤلف).

عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

وهذا هو صريح قول المُجبرة، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩]، لأنّه أزال الأعذار بالتَّمكين والأقدار، فلم يبقَ لكم على الله حُجَّةٌ، وإنَّما الحُجَّة البالغة له عليكم. وذلك أنّكم تقولون: لو أتينا بعملٍ على خِلاف مَشيئة الله لزم أن يكون الإلهُ عاجزًا مغلوبًا.

وهذا الكلام غيرُ لازمٍ؛ لأنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يَحملكم على الإيمان والطَّاعة على سبيل القهر والإلجاء، إلَّا أنَّ ذلك يُبطل الحِكمة المطلوبة من التَّكليف، وهو المراد من قوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وبوجهٍ آخر: إن كان الأمر كما زعمتم أنَّ ما أنتم عليه بمَشيئة، فلله الحُجَّة الكاملة عليكم؛ فإنَّ تعليقكم دِينكم بمَشيئة الله يقتضي أن تُعلِّقوا دِين مَن يُخالفكم أيضًا بمَشيئة؛ فتُوالوا جميعَ الأديان ولا تُعادوهم.

فيلزمكم أن لا يكون بينكم وبين المسلمين أيضًا مُخالفةٌ ومُعاداةٌ، بل مُوافقةٌ ومُوالاةٌ.

وبالجملة: لو صحَّ الاحتجاج بمَشيئةٍ؛ لزم تصحيح الأديان المُتناقضة، وتسويغ كلِّ مُنكَرٍ وفاحشةٍ. وإن احتجَّ السَّارق بأنَّ الله تعالى قدَّر سرقته، فالجواب: أنَّ الله تعالى قدَّر قطعَ يده أيضًا، فإن كانت سرقتُه بقضاء الله وقدره؛ فقطعُ يده أيضًا بقضاء الله وقدره.

وكذلك الكافر إن كان كفرُه بقضاء الله وقدره؛ فعذابُه بالنَّار أيضًا بقضاء الله وقدره.

(١٣٢) أَلَسْتَ تَرَى مَنْ يأكُلُ السُّمَّ يهْلَكُ — كَخَائِضِ نِيرَانٍ يَمُوتُ بِحرْقَةِ

(١٣٣) كذَلِكَ مَنْ لا يَأْكُلُ الرِّزْقَ يَهْلَكُ — وَكُلٌّ بِتَقْدِيرٍ لِبَارِي الْبَرِيَّةِ

(١٣٤) فكُفْرُكَ سُمٌّ مَعْنَوِيٌّ لِرُوحِكَا — وتِرْيَاقُ الإِيمَانِ قَوْلُ الشَّهَادة

(١٣٥) وأنتَ لِمَنْ يَسْتَأْكِلُ السُّمَّ قائِلًا أَمُوتُ بِسُمٍّ إِذْ قَضَى لِي بِهَلْكَتِي

(١٣٦) ومَا الكُفْرُ إلَّا شَوْكَةٌ قَدْ غَرَسْتَهَا وهلْ شَوْكَةُ السَّعْدَانِ تَأْتِي بِوَرْدَةِ

(١٣٧) تقحَّمْتَ قَعْرَ النَّارِ حِينَ كَفَرْتَهُ كَآكِلِ أَمْوَالِ اليَتَامَى بِحِيلَةِ

أي: مَن كفر بالله ﷻ دخل النَّار حالًا وفورًا، ولكنَّها لا تُدرك بحاسَّة البصر في دار الابتلاء والتَّكليف، وإنَّما ينكشف الأمر يوم يُكشف الغطاء، ويُرفع الحجاب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

فهم في الدُّنيا يأكلون في بطونهم نارًا وعليها يُبعثون ويُحشرون.

كما أخرج ابن أبي شيبة والطبراني وغيره، عن أبي برزة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُبعث يوم القيامة قومٌ من قبورهم تأجَّج أفواههم نارًا، فقيل: يا رسول الله، مَنْ هم؟ قال: ألم ترَ أنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾؟»[1].

فيوم القيامة تجد كلُّ نفسٍ ما عملتْ من خيرٍ أو سوءٍ مُحضَرًا بعينه، مُشاهدًا ببصره وعينه، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وفي «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكر يومًا الغلول، فعظَّم أمره، ثمَّ قال: «لا أُلفِينَّ أحدَكم يَجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاءٌ»[2].

---

(١) في الجزء المفقود من «المعجم الكبير»، ونقله عنه نور الدين الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١٠٩٦٠، وأبو يعلى في «المسند»: ٧٤٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الغلول: ٣٠٧٣، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: غلظ تحريم الغلول: ١٨٣١.

ونظيره في مانع الزَّكاة: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، نزلت في الزَّكاة.

كما أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آتاه الله مالًا، فلم يُؤدِّ زكاته، مُثِّل له شُجاعٌ أقرع له زبيبتان، يُطوَّقه يوم القيامة، فيأخذ بِلِهزِمتَيه ـ يعني: شِدْقَيْه ـ فيقول: أنا مالُك، أنا كنزُك، ثم تلا هذه الآية»(١).

وقيل نزلت في اليهود الَّذين كتموا صفة النَّبيِّ ﷺ الَّتي نَطقت بها التَّوراة، فهم يُطوَّقون طوقًا من النَّار جزاءً على هذا الكتمان.

فالآية حينئذ نظير قوله ﷺ: «مَن سُئِل عن علمٍ فكتمه، أُلجِم بلِجامٍ من نار»(٢).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله ملكًا يُنادي عند كلِّ صلاة: يا بَني آدم، قوموا إلى نِيرانكم الَّتي أوقدتُموها فأطفِئوها». رواه الطَّبراني في «الأوسط»، وقال: «تفرَّد به يحيى بن زهير القرشي»(٣). قال المنذري: «رجالُه كلُّهم مُحتَجٌّ بهم في «الصَّحيح»»(٤).

وعن ابن مسعود ﷺ نحوه، رواه الطَّبراني في «الكبير»(٥).

وفي حديث معاذ بن جبل ﷺ عند أحمد والترمذي وابن ماجه: «الصَّدقة تُطفئ الخطيئة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزَّكاة، باب: إثم مانع الزَّكاة: ١٤٠٣.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: كراهية منع العلم: ٣٦٥٨، والترمذي في أبواب: العلم، باب: ما جاء في كتمان العلم: ٢٦٤٩، وابن ماجه في أبواب: السُّنَّة، باب: مَنْ سُئِل عن علم فكتمه: ٢٦٤.

(٣) «المعجم الأوسط»: ٩٤٥٢، و«المعجم الصغير»: ١١٣٥.

(٤) «الترغيب والترهيب»: ٥٢٨.

(٥) «المعجم الكبير»: ١٠٢٥٢.

كما يُطفئ الماءُ النَّار»[١].

ففي هذه الأحاديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ جعل المعصية والخطيئة نفس النَّار وعينها، كما جعل في حديث آخر التَّسبيح والتَّهليل غِراسَ الجنَّة[٢].

وفي حديث الفتن: «دُعاة على أبواب جهنَّم، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها»[٣].

فأشار النَّبيُّ ﷺ إلى أنَّ الدُّعاة إلى غير الحقِّ حين دِعايتهم واقفون على شفير جهنَّم، مَنْ أجابهم إليها وقع فيها حالًا.

وهاكَ حديثًا مِن أحاديثِ مُسلِم صريحٌ[٤] بهذا المعنى اللَّطيف فسَلِّم

وهو ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ: «مثَلِي كمَثَل رجُل استَوقد نارًا، فلمَّا أضاءت ما حولها جعل الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ الَّتي تقع في النَّار يقَعْن فيها، وجعل يَحجزهن ويَغلِبْنَه فيَقتَحمْن فيها، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم عن النَّار، وأنتم تقَحَّمون فيها». هذه رواية البخاري[٥].

ولمسلم نحوها، وقال في آخرها: «قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخِذٌ بحُجَزِكم عن

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة: ٢٦١٦، وابن ماجه في أبواب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة: ٣٩٧٣، وأحمد في «المسند»: ٢٢١٣٣.

(٢) كما في حديث ابن مسعود ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: لقيتُ إبراهيم ليلة أُسرِي بي فقال: يا محمد، أقرئ أمَّتك منِّي السَّلام، وأخبرهم أنَّ الجنَّة طيِّبة التُّربة عذبة الماء، وأنَّها قيعان، وأنَّ غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر» أخرجه الترمذي في أبواب: الدعوات: ٣٤٦٢. وكذلك في حديث أبي هريرة ﷺ: «قال ﷺ: يا أبا هريرة، ما الذي تغرس؟ قلتُ: غِراسًا. قال: ألا أدلُّك على غراسٍ خيرٍ من هذا؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: قلْ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، يُغرس لك بكلِّ واحدة شجرةٌ في الجنَّة». أخرجه ابن ماجه في أبواب: الأدب، باب: فضل التَّسبيح: ٣٨٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النُّبوَّة في الإسلام: ٣٦٠٦، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدُّعاة إلى الكفر: ١٨٤٧.

(٤) صريحًا. (المؤلف).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي: ٦٤٨٣.

النَّار، هلُمَّ عن النَّار، هلُمَّ عن النَّار، فتغلِبُوني تقحَّمون فيها»(١).

فجعل النَّبيُّ ﷺ الإباء عن اتِّباعه ﷺ عينَ الاقتحام في النَّار. فقولي: تقحَّمتَ (بتاء الخطاب) قعرَ النَّار حين كفرتَه (أيضًا بتاء الخطاب) إشارة إلى هذا الحديث.

(١٣٨) وكُفْرُكَ عَيْنُ النَّارِ مَا هُوَ غَيْرُهَا ولَكِــنْ يَـزُولُ السِّـتْرُ يـوْمَ الْقِيامَـة

إشارة إلى ما قاله الشَّيخ محي الدِّين: «ولقد سألت الله تعالى أن يُطلعني على جهنَّم وأهلها، فأطلعني على ذلك، فعرفتُها.

ولمَّا أطلعني اللهُ عليها رأيتُ مِن درَكات النَّار من حيث كونها دارًا ما شاء الله أن يُطلعني، ورأيتُ فيها مَوضعًا يُسمَّى المَظلمة، نزلتُ فيه ما شاء الله أن أنزل، فعلمتُ من ذلك الوقت أنَّ كلَّ عمل يتطوَّر نارًا أو نعيمًا، وعلمتُ أنَّ عذاب أهل جهنَّم ما هو من جهنَّم حقيقة، وإنَّما هو من أعمال الدَّاخلين، وأنشدتُ في ذلك:

النَّـــار منـــك وبالأعمـال تُوقدُهـا كمـــا تأجِّجهـــا في الحـال تُطفيهـا

فأنـــت بالطَّبــع منهـا هـاربٌ أبـدًا وأنـــت في كلِّ حـالٍ منـك تُنشيها»

وقال الشَّيخ محي الدِّين ﷺ: «ومن أعجب ما روينا عن رسول الله ﷺ **أنَّه** كان قاعدًا يومًا في المسجد مع أصحابه، فسمعوا هدَّة عظيمة، فارتاعوا، فقال رسول الله ﷺ: **«أتعرفون ما هذه الهدَّة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **حجرٌ أُلقِي من أعلى جهنَّم منذُ سبعين سنة، الآن وصل إلى قعرها، فكان وصولُه إلى قعرها وسقوطُه فيها هذه الهدَّة»**، فما فرغ ﷺ من كلامه إلَّا والصُّراخ في دار مُنافق من المنافقين قد مات، وكان عمرُه سبعين سنة، فقال رسول الله ﷺ: **«الله أكبر»**.

فعلم كُبراء الصَّحابة أنَّ ذلك الحجر هو ذلك المُنافق، وأنَّه من حين وُلد يهوي في نار

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمَّته ومبالغته في تحذيرهم ممَّا يضرُّهم: ٢٢٨٤.

جهنَّم بأعماله في عِلم الله، وإن لم يكن مُكلَّفًا إلَّا بعد البلوغ، فلمَّا بلغ عمرُه سبعين سنةً مات، فوصل في قعرها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، فكان سماعُهم لتلك الهدَّة الَّتي أسمعَهم اللهُ إيَّاها إنَّما ليعتبروا، فانظر ما أعجب كلام النُّبوَّة، وما ألطف تعريفه، وما أحسن إشارته، وما أعذب كلامه ﷺ».

كذلك في المبحث الحادي والسَّبعين من كتاب «اليواقيت والجواهر» للإمام الشعراني[1].

(١٣٩) فَمَنْ شَاءَ فَلْيُسْعِرْ سَعِيرًا لِنَفْسِهِ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَغْرِسْ بِقِيعَانِ جَنَّةِ

إشارة إلى ما رُوي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيتُ إبراهيم ليلة أُسرِي بي، فقال: يا محمَّد، أقرئ أمَّتَك منِّي السَّلام، وأخبرْهم أنَّ الجنَّة طيِّبة التُّربة، عذبة الماء، وأنَّها قيعان، وأنَّ غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر». رواه الترمذي وغيره[2].

❁ ❁ ❁

(١) «اليواقيت والجواهر»: صـ٤٦٣.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل التَّسبيح والتَّكبير والتَّهليل والتَّحميد: ٣٤٦٢.

بيان الفَرْق بين القضاء والمقضي

(١٤٠) وكفرُكَ مَقْضِيٌّ وَمَا هُوَ بِالقَضَا وهلْ قَطُّ مَصْنُوعٌ أَتَى عَيْنَ صَنْعَة

معناه: أنَّ الواجب هو الرِّضاء بفِعل الباري تعالى، وهو القضاء بالكفر، والكفر ليس عين القضاء، بل هو صادر عنه، فهو مقضيٌّ، ولا يلزمه الرِّضا به.

كما أنَّا نرضى ونستحسن فِعل قضاء الحاجة بالتغوُّط والتبرُّز والبول، فهو مَرْضيٌّ ومُستحسَنٌ لنا، وما خرج من ذلك لا نَستحسِنه، بل نستقبِحه.

وحاصله أنَّه يجب الرِّضاء بالقضاء دون المَقضيِّ، وهُما مُتغايران، كما أنَّ الصَّنْعة والمَصنوع مُتغايران، والرِّضا بأحدِهما لا يستلزم الرِّضا بالآخر.

(١٤١) فلا ترْضَ ذَاتَ الْفِعْلِ وارْضَ بِخَلْقِه وبَيْنَهُمَا فَرْقٌ[1] لَدَى أهْلِ فِطْنَة

(١٤٢) كذَلكَ الرِّضَا غيرُ القَضَاءِ بِلَا مِرَا فَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِكُفْرٍ وَلَعْنَة

لأنَّ الرِّضا والمَحبَّة إنَّما يتعلَّق بالحُسن دون القبيح، وأمَّا القضاء فهو يتعلَّق بالحُسن والقبيح، والخير والشَّرِّ.

(١٤٣) وحاشَا إِلَهَ الْخَلْقِ جَلَّ جَلَالُه يُحِبُّ وَيَرْضَى لِلْعِبَادِ بِشِقْوَة

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [الزمر: ٧].

---

(١) بون. (المؤلف).

(١٤٤) وحاشَا مَلِيكَ الْعَرْشِ يُغْلِقُ بَابَهُ   وَكَيْــفَ وَقَـدْ عَـمَّ الأَنَـامَ بِدَعْـوَة

(١٤٥) فسَلِّمْ وَأَسْلِمْ وَاتَّبِعْ خَيْرَ مِلَّة   فَرَبُّــكَ يَدْعُــوكَا لِـكُلِّ سَـعَادَة[1]

❁ ❁ ❁

(١) بها فُتحت أبوابُ كلِّ سعادة. (المؤلف).

رسالة الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه
إلى الحسن البصري في مسألة القضاء والقدر

(١٤٦) وَلَوْ أَجْبَرَ اللهُ الْعِبَادَ عَلَى الهُدَى   لَأَسْقَطَ عَنْهُمْ أَجْرَ أَعْمَالِ طَاعَةِ

إلى آخر الأبيات الثَّمانية، إشارةٌ إلى ما رُوي أنَّه كتب الحسن البصريُّ إلى الحسن بن عليٍّ يسأله عن القضاء والقدر، فكتب إليه الحسن بن عليٍّ: «مَن لم يُؤمن بقضاء الله وقدره، خيرِه وشرِّه، فقد كفر.

ومَن حمل ذنبَه على ربِّه، فقد فجر، وأنَّ الله تعالى لا يُطاع استكراهًا، ولا يُعصى بغلبة؛ لأنَّه تعالى مالكٌ لِمَا ملَّكهم، قادرٌ على ما أقدرهم، فإن عملوا بالطَّاعة لم يحلْ بينهم وبين ما عملوا، وإن عملوا المعصية، فلو شاء لحال بينهم وبين ما عملوا، فإن لم يفعل، فليس هو الَّذي جبرهم على ذلك، ولو جبر اللهُ الخلقَ على الطَّاعة لأسقط عنهم الثَّواب، ولو أجبرهم على المعصية لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم كان ذلك عجزًا في القُدرة، ولكن له فيهم خفيُّ المَشيئة، غيَّبها عنهم، فإن عملوا بالطَّاعة فله المِنَّة عليهم، وإن عملوا بالمعصية فله الحُجَّة عليهم، والسَّلام.

فهذه رسالة يظهر عليها أنوارُ مِشكاة النُّبوَّة والرِّسالة. كذا في «المرقاة»[1].

ورُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال: «أمر الله تعالى بالخير تخييرًا، ونهى عن الشَّرِّ تحذيرًا، ولم يُعصَ مغلوبًا، ولم يُطعْ مُكرَهًا، ولم يُملِّك تفويضًا (أي: لم يَملك الأفعال لعباده)، فهو أمرٌ بين أمرين، لا جبرٌ ولا تفويضٌ، والاستطاعة تملُّك بالله الَّذي إن شاء ملَّك. رواه الأصبهاني

---

(١) «مرقاة المفاتيح»: ١/ ١١٩.

وابن عساكر»، كذا في «إشارات المرام»[1].

(١٤٧) ولوْ أكرَهَ اللهُ البَرَايا علَى الْعَمَى لأَعْذَرَهُــم فِــي كلِّ ذنْـبٍ وَجرْمَـة
(١٤٨) وأسقَط عنْهُم في غدٍ يومَ حشْرِهِمْ عِقـابَ المَعاصِـي وَالذُّنـوبِ العَظِيمَـة
(١٤٩) ولوْ تركَ اللهُ الْوَرَى هُمَّلًا سُدَى لأَدَّى إِلَــى عجْــزٍ وتَعْطِيـلِ حِكمَـة
(١٥٠) ومَـا خَلَـقَ اللهُ الْخَلائِـقَ بَاطِـلًا تَعَالَــى الْمَلِيـكُ الحـقُّ عَـنْ عَبَثِيَّـة
(١٥١) ولكـنْ لَـهُ فِيهِـمْ خَفِـيُّ الْمَشِيئَة خَبَاهَــا لِأَسْـرَارٍ عَـنِ الْفَهْـمِ جَلَّـتِ
(١٥٢) فـإنْ هُـم أَطاعُـوهُ فَلِلَّـهِ مِنَّـةٌ عَلَيْهِــمْ بَلَــى وَاللهِ أَعْظَــمُ مِنَّـةِ
(١٥٣) وإنْ لَـمْ يُطِيعُـوهُ فَلِلَّـهِ حُجَّـةٌ عَلَيْهِــمْ بَلَــى وَاللهِ أَبْلَـغُ حُجَّـةِ

قال الشَّيخ الأكبر في الباب الثَّامن والسَّبعين ومائة، في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]: «اعلم أنَّ في هذه الآية دليلًا على أنَّه تعالى ما كلَّف عبادَه إلَّا ما يُطيقونه عادةً، فلم يُكلِّفهم بنحو الصُّعود إلى السَّماء بلا سبب، ولا بشهود الجَمع بين الضِّدَّيْن، ولو أنَّه تعالى كلَّفهم بذلك ما كان يقول: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾. وإنَّما كان يقول: فله أن يفعل ما يُريد، كما قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾.

قلت: وقد بلغنا أنَّ إبليس قال: يا رب، كيف تُقدِّر عليَّ عدمَ السُّجود لآدم ثُمَّ تُؤاخِذُني به، فقال ﷻ: متى علمت أنِّي قدَّرتُ عليْكَ الإباية عن السُّجود بعد وقوع الإباية عنك أو قبلها؟ فقال: بعدها، فقال له الحقُّ: وبذلك آخذتُك». كذا في المبحث الخامس والعشرين من كتاب «اليواقيت والجواهر»[2].

---

(١) «إشارات المرام»: صـ٥٥، وقال المحقِّق: لم أقف عليه، ولكنَّه في «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٤٢/ ٥١٢.

(٢) «اليواقيت والجواهر»: صـ٢٠٣.

ورُوي عن عليّ ﷺ أنّه قال للشّيخ الّذي سأله بعد الانصراف من صفين قائلًا: إنّ المسير إلى الشّام كان بقضاء الله وقدره: والّذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة، ما وطِئنا مَوطئًا ولا هبطنا واديًا ولا علونا تلعة إلّا بقضاء وقدر.

فقال الشّيخ: عند الله أحتسبُ خُطاي، ما أرى لي من الأجر شيئًا، فقال له: أيُّها الشّيخ، عظّم الله أجرَكم في مَسيركم وأنتم سائرون، وفي مُنصرفكم وأنتم مُنصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مُكرهين، ولا إليها مُضطرين.

فقال الشّيخ: كيف والقضاء والقدر ساقَنا؟ فقال: ويحَك، لعلّك ظننتَ قضاءً لازمًا وقدرًا حتمًا، لو كان كذلك لبطل الثّواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنّهي، فلم تكن لائمة للذّنب، ولا محمَدة للحسن، ولمَا كان المُحسن أولى بثواب الإحسان من المُسيء، ولا المُسيء أولى بعقوبة الذّنب من المُحسن، تلك مقالة عبَدَة الأوثان، وحزب الشّيطان، وشهود الزُّور، وأهل العَمى عن الصّواب، وهم قدريّة هذه الأمّة ومجوسها.

إنّ الله تعالى أمَر تخييرًا، ونهى تحذيرًا، وكلّف يسيرًا، ولم يُكلّف عسيرًا، لم يُعصَ مغلوبًا، ولم يُطَع مُستكرهًا، ولم يُرسِل الرُّسل إلى خلقه لعبًا، ولم يُنزل الكتب عبثًا، ولم يَخلق السّماوات والأرض وما بينهما باطلًا، ذلك ظنُّ الّذين كفروا، فويل للّذين كفروا من النّار. فقال الشّيخ: وما القضاء والقدر اللّذان ما سِرْنا إلّا بهما؟ قال: هو الأمر من الله تعالى والحكم بذلك، ثم تلا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فقام الشّيخ الشّامي مسرورًا لِما سمع من المَقال، فقال: فرّجْت عنّي يا أمير المؤمنين، فرّج الله عنك، ثم أنشأ يقول:

أنت الإمامُ الّذي نَرجو بطاعتِه ... يومَ الحسابِ مِن الرّحمن غُفرانا
أوضحتَ من دِينِنا ما كان مُلتَبِسًا ... جزاك ربّيَ بالإحسانِ إحسانًا

كما في «الإتحاف شرح الإحياء»[١].

ورُوي أنَّ رجلًا دخل على عليِّ بن أبي طالب ﵁، وقال: أخبرني عن القدر، فقال له: طريقٌ مُظلم لا تسلكه، فسكت ساعةً ثُمَّ قال: أخبرني عن القدر.

فبدأ عليٌّ بالسُّؤال قال: أخبرني مَشيئتك مع مشيئة الله تعالى [أو دون مشيئة الله؟][٢] فقال لعليٍّ: قل أنت. فقال له: إن قلتَ: مَشيئتي مع مشيئة الله تعالى، فقد ادَّعيتَ المشاركة مع الله تعالى، وإن قلتَ: إنَّ مَشيئتي فوق مَشيئة الله تعالى، فقد ادَّعيتَ الألوهية، فقل: إنَّ مَشيئتك تحت مَشيئة الله تعالى.

فقال الرجل: تبتُ إلى الله تعالى، وقام. فقال عليٌّ لأصحابه: قوموا فصافحوا؛ فإنَّه الآن أسلم.

ففي هذا دليلٌ على أنَّ مَن أنكر القدر يَصير كافرًا، ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «القدريَّة مجوسُ هذه الأمَّة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تُشيِّعوا جنائزهم، أولئك شيعة الدَّجَّال»[٣].

وحقَّ على الله أن يُلحقهم بالدَّجَّال؛ لأنَّهم أنكروا النَّصَّ، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

ورُوي أنَّ غيلان القدري قدِم من البصرة إلى الكوفة، فجمع الفقهاء وناظرهم فغلبَهم.

وكان أبو حنيفة ﵀ شابًّا يختلف إلى حمَّاد، فقال حمَّاد لأبي حنيفة: اذهب يا فتى إلى هذا الرَّجل وناظِرْه، فجاء أبو حنيفة ﵀ إلى باب السُّلطان، فدخل عليه وناظَرَه فغلبه.

فقال غيلان لأبي حنيفة: أخبرني ما شاء إبليس من فرعون؟ فقال: شاء منه الكفر. فقال: ما شاء موسى ﵇ من فرعون؟ فقال: شاء من الإيمان. فقال: ما شاء الله تعالى من

---

(١) «الإتحاف»: ٢/ ٨٧.

(٢) إضافة من المصدر، ليكون الموضوع أوضح.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: السُّنَّة، باب: في القادر: ٤٦٩١.

فرعون؟ فقال: شاء الله تعالى منه الكفر.

فقال: كيف وافقت مَشيئة الله تعالى بمشيئة إبليس، ولم يُوافق بمَشيئة موسى ﷺ؟ فقال أبو حنيفة ﵁: شاء الله تعالى أن يشاء إبليس من فرعون الكفر، وشاء الله تعالى أن يشاء موسى ﷺ من فرعون الإيمان، وشاء الله تعالى أن يشاء فرعون من نفسه الكفر، فكلٌّ ذلك بمَشيئة الله تعالى.

وهذه المسألة راجعة إلى حرف واحد، وهو أنَّ الشَّرَّ والكفر مخلوقُ الله تعالى أو مخلوق غيره؟ فإن قال أحدٌ: بأن الله تعالى لم يخلق الشَّرَّ والكفر؛ وذلك مخلوق غير الله تعالى؛ فقد أثبت صانعًا أو خالقًا غير الله تعالى، فيكون مُشركًا بالله تعالى.

وإن قال: إنَّ الشَّرَّ والكفر مخلوق الله تعالى بدون إرادته ومَشيئته؛ فقد اعتقد بأنَّ الله تعالى مجبورٌ مُكرَهٌ في تخليقه، وهذا كفر.

فثبت أنَّ الكُلَّ بمَشيئة الله تعالى وبإرادته وقُدرته، ومَن أنكر القدر فهو كافر بالله العظيم. كذا في «التَّمهيد» لأبي الشكور السالمي[1].

(١٥٥) ألا أيُّهَا الذِّمِّيُّ عُذْرُكَ بِالْقَضَا يُبَرِّئُ كُلَّ الْمُجْرِمِينَ بِمَرَّة

(١٥٦) وقولُكَ يَا ذِمِّيُّ مَا وَجْهُ حِيلَتِي أَرَدْتَ بِهِ تَحْسِينَ كُلِّ قَبِيحَة

(١٥٧) فَرَبُّكَ لَمْ يَسْدُدْ عَلَى الْخَلْقِ بَابَهُ وَلَكِنَّهُمْ هُمْ أَعْرَضُوا عَنْ مَحَجَّةِ

(١٥٨) لقَدْ كَرِهُوا مِسْكَ الْهُدَى وَعَبِيرَهُ وَقَدْ رغبُوا فِي رِجْسِ كُفْرٍ وَرَوْثَةِ

(١٥٩) دعَاكَ إِلَى جلّى وَدَارِ كَرَامَةٍ وَلَكِنْ سَرَيْتَ فِي مَهَامِهِ خِسَّةِ

(١٦٠) وأبْصَرْتَ بِالْعَيْنَيْنِ قَصْرَ الْهِدَايَةِ ونَادَاكَ أَصْحَابُ الْهُدَى خَيْرُ رُفقَةِ

(١٦١) هلُمَّ إِلَيْنَا وَائْتِنَا وَادْخُلِ الْهُدَي فهَاتِيكَ دارُ اللهِ دارُ السَّعَادَة

---

(١) «التمهيد»: ص١٣١ ـ ١٣٣.

(١٦٢) ولكِنْ رَأيْتَ دُونَهُ لَهْوَ دُمْيَة فَمِلْتَ إِلَى لِذَّاتِ نَفْسٍ خَسِيسَة

(١٦٣) تقَحَّمْتَ قعْرَ الجَهْلِ وَالْغَيِّ وَالهَوَى وأعْرَضْتَ عن ينبُوعِ عِلْمٍ وحِكْمَة

(١٦٤) عصَيْتَ دُعاةَ الحَقِّ والخيْرِ والهُدَى وتابعْتَ حالًا مَنْ دعَاكَ لشِقْوَة

(١٦٥) ووَلَّيْتَ عَنْ دَاعِي الْمَكَارِمِ وَالعُلَى ولَبَّيْتَ صوْتَ كُلِّ شَرٍّ وفِتْنَة

(١٦٦) فهَلْ سَدَّ رَبُّ العَرْشِ دُونَك بابَهُ وهلْ أنتَ قدْ أدبَرْتَ مِنْ بعْدِ دعْوَة

(١٦٧) فإنْ كنْتَ تبْغِي الحقَّ فالجَأْ لِبَابِهِ عسَى اللهُ أنْ يُحْظِيكَ مِنْهُ بِنَفْحةِ

۞ ۞ ۞

الأبيات الخِتاميَّة الدُّعائيَّة

(١٦٨) لكَ الحمْدُ يا رَبَّ الوَرَى وَاسِعَ الْعَطَا ... عَلَى نِعْمَةِ الإسْلَامِ أفضَلِ نِعْمَة

(١٦٩) بفَضْلِكَ يَا ذَا الكِبْرِيا هَدَيْتَنِي ... بحَوْلِك حقًّا لا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي

(١٧٠) وإنِّي مُقِرٌّ بِالذُّنُوب ونادِمٌ ... علَى مَا اقْتَرَفْتُ مِنْ فِعَالٍ قَبيحَة

(١٧١) ولا عُذْرَ لِي يَا رَبِّ إنِّيَ مُذْنِبٌ ... أبُوءُ بِإِسْرَافِي[1] وَجَهْلِي وغِرَّتِي

(١٧٢) وأَطرُقُ بابَ العَفْو يَا مَالِكَ الوَرَى ... بغَايَةِ عَجْزٍ وَانْكِسَارٍ وذِلَّة

(١٧٣) لِيُحْكِمَ فِيَّ الْجُودَ وَالرَّحمَةَ الَّتِي ... تَلِيقُ بشَأنِ الْحَضْرَةِ الأرْحمِيَّة

هذا كما قال بعض الشُّعراء لرئيسه وقد عتب عليه في شيء:

ومَا قابلتُ عتبك باعتذارٍ ... ولكنِّي أقولُ كما تقول

وأَطرقُ بابَ عفوِك بانكسارٍ ... ويَحكمُ بينَنا الخلُقُ الجميلُ

فلمَّا سمع الرئيسُ مقالته قام وركب إليه مِن فوره، وأزال عتبًا عليه. «مدارج السَّالكين»[2].

(١٧٤) وأنْتَ غنيُّ الذَّات يَا مُغْنِي الوَرَى ... وإنِّي فقيرُ الذَّات مِنْ أصْلِ فِطرَتِي

(١٧٥) ومَا أنَا إلَّا عينُ فقرٍ وحاجةٍ[3] ... وفَقْرِي إلَى جَدْواكَ أجدَى وسِيلَتِي

---

(١) بعصياني. (المؤلف).

(٢) «مدارج السالكين»: ١/ ٢٠٠.

(٣) فاقة. (المؤلف).

(١٧٦) وأرجُو وأرْجُو مِنْكَ مَوْلايَ رَحْمَةً وفضْلًا ولُطْفًا فوقَ ظَنٍّ وحسْبَةٍ
(١٧٧) وفِي حقِّ أولادِي وأمِّي ووالِدِي وصَحْبِي وأشْيَاخِي وأهْلِي وأخْوَتِي
(١٧٨) ورَهْطِي وأسْلافِي[1] وأهْلِ مودَّتِي ومَنْ هوَ يَحبُونِي[2] بِصَالِحِ دعْوَةِ
(١٧٩) وكُنْ لِأطْفالِي كَفِيلًا وَحَافِظًا علَى كلِّ حالٍ مِنْ رخاءٍ وشِدَّةِ
(١٨٠) وفرِّجْ هُمومِي واقْضِ دَيْنِي وَحَاجَتِي سريعًا فشأْنُ العَبْدِ تعجِيلُ طلْبَةِ
(١٨١) وقدْ خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ أتَى بذِكْرِكَ يَا رَحمَنُ مولَى الخَلِيقَةِ
(١٨٢) وأكْرِمْنِ بِالتَّقوَى وَجَمِّلْنِ بِالشَّفَا ومُنَّ علَيَّ بِالحَيَاة الهَنِيئَةِ
(١٨٣) وزَهِّدْنِ فِي الدُّنْيَا وَرَغِّبْنِ فِي العُلَا وأدْخِلْنِ فِي أَهْلِ التُّقَى وَالسَّعَادَةِ
(١٨٤) ولا تُبْقِ بالدُّنيَا لِقَلْبِي علاقَةً فتَخرُج مِنْ قلبِي وتبْقى برَاحتِي[3]
(١٨٥) ونزِّهْ فُؤَادِي عنْ سِواكَ ومِلَّةٍ بِأُنْسٍ وَحُبٍّ واشْتِياقٍ ولَوْعَةِ
(١٨٦) ولا عَمَلٌ[4] عِنْدِي ولا خيرٌ فِي يدِي نَعَمْ حُسْنُ ظنِّي فيكَ كُلُّ بضَاعتِي
(١٨٧) وفضْلُك أرْجَى لِي وعفوُكَ أوْسَعُ فيَكْفِينِيَ الإيمَانُ مَقَال ذرَّةِ
(١٨٨) ويا رَبِّ ثبِّتْنِي علَى الحَقِّ والهُدَى أموتُ علَى الإسْلامِ موْتَ الشَّهادَةِ
(١٨٩) وواللهِ خيرُ المَوتِ موتُ شَهادَةٍ وَأَطْيَبُ دَفْنِ المَرءِ دفْنٌ بِطِيبَةِ
(١٩٠) فيَا ليتَ حظِّي أنْ أمُوتَ بِطِيبةٍ ويُحْفَرُ قبْرِي فِي قبُورِ الصَّحابَةِ
(١٩١) وفِي القَبْرِ آنِسْ وحْشَتِي عندَ غُرْبَتِي وأمْطِرْ علَيْهِ مِنْ شَآبِيبِ رحْمَةِ

---

(١) وآبائي. (المؤلف).

(٢) يُعلِيني. (المؤلف).

(٣) أي: بكفِّي ويدي. (المؤلف).

(٤) ووالله ما عندي بضاعة طاعة/ ويا رب... (المؤلف).

(١٩٢) ومُنَّ عليَّ يومَ تُبْلَى السَّرائرُ   بستْرِ خَطِيئاتِي ومَحْو جَرِيمَتِي

(١٩٣) وأسْعِدْنِ بِالحُسْنَى وزِدْ مِنْ زِيادَة   وأنعِمْ عليَّ بالرِّضَا وَبِنَظْرَة

(١٩٤) وبَلِّغْ تَحِيَّاتِي لِرُوحِ نَبِيِّنَا   مُكَمِّلِ قَصْرِ الْوَحْيِ آخِرِ لَبْنَة

(١٩٥) وأزوَاجِه والآلِ والصَّحْبِ كلِّهِمْ   إِلَى أبَدِ الآبادِ فِي كلِّ لحظَةِ

۞ ۞ ۞

فهرس المصادر والمراجع

❊ الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري، تحقيق فوقية حسين محمود، دار الأنصار، ١٣٩٧هـ.

❊ إتحاف السادة المتقين، مرتضى الزبيدي، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

❊ اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن قيم الجوزية، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، ١٤٣٦هـ.

❊ الأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية ـ مخطوط: دار الكتب القومية ٢٣ بخط أحمد علي النسفي.

❊ الأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية ـ مخطوط: مكتبة حسن حسني ١٢٠٤هـ.

❊ الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ.

❊ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، شهاب الدين القسطلاني، المطبعة الأميرية، ١٣٢٣هـ.

❊ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، إمام الحرمين الجويني، تحقيق أحمد عبد الرحيم وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٩م.

❊ استحالة المعية بالذات ـ محمد الخضر ابن مايابى الشنقيطي، المطبعة المحمودية التجارية بمصر.

❊ الأسماء والصفات، أبو منصور البغدادي الأشعري، تحقيق أنس الشرفاوي، دار التقوى، ١٤٤٢هـ.

❊ الأسماء والصفات، أبو بكر البيهقي، تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤٣٦هـ.

❊ إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان في أصول الدين، كمال الدين أحمد بن حسين البسنوي، ت١٠٩٧هـ تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.

❊ أصول الدين، عبد القاهر البغدادي، ت٤٢٩هـ تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ١٤٣٣هـ.

❊ أصول الدين، أبو اليسر محمد البزدوي، تحقيق هانز بيتر لنس، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤٢٤هـ.

❊ الاعتصام، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق محمد الشقير، وسعد حميد، وهشام الصيني، دار ابن الجوزي، ١٤٢٩هـ.

❊ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أبو بكر البيهقي، تحقيق أنس الشرفاوي، دار التقوى، ١٤٤١هـ.

❊ إلجام العوام، أبو حامد الغزالي، ت٥٠٥هـ تحقيق لجنة دار المنهاج، دار المنهاج، ١٤٣٩هـ.

❊ الإنصاف في ما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، أبو بكر الباقلاني، تحقيق زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤٢١هـ.

❊ إيضاح الكلام فيما جرى للعز بن عبدِ السلام في مسألةِ الكلام، محمد بن عبد العزيز، تحقيق زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٦م.

❊ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، ت٧٧٤هـ تحقيق مجموعة من المحققين، دار ابن كثير، ١٤٣٦هـ.

❊ تاج العروس، مرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، ١٩٦٥م.

❊ تاريخ ابن عساكر، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٤١٥هـ.

❊ تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.

❊ تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١١هـ.

❊ تاريخ الطبري، أبو جعفر الطبري، دار التراث بيروت، ١٣٨٧هـ.

❊ تاريخ بغداد، أبو بكر البغدادي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٢هـ.

❊ تأنيب الخطيب، محمد زاهد الكوثري، ت١٣٧١هـ المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤٣٦هـ.

❊ تأويلات القرآن، أبو منصور الماتريدي، ت٣٣٣هـ تحقيق محمد بوينوقالين، دار الميزان، ٢٠٠٥م.

❊ تبيين كذب المفتري، ابن عساكر الدمشقي، ت٥٧١هـ تحقيق أنس الشرفاوي، دار التقوى، ١٤٤٠هـ.

❊ الترغيب والترهيب، زكي الدين المنذري، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ.

❊ تغليق التعليق على صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق سعيد القزقي، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

❊ تفسير الطبري، أبو جعفر الطبري، تحقيق عبد الله التركي، دار عالم الكتب، ١٤٢٢هـ.

❊ التمهيد في بيان التوحيد، أبو شكور السالمي، تحقيق عمر تركمان، وقف الديانة التركية، ١٤٣٨هـ.

❊ تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق مجموعة من المحققين، جمعية البر، ١٤٤٣هـ.

❊ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق عبد الله التركي، وزارة الأوقاف قطر، ١٤٣٤هـ.

❊ الجامع لشعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، تحقيق عبد العلي حامد، وزارة الأوقاف قطر، ١٤٢٩هـ.

❊ الجامع لعلوم الإمام أحمد بن حنبل، إبراهيم النحاس، دار الفلاح، ١٤٣٠هـ.

❊ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن قيم الجوزية، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، ١٤٢٨هـ.

❊ المسامرة، قاسم بن قطلوبغا، المكتبة الأزهرية، ٢٠٠٦م.

❊ حاشية الجرجاني على الكشاف، أبو الحسن الجرجاني، ت٨١٧هـ تحقيق رشيد عمر أعرضي، ١٤٣٧هـ.

❊ حجة الله البالغة، الشاه ولي الله الدهلوي، ت١١٧٦هـ تحقيق سعيد أحمد البالنبوري، دار ابن كثير، ١٤٣٨هـ.

❊ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، مطبعة السعادة، ١٣٩٤هـ.

❊ الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، عبد العزيز الكناني، تحقيق علي الفقهي، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٣هـ.

❊ خلق أفعال العباد، محمد بن إسماعيل البخاري، ت٢٥٦هـ تحقيق فهد الفهيد، دار أطلس الخضراء، ١٤٣٥هـ.

❊ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ.

❊ الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، شمس الدين السفاريني، ت١١٨٨هل، تحقيق عبد الله محمد العبد الله، دار الرياحين، ١٤٤٠هـ.

❊ درء تعارض العقل، ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤١١هـ.

❊ شرح ديوان الحماسة، أبو علي الأصفهاني، تحقيق غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ.

❊ ديوان جامي، نور الدين جامي، دفتر نشر ميراث مكتوب، ١٣٨٧هـ.

❊ رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم الشيخ الأكبر، جمع محمود محمود الغراب.

❊ رشحات الأقلام شرح كفاية الغلام، عبد الغني النابلسي، تحقيق إلياس قبلان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ.

❊ روح المعاني، أبو الثناء محمود الآلوسي، ت١٢٧٠هـ تحقيق ماهر حبوش، مؤسسة الرسالة، ١٤٣٦هـ.

❊ سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ.

❊ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ.

❊ سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ.

❊ سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٦هـ.

❊ السنة لابن أبي عاصم، ابن أبي عاصم، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.

❊ السنة، عبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن القيم، ١٤٠٦هـ.

❊ السيرة النبوية، ابن هشام، دار ابن حزم، ١٤٣٠هـ.

❊ السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل، تقي الدين السبكي الكبير، ت٧٥٦هـ تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤٣٧هـ.

❊ السيوف المشرقة ومختصر الصواقع المحرقة، أبو الثناء الألوسي، تحقيق مجيد الخليفة، مكتبة الإمام البخاري، ١٤٢٩هـ.

❊ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو بكر اللالكائي، تحقيق أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة، ١٤٢٣هـ.

❊ شرح العقيدة الأصبهانية، ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد بن عودة السعوي، دار المنهاج، ١٤٣٠هـ.

❊ شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح، سعد الدين التفتازاني، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ.

❊ شرح العقائد النسفية مع التعليقات، سعد الدين التفتازاني، ت٧٩١هـ تحقيق عبد الله الكماخي، دار الرياحين، ١٤٣٨هـ.

❊ شرح العقائد العضدية مع حاشية الكلنبوي، إسماعيل بن مصطفى الگلنبوي، ت١٢٠٥هـ تحقيق أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، ١٤٣٨هـ.

❊ شرح العقيدة السفارينية، محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، ١٤٢٦هـ.

❊ شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ت٧٩٢هـ تحقيق عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤٣٦هـ.

❊ شرح الفقه الأكبر للماتريدي، أبو منصور الماتريدي، دار البصائر، ١٤٣٠هـ.

❊ شرح الفقه الأكبر، الملا علي القاري، ت١٠١٤هـ تحقيق علي محمد دندل، دار الكتب العلمية، ٢٠١١م.

❊ شرح المقاصد، سعد الدين التفتازاني، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار عالم الكتب، ١٤١٩هـ.

❊ شرح المواقف ـ دار الكتب العلمية.

❊ شرح المواقف، السيد الشريف الجرجاني، تحقيق محمود الدمياطي، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.

❊ شرح وصية الإمام أبي حنيفة، أكمل الدين البابرتي، ت٧٨٦هـ تحقيق محمد صبحي العايدي، حمزة البكري، دار الفتح، ١٤٣٨هـ.

❊ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة ابن قيم الجوزية، تحقيق زاهد بن سالم بلفقيه، دار عطاءات العلم، ١٤٤١هـ.

❊ صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، دار المنهاج، ١٤٣٥هـ.

❊ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد زهير الناصر، دار المنهاج، ١٤٣٥هـ.

❊ ضوء المعالي شرح بدء الأمالي، الملا علي القاري، ضمن مجموع رسائله.

❊ طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى الحنبلي، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية.

❊ طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة، ١٤١٣هـ.

❊ طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ١٤٢٩هـ.

❊ العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م.

❊ العقد الفريد، أحمد بن محمد الأندلسي، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ.

❊ العقيدة النظامية، إمام الحرمين الجويني، تحقيق زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤١٢هـ.

❊ العلو للعلي الغفار، شمس الدين الذهبي، تحقيق أبو محمد أشرف عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، ١٤١٦هـ.

❊ الفتاوى الكبرى، ابن تيمية الحراني، دار المعرفة، ١٣٨٦هـ.

❊ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

❊ الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، ابن علان المكي، ت١٠٥٧هـ تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ١٤٣٥هـ.

❊ الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، مكتبة السلام العالمية، ١٣٤٨هـ.

❊ فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، عبد العلي محمد بن نظام اللكنوي، تحقيق عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ.

❊ كتاب التوحيد وإثبات صفات رب ﷻ، ابن خزيمة، تحقيق عبد العزيز الشهوان، دار الرشد، ١٤١٤هـ.

❊ كتاب المحنة، أبو علي الشيباني، ت٢٧٣هـ تحقيق أبو جنة الحنبلي، مركز الملك فيصل، ١٤٤٠هـ.

❊ لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر.

❊ لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٣هـ.

❊ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المنهاج، ١٤٣٦هـ.

❊ مجموع رسائل ابن كمال باشا، ابن كمال باشا، ت٩٤٠هـ تحقيق مجموعة من المحققين، دار اللباب، ١٤٣٩هـ.

❊ مجموع رسائل الملا علي القاري، الملا علي القاري، ت١٠١٤هـ تحقيق مجموعة من المحققين، دار اللباب، ١٤٣٧هـ.

❊ مجموع رسائل مرعي الكرمي الحنبلي، مرعي الكرمي الحنبلي، ت١٠٣٣هـ تحقيق مجموعة من المحققين، دار اللباب، ١٤٣٩هـ.

❊ مجموع الفتاوى، ابن تيمية الحراني، جمع عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، ١٤٢٥هـ.

❊ مجموعة الرسائل والمسائل، ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي.

❊ مختار الصحاح، زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي، ت بعد ٦٦٦هـ تحقيق أحمد العوامري وبسام الجابي، دار ابن حزم، ١٤٣٦هـ.

❊ مختصر التحفة الاثني عشرية، محمد شكري الألوسي، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، ١٣٧٣هـ.

❊ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، محمد ابن الموصلي، تحقيق الحسن العلوي، أضواء السلف، ١٤٢٥هـ.

❊ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ.

❊ المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد، بكر أبو زيد، دار العاصمة، ١٤١٧هـ.

❊ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري، تحقيق جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

❊ المسامرة في توضيح المسامرة، كمال الدين المقدسي، ت٩٠٦هـ تحقيق محمد صالح الغرسي، ١٤٣٩هـ.

❊ مسند أبي يعلى، أبو يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، ١٤١٠هـ.

❊ مسند أحمد، أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ.

❊ معالم أصول الدين، فخر الدين الرازي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي.

❊ المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق عوض الله، دار الحرمين، ١٤١٥هـ.

❊ معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، ١٣٩٧هـ.

❊ المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق محمد شكور محمود، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

❊ المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٤هـ.

❊ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ١٤٣٠هـ.

❊ مقالات الكوثري، محمد زاهد الكوثري، ت١٣٧١هـ دار السلام، ١٤٣٦هـ.

❊ مكارم الأخلاق، أبو بكر الخرائطي، تحقيق عبد الله بن بجاش، مكتبة الرشد، ١٤٢٧هـ.

❊ المكتوبات الربانية، أحمد بن عبد الأحد السرهندي، ت١٠٣٤هـ تحقيق مصطفى حسنين عبد الهادي، دار الكتب العلمية، ١٤٤٣هـ.

❊ الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، ١٣٨٧هـ.

❊ منهاج السنة، ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سليم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦هـ.

❊ المواقف، عضد الدين الإيجي، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، ١٤١٧هـ.

❊ نجم المهتدي ورجم المعتدي، فخر الدين القرشي المصري، تحقيق بلال السقا، دار التقوى، ١٤٤١هـ.

❊ نهاية الإقدام، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق ألفرد جيوم، مكتبة المثنى ببغداد، ١٩٦٥م.

❊ نهاية الإقدام، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار الكتب العلمية، ١٤٢٥هـ.

❊ نهاية العقول في دراية الأصول ـ فخر الدين الرازي، تحقيق سعيد فودة، دار الذخائر، ١٤٣٦هـ

❊ نوادر الأصول، الحكيم الترمذي، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، ١٤١٢هـ.

❊ اليواقيت والجواهر، محي الدين بن عربي، دار إحياء التراث مؤسسة التاريخ.

❊ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، عبد الوهاب الشعراني، تحقيق عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، ١٤٤٠هـ.

❁ ❁ ❁

فهرس الموضوعات

الكلام الموثوق
في تحقيق أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق

الكلام الموثوق

في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

تائية القضاء والقدر
مع شرحها الموسوم بسلك الدرر

تائية القضاء والقدر
مع شرحها الموسوم بسلك الدرر